دراسات في الكتاب المقدس

الأب دوناسيان مولا اليسوعي

# قراءات في إنجيل يوحنا

٧



دار المشرق - بيروت

طُبع بمساهمة عائلة جرجي نعمة الله عقّاد

دراسات في الكتاب المقدس

الأب دوناسيان مُلاّ اليسوعي

# قراءات في إنجيل يوحنا

نقله الى العربية
الأب حليم عبدالله

طبعة ثالثة

٧

دار المشرق - بيروت

**سلسلة**
**«دراسات في الكتاب المقدس»**
المدير : **الأب أنطوان أودو اليسوعي**

لا مانع من طبعه
**بولس باسيم**
النائب الرسولي للّاتين
بيروت في ٣١ تموز ١٩٨٧

ISBN 2-7214-4655-x

طبعة ثانية ١٩٨٩
**دار المشرق ش.م.م** — ص. ب. ٩٤٦ — بيروت

**التوزيع**
**المكتبة الشرقية** ، ص. ب. ١٩٨٦
بيروت ، لبنان

**جمعيات الكتاب المقدس في المشرق**
ص. ب. ٧٤٧ — ١١ ، بيروت ، لبنان

تصميم الغلاف : **جان قرطباوي**

صدر هذا الكتاب بالفرنسية تحت العنوان التالي :
Donatien Mollat
Lectures de Saint Jean
2e édition , 1979
Publications des
Equipes Notre-Dame

# المقدمة

## مؤلف الانجيل الرابع ، حياته وشخصيته

لا يذكر الانجيل الرابع اسم مؤلفه ، لا بل يعبّر عن بعض الرغبة في التستر بهذا الشأن. إلا انه يوجد في نهاية الكتاب (٢١ / ٢٤) اشارة صريحة الى شخصية تلميذ معيّن كان «يشهد لهذه الأمور ويدوّنها».

من هو هذا التلميذ؟ ان النص السابق الذكر يبيّن انه نفس «التلميذ الذي كان يسوع يحبه والذي مال على صدره في أثناء العشاء وقال له : يا رب ، مَن الذي يسلمك؟» (٢١ / ٢٠)، وهو نفس التلميذ الذي تسلم أم يسوع كوديعة أمام الصليب والذي سارع مع بطرس الى قبر المسيح صبيحة يوم الفصح ودخل إليه وشاهد الأكفان وآمن بقيامة الرب من الأموات (٢٠ / ٢ الى ١٠).

لقد أعطت التقاليد المسيحية حكمها حول هوية هذا التلميذ الذي كان حبيب يسوع المفضل والذي ألّف الانجيل ، وأشارت الى القديس يوحنا بشكل شبه قطعي. صحيح ان الشهادات الصريحة التي تعزو تأليف الانجيل الرابع الى يوحنا لا ترجع سوى الى نهاية القرن الثاني ، غير ان التأكد القاطع الصادر عن القديس ايريناوس الليوني بهذا الشأن يستمدّ قوته من كون القديس المذكور قد عاشر القديس بوليكاربوس اسقف ازمير الذي كان هو نفسه تلميذاً للقديس يوحنا ، فتكون السلسلة ، والحالة هذه ، لا تحتوي إلا حلقتين.

وما يؤيد هذه الشهادة هو الصمت الذي يحيط في داخل الانجيل نفسه بولَدَي زبدي : يعقوب ويوحنا ، وهو صمت يثير الدهشة من ناحيتين ، اذ من المعلوم أن الشقيقين المذكورين يحتلان مكانة مميزة في الأناجيل الثلاثة المتوافقة ، والجميع يعرفون من جهة أخرى ان الانجيل الرابع هو الذي يأتي على ذكر أكبر عدد من أسماء الرسل. واللغز الناجم عن هذا الصمت حول ولدي زبدي يصبح محلولاً اذا كان كاتب الانجيل الرابع هو أحدهما ، وفي هذه

الحالة لا يجوز أن يكون سوى يوحنا ، سيما وان الوضع المميّز الذي خُصّ به «التلميذ الذي كان يسوع يحبه» ، في الانجيل الرابع ، يتطابق مع المكانة الخاصة المعترَف بها لولدي زبدى في الأناجيل المتوافقة الثلاثة .

أما عن حياة القديس يوحنا وشخصيته ، فالأناجيل توفر لنا بعض المعلومات الثمينة . كان ابناً لزبدى وسالومه (مرقس ١ / ١٩ و ١٥ / ٤٠ ، متى ٢٧ / ٥٦) ، وشقيقاً ليعقوب الكبير ، وكان قد مارس في بادئ الأمر مع والده وأخيه مهنة صياد في بحيرة جناسرت . ثم أصبح على ما يبدو تلميذاً ليوحنا المعمدان ، ولا بد انه أقام اتصالات مع المحافل الروحانية التي أتت منها الوثائق المكتشفة في قمران منذ بعض السنين . وهذا قد يفسّر أكثر من صفة من صفات مؤلَّفاته .

يروي لنا الانجيل الرابع اللقاء الأول بين يسوع ويوحنا (١ / ٣٥ الى ٣٩) ، اذا افترضنا على الأقل ان هذا الأخير هو الذي كان برفقة اندراوس في ذلك اليوم (علماً ان بعض شارحي الكتاب المقدّس يشكّون في صحة ذلك ، ومنهم الأب بُوامار) . أما الأناجيل الثلاثة الأخرى (أي الأناجيل المتوافقة) ، فانها تنقل لنا قصة دعوته بحدّ ذاتها (مرقس ١ / ١٩) ، وتذكر أنه كان حاضراً مع بطرس وأخيه يعقوب عند إحياء ابنة يائير (مرقس ٥ / ٣٧) وانه حضر أيضاً تجلّي يسوع (مرقس ٩ / ٢) ونبوءته عن خراب الهيكل ونهاية العالم (مرقس ١٣ / ٣) وآلامه في بستان الزيتون (مرقس ١٤ / ٣٣) . وقد أشرنا أعلاه الى دوره في العشاء السري الأخير وأثناء آلام المسيح وفي صبيحة يوم الفصح ، كما انه شوهد في الصيد العجيب برفقة بطرس أيضاً (٢١ / ٢ ، ٧ ، ٢٠ الى ٢٣) .

ثم يأتي كتاب أعمال الرسل ليكمل صورة يوحنا فيظهر فيه مع بطرس في صف الرسل الأقطاب ويُعتَقَل معه على أثر شفاء الرجل المقعد الذي كان يجلس على الباب الحسن ، ثم يوضع في السجن ويَمْثُل أمام المجلس ويُفرَج عنه (أعمال ٣ / ١ الى ١١ ؛ ٤ / ٣ ، ١٣ ، ١٩) . ومع بطرس أيضاً ، يزور الكنيسة الناشئة في السامرة ويبشّر قرى هذه المنطقة (أعمال ٨ / ١٤ و ٢٥) ويسمّيه بولس ، مع يعقوب وكيفا ، أحد أساطين الكنيسة (غلاطية ، ٢ / ٩) .

يؤكد أكثر من مؤلف مسيحي من القرن الثاني ان القديس يوحنا جاء ليستقرّ في أفسس وانه رئس فيها الكنائس التابعة لولاية آسيا الرومانية . ويمكن تحديد تاريخ مجيئه بشكل تقريبي بين عامَي ٦٧ و ٧٠ ، بعد أداء بولس وطيموتاوس لرسالتهما في افسس وقبل الحرب اليهودية . ثم نفي في عهد الامبراطور دوميسيانوس (٨١ — ٩٦) الى جزيرة باتموس حيث تراءى له ما دوّنه في الرؤيا (الرؤيا ١ / ٩) ، وعند عودته الى افسس بعد موت دوميسيانوس ، ساس فيها كنائس آسيا حتى موته . وفي نهاية حياته ، حطّمته الشيخوخة ، حسب وصف القديس هيرونيموس ، الى حدّ أصبح معه رفاقه مضطرين الى نقله محمولاً الى الجماعة المسيحية ، وهناك لم تسمح به حياته الصحية من التكلم طويلاً فكان يكتفي بأن يكرر قائلاً : «يا أولادي الصغار ، ليحبّ بعضكم بعضاً» ، واذا ما سئم المؤمنون أحياناً هذه الكلمات المكررة ، قال

لهم : «تلك هي وصية الرب ، واذا راعيتموها ، هذا يكفي» . وقد توفي في افسس متقدّماً في السن في عهد الامبراطور تراجان (٩٨ — ١١٧) .

يبدو القديس يوحنا ، في الأناجيل المتوافقة الثلاثة ، ذا مزاج حار ومندفع ، وعندما دعاه يسوع ليتبعه لم يكن ذلك الشاب المتكلف في اللطف والوداعة ، كما نتصوّره في العديد من الأحيان ، وقد سمّاه يسوع بحق هو وأخاه يعقوب «بُوانِرْجِس» ، أي ابنا الرعد (مرقس ٣ / ١٧) ، كما أنه ثار ثائره عندما رأى رجلاً من غير أتباع المسيح يطرد الشياطين باسم يسوع (مرقس ٩ / ٣٨) . وأيضاً اقترح ذات يوم هو وأخوه أن يُنزلا ناراً من السماء لتلتهم السامريين الذين لم يستضيفوا يسوع (لوقا ٩ / ٥١ الى ٥٥) ، كما أبدى رغبته في احتلال مكان الصدارة في ملكوت السماء بالاتفاق مع أمه وأخيه (متى ٢٠ / ٢٠ — ٢٣) . وبحق يصف اللاهوتي البروتستانتي كارل بارت روحه على أنها «روحٌ من نار ورعد» . ان هذا المزاج الخاص يبرز من خلال نصوص الانجيل الرابع والرؤيا حيث تأخذ حياة يسوع شكل مأساة مؤثرة (١ / ١٢ ؛ ١٢ / ٣٧) .

## هدف الانجيل والى من كان موجَّهاً

من المسلم به بصورة عامة ان القديس يوحنا ألّف انجيله في افسس بنهاية القرن الأول . غير أن هناك اتجاهاً متزايداً نحو اعتباره كنتيجة لعملية اعداد بطيئة ، كما لو كان يعكس المدة الطويلة التي أدى فيها يوحنا رسالته ، محتوياً عناصر من حقب مختلفة ، وتنقيحات وإضافات وتتمات وكتابات متنوعة من تعليم واحد . وسنعطي مثلاً عن ذلك بمناسبة تطرقنا الى الفصلين الخامس عشر والسادس عشر .

ربما لم يضع يوحنا نفسه اللمسة الأخيرة على انجيله ، ومن المحتمل أن يكون البعض من تلاميذه قد حرروا المقطع الختامي من الفصل الحادي والعشرين ونشروا الانجيل كله . اننا نجهل أهمية تدخلهم في كتابة نصوص الانجيل وترتيبها ، وثمة الذين يميلون الى اعتبار هذا التدخل ذا شأن ، فيكوّنون فكرة معقدة عن كيفية تأليف الانجيل الرابع ويقولون ان يوحنا هو مصدره ومصدر تصوّره الأساسي ، ولكنهم يتحدثون في الوقت نفسه عن وجود مدرسة ليوحنا ساهمت في عملية التحضير النهائية .

الهدف العام للانجيل يكمن في خاتمة الفصل العشرين حيث أراد المؤلف ، مستنداً الى بعض الوقائع المعبّرة التي اختارها ، أن يوقظ الايمان في يسوع ، المسيح وابن الله ، وأن يقود الناس الى الحياة عن طريق الايمان (٢٠ / ٣٠) .

أما اختلافات الرأي بين شارحي الكتب المقدسة ، فتقتصر على تحديد الهدف المباشر للانجيل الرابع وهوية الذين وُجِّه إليهم ، ويقول البعض ان له غاية تبشيرية وانه عبارة عن كتاب دعاية مسيحية . فمنهم من يعتبر ان هذه الدعاية تستهدف العالم اليوناني المثقف والمنفتح على الحقائق الدينية رغم وثنيته ، في حين يرى البعض الآخر انها موجّهة الى اليهود المشتّتين خارج فلسطين في مناطق ذات ثقافة يونانية ، وان يوحنا كان يقصدهم عندما برهن ان يسوع هو المسيح المخلّص .

بيد انه يبدو من الأرجح ان الانجيل كتب لأجل المسيحيين أنفسهم. ان العبارة: «لكي تؤمنوا» (١٩ / ٣٥ ؛ ٢٠ / ٣١)، التي يستند إليها أنصار التفسير التبشيري، لا تستهدف بالضرورة الكفّار بغية حملهم على الاهتداء، بل يمكن أن تنطبق على المسيحيين الذين لم يشهدوا الوقائع مثلما شهدها يوحنا والذين يؤمنون أو سيؤمنون ولم يروا» (٢٠ / ٢٩)، أي ان يوحنا كتب لتنويرهم ولتغذية وتعميق ايمانهم وربما للذود عن ايمانهم هذا، كما يؤكد القديس ايريناوس، ضد بعض المذاهب التي كانت تنكر صحة التجسد التامة.

هدف الانجيل اذاً هو أولاً راعوي على ما يبدو. انه يتوجه الى الكنيسة، وهي كنيسة يحييها الايمان بالمسيح وتعيش من أسراره. وقد قال كُولمان ان هدف الانجيل هو «رسم الخط الذي يربط مسيح التاريخ بالمسيح الرب، أي بمسيح الكنيسة التي يستمر فيها تجسد الكلمة». ويرمي يوحنا الى جعل المسيحيين يكتشفون، في أحداث حياة المسيح، وجود ومنشأ أسرار «النعمة والحق» (١ / ١٤ و١٧) التي يستفيدون منها عن طريق الايمان والأسرار.

شاهد القديس يوحنا، إبّانَ حياته الطويلة، خبرته الانجيلية تتعمّق وتزدهر في حياة الكنيسة، ورأى في العقود التي تلت موت المسيح وقيامته ان أعمال المعلم أخذت تتوسّع في «أعمال أعظم منها» (١٤ / ١٢)، أعمالَ تلاميذه، ورأى كيف أثمرت الكرمة ثمرها في الأغصان (١٥ / ٥)، فتوضّحت آيات يسوع وأقواله (٢ / ١٨ الى ٢٢ ؛ ٧ / ٣٧ الى ٣٩ ؛ ١٢ / ١٢ الى ١٦ ؛ ١٦ / ٢٥). وفي الوقت الذي بدأ فيه يوحنا أن يكتب، في نهاية القرن الأول، أخذت وصية المسيح تضفي على العالم نور يوم جديد يتواجد مركز اشعاعه في جماعة المسيحيين (رسالة يوحنا الأولى، ٢ / ٨) والانجيل الرابع ليس هو إلّا حياة يسوع مكتوبة في هذا النور.

يشهد اذاً الانجيل الرابع لحياة يسوع على الأرض ولوجوده وأفعاله في طائفة تلاميذه. وعملية التنوير هنا متبادلة: حياة الكنيسة، التي نستشفها في سائر أجزاء الانجيل، تحيلنا الى يسوع التاريخ كمصدر لها، ويسوع التاريخ، الذي تُكَرَّرُ آياته وكلماته، يحيلنا بدوره وباستمرار الى الكنيسة كثمر من ثماره: «أنا أتمجّد بهم» (١٧ / ١٠). ان سر الحَمَل الذي يحتفل به المسيحيون في الأفخارستيا يفقد كل قيمته بدون تقريب المسيح كذبيحة على الصليب، ولكن بالمقابل أي معنى سيبقى لهذه الذبيحة اذا انقطع الماء والدم، النابعان من جنب الحمل، عن إرواء الكنيسة وعن نقل عطاءات الروح القدس الى المسيحيين؟ وماذا سيصبح سرّ عرس قانا الجليل اذا كان لا يتحقق دائماً في سر أعراس الخلاص بين يسوع والكنيسة؟ هذا هو مبدأ من مبادئ القديس يوحنا الأساسية، ويجب أن نقتدي به دائماً عند قراءة الانجيل، وهذا الانجيل هو انجيل كنسي، وكلما نظرنا الى آيات يسوع الناصري وأقواله، وجدنا في طيّاتها يسوع الحيّ نفسه، يسوع الحاضر الذي يعمل بيننا، معبراً اليوم عن مجده بواسطة روحه (١٦ / ١٤).

ومع ذلك، من الممكن التسليم مع أنصار الهدف التبشيري ان هذا الانجيل الكنسي يتوجه، بمعنى حقيقي تماماً، الى كل انسان وانه يجد صدى في كل انسان. انه الانجيل الأكثر شمولاً بين كل الأناجيل، وذلك بسبب عمق الادراك الذي أبداه

يوحنا لسرّ المسيح. والمسيح الذي يقترح علينا الايمان به وعبادته هو الكلمة «الذي به كان كل شيء» (١ / ٣)، والنور «الذي ينير كل انسان» (١ / ٩)، والابن الوحيد الذي يُخبر عن الآب (١ / ١٨)، والذي يشمل حبه العالم (٣ / ١٦).

ان الدين «بالروح والحق» (٤ / ٢٣)، الذي يعلّمه يسوع، يخترق كل الحدود ويقلب كل الامتيازات رأساً على عقب ولا يعرف سوى الانسان في دعوته الأساسية كابن لله (١١ / ٥٢).

ان الخيرات التي يعد بها تطابق أهم تطلعات الكائن البشري: الخبز، نبع الماء الحي، النور، الحق، الحب، الحياة. لا يُسْتَبْعَد منها أحد، ويقف يسوع، على غرار الحكمة في العهد القديم، على مفترق طرقنا ويدعو جميع البشر الى أن يأتوا إليه: «مَن كان عطشان فليأتني... (٧ / ٣٧)... «أنا خبز الحياة، من يأتني لا يجع أبداً ومن يؤمن بي لا يعطش أبداً (٦ / ٣٥)». ولا يوجد أي شرط للحصول على تلك الخيرات سوى شرط واحد وهو الايمان، أي الاستسلام ليسوع استسلاماً تاماً ومطلقاً (٩ / ٣٥).

ان هذا الاتجاه الجامع للانجيل يظهر جليّاً في الصلاة الكهنوتية التي تلاها المسيح قبل آلامه، وقد صلّى فيها لأجل وحدة تلاميذه قبل تقديم نفسه كذبيحة، ولكن ليس لأنه يريدهم أن ينطووا على أنفسهم بل ليصبحوا بيت محبة يجذب إليه جميع البشر: «فليكونوا بأجمعهم واحداً: وكما أنت فيّ أيها الآب وأنا فيك كذلك فليكونوا فينا واحداً ليؤمن العالم بأنك أنت الذي أرسلني» (١٧ / ٢١).

يجب اذاً أن تتركّز قراءتنا للانجيل الرابع على جانبه الكنسي التَوراتي وأن تبقى في الوقت نفسه منفتحة على ما هو شامل جامع، ومهتمة بالناحية البشرية لرسالة يسوع كما دوّت في قلب تلميذه المحبوب.

## بنية الانجيل

هناك اختلاف ملحوظ بين انجيل يوحنا والأناجيل المتوافقة الثلاثة من حيث البنية. فقد تَعَمَّد يوحنا الاختصار عندما اختار الأحداث المتعلقة بحياة يسوع وقد انتقاها نظراً لقيمتها كآيات (٢٠ / ٣٠) واستُخدمت كنقطة ارتكاز لخطب طويلة، لذلك بني الانجيل على أساس لمحات قصصية موجزة تتناوب مع «آيات» وعظات ذات طابع لاهوتي مع شرحها أو التوسع بها. ويلاحَظ ان الترتيب معكوس في القسم الأخير من الانجيل اذ جاء التعليق اللاهوتي على آلام المسيح قبل سرد الأحداث المتعلقة بها، بيد ان جوهر البنية بقي على ما هو.

علاوة على ذلك، ان المقاطع الروائية والآيات والخطب تشكل، في تتابعها وترتيبها، جزءاً لا يتجزّأ من نظرة شاملة وتدرّج درامي، مما يوحّدها بعضها مع بعض توحيداً وثيقاً. وبالرغم من بعض ظواهر الخلل، لا شك ان انجيل يوحنا هو الانجيل الذي يحتوي على أكبر قدر من الأفكار والذي يتمتع بأقوى بنية، فقد أراد مؤلفه، في سرده لسير حياة يسوع، أن يبرز فيه منطقاً داخلياً عميقاً وانجازاً لعمل الهي متفق عليه، وهذه النظرة هي التي كانت وراء المخطّط.

والواقع ان آراء الشارحين تختلف اختلافاً كبيراً فيما يعود لمبدأ هذا المخطط وأجزائه، غير انه يبدو أن الأعياد اليهودية توفّر قاعدة موضوعية لتحديد مقاسمه الهامة وان بالامكان الانطلاق منها لتنظيم كل مادة انجيل يوحنا. وبوسعنا أن نميّز فيه قسمين رئيسيين أو كتابين اذا ما أخذنا بعين الاعتبار الشق الكبير القائم بين فصليه الثاني عشر والثالث عشر واذا وضعنا مقدمته على حدة. وهذان الكتابان هما: ١) وكتاب الأعياد اليهودية (١ / ١٩ ؛ ١٢ / ٥٠). ٢) وكتاب ساعة يسوع أو كتاب الفصح الجديد (١٣ / ١ ؛ ٢٠ / ٣١). أمّا الفصل الحادي والعشرون، فهو بمثابة خاتمة.

* * *

## المقدمة (الفصل ١، الآيات ١ الى ١٨)

**أولاً. الكتاب الأول = كتاب الأعياد اليهودية** ؛
ويمتدّ من الآية (١٩) من الفصل (١) حتى الآية (٥٠) من الفصل (١٢)، وباستطاعتنا تبويبه كما يلي:

١. **الفصح الأول**: من (١ / ١٩ الى ٤ / ٥٤): هذا القسم يتركّز على اعلان مجيء العهد والعبادة الجديدين في يسوع وهما سيحلان محل الدين اليهودي.

آ) الاسبوع الافتتاحي: من ١ / ١٩ الى ٢ / ١٢: شهادة يوحنا المعمدان لحمل الله، التلاميذ الأوائل، عرس قانا: يسوع يبرز مجده.

ب) الفصح الأول: من ٢ / ١٣ الى ٣ / ٣٦: يسوع يحضر الى أورشليم، يطرد الباعة من الهيكل، يكشف لنيقودمس سر الولادة الجديدة والماء والروح، يعلّم في اليهودية.

جـ) يسوع عند السامريين: يكشف العبادة بالروح والحق. العودة الى الجليل: معجزة ثانية في قانا: ٤ / ١ الى ٥٤.

٢. **العهد غير المسمّى**: من ٥ / ١ الى ٤٧: يحصل أول اصطدام بين يسوع والرؤساء اليهود بمناسبة شفائه رجلاً مقعداً في بركة بيت ذاتا، ثم يؤكد نفسه كابن الله مساوٍ للآب، نبع حياة وديّان أعلى، مَن تشهد له الكتب، ثم يشجب قلة ايمان الرؤساء اليهود.

٣. **الفصح الثاني**: من (٦ / ١ الى ٧١): نزاع بين يسوع وجماهير الجليل. يسوع ينجز معجزة تكاثر الخبز ويرفض محاولة مشبوهة لاقامته ملكاً ويلحق بتلاميذه ماشياً على البحر ويعلن نفسه الخبز الحيّ الذي يعطي الحياة. الرؤساء اليهود يتذمرون وكثيراً من تلاميذ يسوع ينقطعون عن مصاحبته. وفاء الرسل الاثني عشر ومجاهرة بطرس بايمانه.

٤. **عيد المظالّ**: من ٧ / ١ الى ١٠ / ٢١: يسوع يوجّه الى أورشليم نداءاته الكبيرة من أجل الخلاص.

آ) جدال بين أفراد الشعب حول المسيح: يسوع يعلن نفسه نبعاً للماء الحي (٧ / ٣٧ الى ٣٩) ونوراً للعالم (٨ / ١٢) ويقول عن نفسه «أنا هو»، أي الله (٨ / ٢٤ و ٢٨ و ٥٨) ويهدَّد بالرجم (٨ / ٥٩).

ب) شفاء رجل أعمى منذ ولادته: ٩ / ١

الى ٤١) : يبرهن المسيح انه نور العالم ويشجب عمى قلب الفريسيين.

جـ) يسوع يندّد بالرعاة السيئين ويعلن انه الراعي الصالح (١٠ / ١ الى ٢١).

٥. **عيد تجديد الهيكل**: من ١٠ / ٢٢ الى ١١ / ٥٤ : الحكم على يسوع بالاعدام على يد الرؤساء اليهود العديمي الايمان.

آ) يسوع، الذي وُجِّه إليه إخطار بأن يقول هل هو المسيح، يؤكد أنه واحد مع الآب وانه ابن الله ويواجه تهديدات جديدة برجمه : ١٠ / ٢٢ الى ٤٢.

ب) احياء عازار : كثيرون يؤمنون بيسوع : ١١ / ١ الى ٤٥.

جـ) اجتماع المحكمة العليا اليهودية (مجلس الاحبار) التي تقرر قتل يسوع : ١١ / ٤٦ الى ٥٤.

٦. **خاتمة حياة يسوع بين الناس والتمهيد للفصح الأخير**: من ١١ / ٥٥ الى ١٢ / ٥٠.

آ) هل يجيء الى العيد؟ : ١١ / ٥٥ الى ٥٧.

ب) دهن يسوع بالطيب في بيت عنيا : توطئة رمزية لدفن يسوع : ١٢ / ١ الى ٨.

جـ) يسوع الملك المخلّص يدخل أورشليم : ١٢ / ٩ الى ١٩.

د) يطلب بعض اليونانيين مقابلة يسوع الذي يعلن أن ساعته قد أتت : ١٢ / ٢٠ الى ٣٦.

هـ) خاتمة نشاط المسيح في المجتمع. واقعة انعدام الايمان لدى اليهود. مراجعة لتعاليم يسوع : ١٢ / ٣٧ الى ٥٠.

**ثانياً. الكتاب الثاني = كتاب ساعة يسوع أو فصح حمل الله**؛ ويمتد من الآية (١) من الفصل (١٣) حتى الآية (٣١) من الفصل (٢٠).

١. **عشاء يسوع الأخير مع تلاميذه**: ١٣ / ١ الى ١٧ / ٢٦ : غسل الأقدام. يسوع ينبئ بخيانة يهوذا — الوداع — أوج تعاليم يسوع — الصلاة الكهنوتية.

٢. **الآلام**: الفصلان ١٨ و١٩.

٣. **أنباء القيامة**: طوبى للذين يؤمنون : ٢٠ / ١ الى ٢٩.

٤. **خاتمة الانجيل الأولى**: ٢٠ / ٣٠ وما يليها.

**ثالثاً. الملحق (الخاتمة) = ٢١ : ١ الى ٢٥**؛ يسوع يتراءى على شاطئ البحيرة. الصيد الأعجوبي رمز لرسالة الكنيسة — يسوع يسمي بطرس راعي خرافه — دعوة يوحنا.

* * *

واليكم الآن بعض الملاحظات حول هذا المخطط.

أشرنا سابقاً الى الطابع الدرامي للانجيل، فنشاهد فيه تطور أمرين تطوراً تدريجياً ومتوازياً : من جهة، ظهور المسيح كالمخلّص الذي أعلنت عنه الكتب والعبادة وكل تاريخ اسرائيل والذي يَنتظر الناس مجيئَه، ومن جهة أخرى انعدام الايمان لدى العالَم اليهودي الذي يشاهد امتيازاته تنهار وتقاليده

تتزعزع فلا يقبل أن يرى في ادّعاء يسوع سوى تجديف. ويزداد هذا النزاع خطورة باستمرار حتى ينتهي بالملاحظة الأليمة ليوحنا: «أتاهم يسوع بجميع هذه الآيات فلم يؤمنوا به» (١٢ / ٣٧)، وبالنهاية المأساوية على الصليب (١٩ / ١٥). ان هذه المنازعة في كون يسوع مخلّصاً تطرح مشكلة تدعو الى القلق، بيد ان انتصار الظلام على النور والعالم على يسوع ليس سوى انتصار ظاهري، اذ يتغلب يسوع حتى في موته على قوى الشر ويخبر تلاميذه بظفره قائلاً: «اصبروا لها، لقد غلبت العالم» (١٦ / ٢٣). ان هذا الانتصار للنور حتى في وسط الظلام، وللحياة في الموت، وللمحبة تحت ضربات البغض، ان هذا الانتصار لهو الكلمة الأخيرة للمأساة ولانجيل يوحنا.

ويلاحَظ علاوة على ذلك ان كل قسم من الانجيل يحتوي بطريقته على المأساة بكاملها. فسَير الأحداث هو نفسه: يسوع يصعد الى أورشليم ويكشف عن كونه المخلّص المرسل وابن الله فيُرَدّ ادّعاؤه كالحاد. ولكن هناك شعاعاً من النور يتسرّب عبر تلك الظلمة، اذ يظهر جمع صغير أو فرد واحد مثل الرجل الأعمى منذ مولده (٩ / ٣٥ الى ٣٨) فيفتح عيونه ويؤمن، وكل حلقة من الانجيل تحقق بطريقتها كلمات مقدمته: «جاء الى بيته فما قبله أهل بيته، أما الذين قبلوه فقد أولاهم أن يصيروا أبناء الله، هم الذين آمنوا باسمه» (١ / ١١ الى ١٢).

وتجدر الاشارة أخيراً الى الدور الذي تلعبه ساعة يسوع — انها تقود الانجيل كله وتنيره بضوئها، وهي لا تأتي إلّا على مراحل. ففي البداية، نعلَم ان «الساعة لم تأتِ بعد» (٢ / ٤)، ثم يتكرّر هذا الانذار بأشكال متنوعة (٧ / ٣٠، ٨ / ٢٠؛ ١ / ٥١؛ ٣ / ١٤؛ ٥ / ٢٠؛ ٦ / ٦٢؛ ٧ / ٣٣؛ ٨ / ٢١)، ويولّد شعوراً من الترقّب المتزايد حتى تدوي عشية الآلام هذه الصيحة: «أتت الساعة التي فيها يمجَّد ابن الانسان» (١٢ / ٢٣) — ويرى القارئ نفسه منجرفاً بحركة مستمرة، طوال مدة قراءته الانجيل، نحو تلك الساعة التي تشكل، بالنسبة الى القديس يوحنا، ذروة حياة المسيح. وكما سيتبيّن من التعليق الوارد أدناه، تشير هذه «الساعة» الى موت يسوع ولكنها تتعدّاه أيضاً، أو على الأقل لا تقتصر على حقيقته الطبيعية والمادية، بل تشكّل مع تمجيد يسوع وحدة لا تتجزأ. انها الساعة التي ينتقل فيها الى الآب، انها التعبير الفائق لطاعته تجاه أبيه ولوحدته معه، انها الدليل الساطع على حبهما المشترك للعالم. انها مبدأ الأزمنة الجديدة ونقطة الانطلاق التي تدفّق منها الروح القدس وولدت منها الكنيسة. انها بروز النعمة المخلِّصة، وفي ضوئها عمد يوحنا الى اعادة رؤية حياة يسوع كلها والى كتابة كل الانجيل.

يجب اذاً أن تأخذ قراءتُنا بعين الاعتبار هذه السمة الثلاثية لكتاب يوحنا ويجب أن نقرأ كلَّ فصل منه كجزء في مأساةِ إظهار الله لنفسه حيث أعلن عن ذاته (٥ / ٤٣) فكان اعلانه موضع شك (٨ / ١٣) ثم رَفْض (١٢ / ٢٧) ثم قبول من طرف فئة صغيرة (١٧ / ٨)، وأخيراً حقّق انتصاره في اخفاقه بالذات (١٦ / ٣٣). كما ينبغي أيضاً قراءة كل فصل ككيان تام بحدّ ذاته، علماً انه لا يجد

معناه الكامل إلّا على ضوء «الساعة» التي يبرز فيها «مجد» سر المسيح برمّته.

### التعاليم وبنية الفكرة

ان مركز النظرة اللاهوتية والروحانية للقديس يوحنا هو شخص المسيح، ابن الله، الذي أرسله الآب ومنحه للناس لينقل إليهم النور والحياة، فالانجيل الرابع هو أولاً شهادة للمسيح.

المسيح هو كل شيء بالنسبة الى يوحنا وقد استماله يسوع منذ أول اتصال بينهما وجعله يتبعه ويبقى معه ويستمع إليه ويحبه (١ / ٣٥ الى ٣٩) ويلازمه حتى الصليب (١٩ / ٢٦)، وهذا ما أضفى على حياته نوراً لم ينطفئ. لذلك لم يكتب انجيله سوى ليروي لنا سيرة هذا اليسوع الناصري، اذ تقرر مصيره بلقائه به، ليقودنا عن طريقه الى الحياة: «لأن الحياة تجلّت فرأيناها ونشهد لها ونبشركم بتلك الحياة الأبدية التي كانت عند الآب فتراءت لنا» (الرسالة الأولى ١ / ٢). لذلك ان لاهوت يوحنا، شأنه في ذلك شأن لاهوت بولس، ليس لاهوتاً تجريدياً، انه لاهوت ينطلق من تجربة عاشها صاحبها وتأمل فيها طويلاً ويحاول تحت قيادة الروح القدس أن يعبر عن عمقها الذي لا يُدرَك (١٤ / ٢٦؛ ١٦ / ١٣).

ان صُلب هذه التجربة وهذا اللاهوت هو اكتشاف الآب في يسوع، فقد جاء المسيح ليكشف لنا عن الآب «الذي ما من أحد رآه» (١ / ١٨) قائلاً: «من رآني رأى الآب» (١٤ / ٩). وانفتح سرّ الحياة الالهية الذي لا نهاية له، انفتح بوساطة المسيح فأعطيت لنا القدرة على أن نصبح أبناء الله» (١ / ١٢؛ الرسالة الأولى ٣ / ١) وأن نساهم في المحبة التي تضم الآب والابن من الأزل، وظهرت دعوة الانسان الالهية وتجلّت وقُدّمت لنا في يسوع المسيح، ابن الله الوحيد. وبالإمكان استخدام هذا الموضوع الأساسي كدليل لدى قراءة انجيل يوحنّا، والنصوص الآتية تشير الى مراحله الرئيسة: (١ / ١٢؛ ٣ / ١٦؛ ٨ / ٣٦ و٤١؛ ١٤ / ٢؛ ١٧ / ٦ و٢٦؛ ٢٠ / ١٧ و٣١).

ينقسم هذا الموضوع الى عدة جوانب مختلفة وفيما يلي البعض منها:

آ) مفاهيم مرتبطة بشخص الآب: اسمه، مشيئته، وصاياه، أعماله، حبه، عطاء الله (٤ / ١٠؛ ٣ / ١٦).

ب) مفاهيم مرتبطة بشخص الابن: رسالته، نزوله ومجيئه من السماء، وحدته مع الآب، آياته، أعماله، كلمته، مجده، ساعته، وصيته، الحق.

جـ) مفاهيم مرتبطة بشخص الروح المؤيد: الرسالة، الحق، الشهادة.

د) مفاهيم كنسية: التلاميذ، الولادة من ماء وروح، خبز الحياة، الوحدة، الحب الأخوي، الرسالة، النور، الحياة، البهجة، العرس.

هـ) جواب الانسان على عطاء الله: المشاهدة، المعرفة، الاستماع، الايمان، البحث، التلقّي، الاقتداء، البقاء مع يسوع وفيه أو، بالمعنى المعاكس، انعدام الايمان، الخطيئة، عمى القلب، عدم الادراك، الرفض، الكذب، البغض، الظلام، الموت، الدينونة والحكم، العالَم وسيّد هذا العالم.

وثمة طريقة لاكتساب معرفة شخصية بالانجيل وهي متابعة بعض تلك المفاهيم طوال مدة قراءته.

يجب أن تؤخذ عدة خواصّ بعين الاعتبار لدى القيام بهذه القراءة:

**أولاً: البنية التقابلية**

والبعض يقول: الثنائية، لفكرة يوحنا. فالانسان، حسب تلك الفكرة، موجود في حالة توتر روحي، اذ هناك قطبان اثنان يسترعيان حريته: الأرض والسماء، الأسفل والأعلى، الحقيقة والكذب، الظلمات والنور، البغض والمحبة. ويأتي المسيح مرسَلاً الى هذه الأرض، الى الأسفل، في وسط الكذب والظلمات والبغض، كالمخلّص والنور والمحبة والابن الذي هو وحده حرّ ومحرِّر (٨ / ٣٦) والحمل الذي يحمل خطيئة العالم (١ / ٢٩)، وعندما يقوم الانسان بالاختيار، يكشف، باختياره بالنسبة الى المسيح، عن العالم الذي ينتمي اليه قلبه (٣ / ١٩ الى ٢١؛ ٨ / ٤٢ الى ٤٧؛ ١٨ / ٣٧).

يجب الانتباه أيضاً الى تعدّد قيم التعابير. في أكثر من حالة يستعمل يوحنا كلمات ذات معنيين أحدهما مادي والآخر روحي، فلا بدّ من معرفتهما، وعلى سبيل المثال: فعل «رَفَع» الذي استخدمه يوحنا بصدد ابن الانسان يعني «صَلَب» ولكنه يعني كذلك «رَفَع» في المجد (٣ / ١٤؛ ٨ / ٢٨؛ ١٢ / ٣٢ و ٣٤)، وهناك أيضاً الألفاظ التالية: «صَعِد» الذي قد يعني الصعود الى أورشليم أو صعود المسيح الى السماء (٣ / ١٣؛ ٦ / ٦٢؛ ٧ / ٨ و ١٠؛ ٢٠ / ١٧)، «ذَهَبَ» الذي قد يشير الى رحيل في سفرة أو الى موت يسوع وانتقاله الى أبيه (٧ / ٣٣؛ ٨ / ٢١؛ ١٣ / ٣٣ و ٣٦)، «تبع» الذي قد يعني سار مادياً وراء يسوع (١ / ٣٧) أو أصبح تلميذاً له (١ / ٤٣؛ ٨ / ١٢؛ ١٠ / ٤ و ٢٧؛ ١٢ / ٢٥؛ ١٣ / ٣٦؛ ٢١ / ١٩ الى ٢٢؛ الرؤيا: ١٤ / ٤). كلمة يونانية واحدة تفيد في آن واحد: الريح والنفخة والروح (٣ / ٨؛ ١٩ / ٣٠؛ ٢٠ / ٢٢) الخ...

يجب أيضاً أن تؤخذ بالحسبان «سخرية يوحنا»، كما يسميها العديد من شارحي الكتب المقدسة، وهي سخرية أليمة في أغلب الأحيان: «ألا تفطنون ان موت رجل واحد فدى الشعب خير لكم؟» (١١ / ٥٠). وأيضاً: «ماذا ترون؟ أيجيء الى العيد أم لا يجيء؟» (١١ / ٥٦). وأيضاً: «لم يدخلوا دار الحاكم مخافة أن يتنجّسوا (١٨ / ٢٨) الخ...

وأخيراً لا بدّ من الالتفات الى الرمزية، ففي هذا «الانجيل الروحاني» حسب التسمية الشهيرة للاهوتي اكلمنضوس الاسكندري، كل شيء هو «علامة» (آية)، ليس فقط المعجزات التي تكشف عن مجد يسوع وعن العطاءات التي تأتينا بواسطته (٢ / ١١؛ ٢٠ / ٣٠)، بل أيضاً عدد كبير من وقائع تبدو مادية ظاهرياً، انما تحمل في طياتها معنى لاهوتياً. هكذا يرمز المعبد المطهَّر الى جسد المسيح القائم من الأموات (٢ / ١٣ الى ٢٢) وكذلك اسم بِركة «سلوام» الذي يعني «رسول» (٩ / ٧) والليل الذي يرمز الى ظلمات الخطيئة التي غاص فيها

يهوذا بعد خروجه من العليّة الصهيونية (١٣ / ٣٠)، والنَفَس الأخير ليسوع عندما لفظ الروح (١٩ / ٣٠) وطعنة الحربة في جنبه على يد أحد الجنود (١٩ / ٣١ الى ٣٦) الخ...

تمتد نظرة يوحنا الرمزية لتشمل حياة يسوع برمّتها وعليها يبنى ما سمّي بـ«حاليَّة الانجيل الرابع». ان حياة وموت يسوع ليْسَا حياة وموت أحد مراسيل الله كائناً مَن كان، أو حتى أعظم الأنبياء، فيسوع بالنسبة ليوحنا هو «النور الذي جاء الى هذا العالم» (٣ / ١٩؛ ٩ / ٥؛ ١٢ / ٤٦). كما ان نزاعه مع الرؤساء اليهود ليس مجرد حدث من تاريخ البشرية اذ يرى فيه يوحنا أوج المعركة الطاحنة التي يتجابه فيها النور والظلام في قلب كل انسان. أما الحكم عليه من قبل معاصريه، فيتخطى مسؤوليتهم ليشمل واقعة الخطيئة بأسرها، وفي موته «تم دينونة العالم» (١٢ / ٣١).

ان يوحنا، بلجوئه الى هذا الكلام الحقيقي والرمزي في آن واحد، يجبرنا على أن نكتشف أننا أنفسنا أصحاب دور في هذه المأساة: نور أم ظلمات؟ حقيقة أم كذب؟ محبة أم بغض؟ المأساة هي مأساتنا ولا نستطيع التهرّب منها. وهنا يتقرّر مصير البشرية الروحي. فالذين عاصروا المسيح، رغم كونهم كائنات حقيقية وتاريخية، يشكلون أشخاصاً نموذجيين وشهوداً يمثلوننا أمامه. ان تحركاتهم هي تحركاتنا والكلمة التي تستهدفهم تصيب كل واحد منا.

وقد كتب فون بالتازار قائلاً: «عندما تحدث يسوع مع السامرية بالقرب من بئر يعقوب، كان بالتأكيد يتوجه الى تلك المرأة الوحيدة، ولكنه كان في نفس الوقت يتوجه الى كل خاطئ وكل خاطئة. لم يجلس متعباً على حافة البئر لأجل هذه المرأة فقط... اني هذه الروح المدفونة تحت الأنقاض والتي تركض كل يوم نحو الماء الدنيوي لأنها لم تعد تفهم أبداً الماء السماوي الذي يشكل مطلبها الحقيقي... وأُدلي مثلها بنفس الجواب الى ما يعرضه النبع الأزلي، وهو جواب يتيه ويتلمّس كالأعمى... ان «الكلمة» الموجود هاهنا والذي تَجَسّد ليتحدّث معنا في هذا الظرف الحقيقي والوحيد، يَقْصُد ويرى جميع الخاطئين في هذا الخاطئ الذي يهتدي، وجميعَ المستمعين في تلك المستمعة الجالسة على قدميه».

ويجب عند قراءتنا لانجيل يوحنا أن نستند الى مبدأ «الحالية» الذي يتصف به. ولكي نكتشف تلك «الحالية»، علينا أن ننتقل الى خارج بيئتنا وأن نسعى الى التعوّد على مفردات وأسلوب وأفكار رمزية تختلف اختلافاً كبيراً عمّا ألفناه، وأن نحاول اكتشاف المعنى الصحيح لمفاهيم عديدة، منها مفهوم الروح والجسد والعالم والساعة والمجد والحق والآيات والأعمال الخ... كما يجب أن نتكيّف مع طريقة خاصة للعرض تختلف كثيراً عن منطقنا العقلاني والخطيّ، ذلك ان خطباً وعظات المسيح في انجيل يوحنا تسير على النمط التأملي الذي ينظر الى الأسرار فيحيط بها ويحاصرها ويتعمّق بها تدريجياً حتى التعبير الكامل عنها. من الضروري كذلك أن نقبل تصوراً للتاريخ لا يتطابق دائماً مع دقة متطلباتنا الانتقادية، بيد ان ثغرات انجيل يوحنا لن تعود تحيّرنا بعد أن نتفهّم نوعيته الخاصة (رواية /

شهادة) وهدفه اللاهوتي وصفته الراعوية وأيضاً العادات والوسائل التاريخية المطبقة في ذلك العهد.

ولا يصح أن نطلب الى هذا الانجيل أن يعطينا حلولاً فورية وجاهزة لمشاكلنا، فيوحنا يقودنا الى المسيح ويرغمنا على أن نثبت نظرنا عليه وأن نعود الى النبع وأن نكتشف من جديد السر المسيحي في عمقه وأن نرجع دائماً الى الجوهر، أي الى الايمان والمحبة: «والحياة الأبدية هي أن يعرفوك أنت الاله الحق وحدك ويعرفوا الذي أرسلته يسوع المسيح» (١٧ / ٣).

وهدف التعليقات اللاحقة انما هو تسهيل هذه القراءة التي ستكون قراءة موضوعية ومعمّقة في آن واحد، والطريقة بصورة عامة هي الآتية: في بادئ الأمر، يُحَدَّد موقع كل صفحةٍ مدروسةٍ في تسلسل أحداث الانجيل، ثم يتم تعيين بنية القطعة ومخططها عند الاقتضاء ونوعها الأدبي، وأخيراً يأتي التعليق بحدّ ذاته ليحاول أن يشرح صيغها وصورها الرئيسية وأن يتابع التوسع في الموضوع وأن يستنتج منه التعليم اللاهوتي والروحاني والرسولي. ولكل فرد فيما بعد أن يستخلص النتيجة لحياته الخاصة.

# الكتاب الأول

## الفصل الأول
# مقدمة الانجيل

### ١. الفنّ الأدبي، وعلاقة المقدمة بالانجيل

شبّه أحد الشرّاح مقدمة انجيل يوحنا باستهلالية موسيقية. التشبيه موفّق. فمقدمة الانجيل الرابع تبرز من الصمت، مثل الائتلافات الأولى في السمفونية، فتبشّر بالأفكار الرئيسية التي ستتناولها المقطوعة، وتجمعها وتقارنها. وهكذا، تكشف مسبقاً عن جوهر المقطوعة، فتجعلنا نندمج فيها، ونتناغم معها فنواجهها بصمت وخشوع، كما نستجمع أفكارنا للاستماع الى الموسيقى، فيكون للكلمات تأثيرها وثقلها، كأنها آتية — وهي آتية فعلاً — من أعماق الأزلية:

«في البدء كان الله
والكلمة كان لدى الله
والكلمة هو الله
كان منذ البدء لدى الله».

ايقاع هذا النص ظاهر، لدرجة أن عدداً من الشرّاح يميل الى القول بأنه نشيد مسيحي كانت الجماعة المسيحية السابقة لانجيل يوحنا ترتّله مختصراً. فعبارات الجمع: «رأينا مجده ومن ملئه نلنا بأجمعنا نعمة على نعمة»، تحمل على تأييد هذا الافتراض.

وقد كتب البعض يقول، عن حق، بأن مقدمة يوحنا ليست، بمعنى من المعاني، «افتتاحية أو مقدمة للانجيل، وانما هي الانجيل بالذات، في رؤية شاملة عميقة».

فالمقدمة تختصر، فعلاً، انجيل يوحنا من أحد جوانبه: من ناحية انه كلمة الله — فقد تكلم الله، وكشف ذاته للبشر، في يسوع المسيح. فالمقدمة هي نشيد للمسيح الكلمة، أو كلمة الله المتجسّد.

### ٢. شرح

ان تسمية يوحنا ليسوع، بالكلمة، لا غير، تعني أن المسيح هو الكلمة بكليتها، وبملئها اللامتناهي. وكل كلمة أخرى هي جزئية، بالنسبة

إليه. **كل شيء قيل به، وكل عقل مخلوق يعجز عن سبر غور ما قيل به.**

لذا **فهو خالد**. لقد «**كان في البدء**». وهنا نجد عبارة الفصل الأول من سفر التكوين: «في البدء خلق الله السماوات والأرض» (تكوين ١ / ١). وقد استخدم يوحنا هذه العبارة، عمداً، ليقول لنا انه لمّا لم يكن من موجود غير الله، ولما كان الله يتهيّأ لخلق الكون، «كان» الكلمة موجوداً قبل الكون، وقبل أي شيء.

و«**كان لدى الله**». ان العبارة الأصلية، في اليونانية، لا تعني فقط انه كان بالقرب من الله، وبصحبته، وانما تعني أيضاً أنه كان متجهاً نحوه وعلى علاقة حيّة به. وهكذا يثبت يوحنا ضمناً، شخصية الكلمة. فالكلمة هو شخص وليس فكرة تجريدية.

«**والكلمة هو الله**». فالكلمة ليس شخص الله الذي تعنيه العبارة السابقة، والذي كان بصحبته قبل انشاء العالم، وانما هو الله، ومثله، وبدون أن يكون إلهاً ثانياً. وهكذا يرتسم السر الذي يؤلّف جوهر الوحي في انجيل يوحنا: التمييز بين الشخصين، في قلب الوحدة الالهية، واتحادهما في المحبة. «أنا والآب واحد» (يو ١٠ / ٣٠).

و«**كان منذ البدء لدى الله**». ليس هذا المقطع مجرد تكرار للمقاطع السابقة. ان يوحنا يقصد أن يوضح بدقة أن الكلمة كان لدى الله «منذ البدء». وأنه لم يكن موجوداً بدون الله، ولا خارجاً عن الله ولا كان الله بدونه. فالله والكلمة هما شريكان في الأزلية.

ثم ينتقل يوحنا الى عمل الكلمة: «**به كان كل شيء، وبغيره ما كان شيء**» (راجع تكوين ١ / ٥٦، اشعيا ٤٠ / ٢٦، ٤٤ / ٢٤...، ٤٨ / ١٣، مزمور ٣٣ / ٦، ١٤٧ / ١٥، يهوديت ١٦ / ١٤، ابن سيراخ ٤٢ / ١٥، ٤٣ / ٢٦). **فكل** الكائنات، بدون استثناء، مدينة بوجودها للكلمة. كلّها برزت يوماً الى الوجود. **فهو دعاها** لأن تكون. وهو وحده قائم منذ الأزل.

ولا يصحّ أن نحصر عمل الكلمة الخالق بأول ظهور للكون. فالعبارة «به كان كل شيء» تعني أيضاً تلاحقاً تاريخياً. وهذا التلاحق هو منوط بالكلمة.

عبارتان اذن تحددان عمل الكلمة: الحياة والنور. «**هو الحياة لكل موجود**». فالكلمة هو مصدر حياة، «**والحياة نور الناس**»، والكلمة تحيي بنورها.

الانجيل كله يتوسع في غنى هاتين اللفظتين: النور والحياة، وفي علاقتهما المتبادلة. فالحياة، في انجيل يوحنا، ليست «ظاهرة مادية عارضة»، نعجز عن ادراك سرّها حالياً، وسنكتشفه فيما بعد (مفهوم مادي)، وليست قوة كونية مجهولة الاستمرار، والتجدد، والشمول (مفهوم حلولي)، وليست سرّ فتوة وخلود، تملكه الآلهة (مفهوم أسطوري)، وليست كثافة وجود، وإثارة نفوس، ونشوة (مفهوم رومنطيقي)، انها نور، لأنها اتحاد مع الله في نور كلمته ذاته، أو كلمته الأزلي، الذي يتسلمه الايمان، ويتقبّله، ويستوعبه: «الحياة الأبدية هي أن يعرفوك أنت الاله الحق وحدك، ويعرفوا الذي أرسلته يسوع المسيح» (١٧ / ٣).

**إلّا** ان مأساة ترتسم، وتملأ الانجيل، هي **أيضاً**. ان قوة مظلمة تتصدّى، بالفعل، لعمل الحياة الذي يعمله الكلمة: «**والنور يشرق في الظلمات**». وفي هذه المجابهة بين الظلمة والنور يفصّل الانجيل طبيعة الموت وضراوته وثماره.

ومع ذلك، يتابع يوحنا بثقة لا يكذّبها الانجيل إطلاقاً: «**ولا تغشاه الظلمات**». فالظلمات لم توقف سير النور المنتصر، ولم تستطع أن تخنقه.

وبعد التوسع في شهادة يوحنا المعمدان للنور، تؤكد المقدمة شمولية فعل الكلمة النور: «**الذي ينير كل انسان**». فكل ضمير بشري يجد نفسه مأخوذاً بإشعاعه، بلا علم منه.

ثم تلوح من جديد منظورية المأساة المؤلمة وتتوضح: «**وكان في العالم... ولم يعرفه العالم. جاء الى بيته، فما قبله أهل بيته**».

ويطل أخيراً مقطع كأنه قمة المقدمة، فيحلّ اللغز، وينير الطريقين: «**والكلمة صار بشراً فسكن بيننا، فرأينا مجده، مجد الابن الواحد الذي أتى من لدن الآب، ملؤه النعمة والحق**». فقد أعلن تجسّد الكلمة استناداً الى الشهادة المشتركة للجماعة المسيحية الأولى، المتحدة مع الرسل. والصفات التي يتمتع بها الكلمة المتجسد ظاهرة: مجد الابن الواحد، وملء النعمة والحق. فكل كلمات هذا المقطع تستحقّ التوقف.

انها مثقلة بالمعاني اللاهوتية الكتابية. فلفظة «بشراً»، لا تعني الجسد فقط، وانما الطبيعة البشرية ذاتها، في وقتيّتها، وضعفها، وفي انتهائها الى الموت. (٣ / ٦؛ ١٧ / ٢، راجع تكوين ٦ / ٣، مزمور ٥٦ / ٥، اشعيا ٤٠ / ٦).

لقد اتخذ الكلمة هذه الطبيعة البشرية. كما ان الكلمة تجذرت في «اسرائيل» (ابن سيراخ ٢٤ / ١٢، باروك ٣ / ٣٦ الى ٤ / ٤) هو سَكَنَ بيننا، وأقام في هذا المسكن البشري، وتجلّى مجده، أفضل منه على جبل سيناء (خروج ١٩ /١٦ — ٢٠، تثنية الاشتراع ٤ / ١٠ — ١٢) أو في تابوت العهد، وفي هيكل العهد القديم (خروج ٢٥ / ٨، ٤٠ / ٣٤، عدد ٣٥ / ٣٤، ٣ ملوك ٨ / ١٠ — ١٣)، وتكلم الله به.

وهذا المجد هو «**مجد الابن الواحد**». والكلمة المشاركة الله حالياً في الأزلية، هو ابنه الواحد، المولود من الآب والذي ينال مجده. وهذا المجد يجعله ابناً. وهنا تبرز معطيات جديدة، لم تتضمنها المقاطع الأولى من المقدمة.

وهذا الابن الواحد للآب قد ظهر للناس «**ملؤه النعمة والحق**». والمقطع السابق يشير الى معنى ظهور النعمة والحق هذا: «أما الذين قبلوه فقد أولاهم أن يصيرو أبناء الله، هم الذين آمنوا به». وفي الكلمة الذي صار بشراً، تجلت للناس دعوتهم الحقة. ومع دعوتهم بدت لهم كرامتهم: وبفضل ايمانهم بابنه أولاهم الله نعمة أن يصبحوا أبناء له.

تجاوباً مع هذا الوحي، يتردد صدى شكر الجماعة المسيحية: «**ومن ملئه نلنا بأجمعنا نعمة على نعمة**». وعلى جماعة المعمّدين، الذين يحييهم الايمان باسمه، يفيض ملء النعمة والحق الذي لا ينضب معينه.

وحينئذ لا يذكر اسم إلا اسم يسوع المسيح. وذلك، لمقابلته مع اسم موسى: **لأن الشريعة أتتنا**

**على يد موسى، وأمّا النعمة والحق، فقد بلغا إلينا على يد يسوع المسيح**». عهدان يتعلقان بهذين الاسمين. تجسد الكلمة هو مبدأ عهد جديد يفوق القديم، اذ ان العهد القديم كان يقوم على اعطاء الشريعة الخارجية، أما العهد الجديد فيُدخِل بين الناس مبدأ النعمة والحق (هوشع ٢ / ١٦ — ٢٢). لقد تجسّد كلياً في يسوع المسيح، ويشعّ منه كل انسان، ورغم الظلمات يحوّل مجرى التاريخ، ويوجهه نحو الآب نبع النور والحياة.

ويختم يوحنا، معلناً سر الله الذي لا يُسبَر: «**الله لم يرَه أحد قط**»، هنا على الأرض لم ير أحد وجهه. فموسى (خر ٣٣ / ٢٠ — ٢٣)، وايليا (٣ ملو ١٩ / ٩ — ١٣)، واشعيا نفسه (اش ٦ / ١ — ٥)، تبعاً للتقليد اليهودي الذي يتبعه يوحنا (١٢ / ٤١)، لم يستطيعوا أن يشقوا الغمام، حيث يقوم الله الحي القدوس (٦ / ٥٧؛ رؤيا ٤ / ٩ ...) المهيمن العزيز. واذا بالسر قد انكشف: «**الابن الواحد الذي في حضن الآب**»، وحافظ كلامه، وشعاع مجده، وصورة جوهره (عبرا ١ / ٣) تجسد ليخبرنا عنه، ويكشف لنا اسمه (١٧ / ٦ / ٢٦)، ويبلغنا حبه، ويقودنا إليه.

ماذا يترتب علينا أن نعمل؟ ان يوحنا يبيّن لنا ذلك بوضوح: أن نفتح قلبنا ليسوع المسيح، ولكلامه، وآياته، ونقرأ شهادة الذي رأى كلمة الحياة، وسمعها، ولمسها، ونتأمل بها (١ يو ١ / ١ ...). وهكذا يُدخلنا في انجيله.

الفصل الثاني

# عرس قانا الجليل (يو ٢ / ١ — ١١)

## ١. المعنى الرئيسي وموقع النص في الانجيل

لكي نفهم وجهة نظر يوحنا الخاصة، في هذا النص، يجب أن نبدأ بقراءة الفقرة الأخيرة: «فهذه أولى آيات يسوع، أتى بها في قانا الجليل، فأظهر مجده، فآمن به تلاميذه». ان الحدث في نظر القديس يوحنا هو آية، تظهر مجد المسيح، وتولّد ايمان تلاميذه. ان التوافق واضح مع غاية الانجيل الرابع، كما يحدده الفصل ٢٠ / ٣٠ وما يليها: «وأتى يسوع أمام التلاميذ بآيات أخرى كثيرة لم تدوّن في هذا الكتاب، وانما دوّنت تلك الآيات لتؤمنوا بأن يسوع هو المسيح ابن الله، فإذا آمنتم نلتم باسمه الحياة». فنصّ عرس قانا الجليل يندمج اذن في خط الانجيل الرئيسي، وهو ابراز سر المسيح، وحمل الناس على الايمان بشخصه، كنبع النور والحياة.

ان المقدمة تحدّد بلفظة «مجده» كيان الكلمة المتجسد، الابن الواحد للآب، الممتلئ نعمة وحقاً. ونصّ العرس يستعيد هذه اللفظة. انها لفظة كتابية قديمة، كلفظة «آية». وهي أقرب ما تكون للعبارة المجرّدة «ألوهة». واذا كانت أقل دقة، فإنها أكثر غنى، وايحاء ملموساً. فمجد الله في العهد القديم يدل على ثقل القداسة الالهية الساحق، وعلى وهجها الساطع، وعلى قدرتها التي تتجلّى للانسان (خر ١٦ / ١٠؛ ٢٤ / ١٥...؛ ٣٣ / ١٨؛ العدد ١٤ / ٢١؛ تثنية ٥ / ٢٣...؛ اش ٦ / ٣؛ حز ١ / ١ — ٢٨؛ ٤٣ / ١ — ٥). والعهد الجديد قد نقل الى المسيح. والأناجيل الازائية تحتفظ بهذا التعبير بصورة شبه دائمة، لابن الانسان، الذي سيأتي ببهاء مجده، على الغمام، في آخر الأزمنة. أما يوحنا فانه يخصّ المسيح المقيم بيننا بهذا المجد. وقد اكتشف هذا المجد في عجائب المسيح، كآيات تظهر ان الله حاضر فيه، يعمل، ويتجلى، ويأتي لكي يخلّصنا. هذا هو المعنى من آية قانا الجليل.

وتجدر الاشارة الى ميزة نقل هذه اللفظة الى انسان ، بعد أن كانت تطلق سابقاً على الله لتظهر عظمته . فالكتاب المقدس لم ينسب مثل هذا لنبيّ، أو لكاهن أو لملك أو لأي انسان. لم يكتب العهد القديم عن أحد جملة مماثلة : «وأظهر مجده، فآمن به تلاميذه». فلو انها قيلت في أي انسان آخر، غير يسوع ، لعدّت تجديفاً.

أما التلاميذ الذين عاينوا الآية ، فمَن هم ، ومن أين يأتون؟ ان القارئ يعرف ذلك من الفصل السابق. فكل شيء يرجع الى كلمة يوحنا المعمدان : «هوذا حمل الله الذي يحمل خطايا العالم». وفي اليوم التالي ، ردّد شهادته أمام اثنين من تلاميذه . وهذان التلميذان ، وهما بدون شك اندراوس ويوحنا كاتب هذا الانجيل ، كانا قد تبعا يسوع . واندراوس كان قد اقتاد أخاه سمعان الى يسوع . ثم دعى يسوع فيلبس ، الذي جلب بدوره نتنائيل من قانا بالذات . وهؤلاء جميعاً رافقوا يسوع الى العرس حيث كانت أمه مريم قد سبقتهم ومن أجلهم عَمِل يسوع هذه الآية .

وفي خطّ مقابل لهذه السلسلة من الدعوات ، نمت سلسلة أخرى من الدعوات ، بفضل الألقاب التي أطلقها التلاميذ على يسوع : فبعد شهادة المعمدان ، عن حمل الله ، ومختار الله الذي سيعمِّد في الروح القدس (١ / ٢٩ — ٣٣) ، جاءت شهادة اندراوس : «وجدنا ماشيحا» (١ / ٤١) ، وشهادة فيلبس : «وجدنا الذي ذكره موسى في الشريعة والأنبياء في الكتب وهو يسوع ابن يوسف من الناصرة» (١ / ٤٥) ، ثم شهادة نتنائيل : «ربي ، أنت ابن الله ، أنت ملك اسرائيل» (١ / ٤٩) . وختم يسوع هذه الشهادات معلناً نفسه ابن الانسان : «الحق الحق أقول لكم : سترون السماء منفتحة ، وملائكة الله صاعدين نازلين فوق ابن الانسان» (١ / ٥١ ؛ راجع تك ٢٨ / ١٢) .

فآية قانا الجليل تبدو خاتمة وتكليلاً لهذه السلسلة : وفي اليوم الثالث أظهر يسوع أمام تلاميذه الجدد أولى تباشير مجد ابن الانسان ، الذي وعدهم برؤيته بطريقة مستترة .

## ٢. المعنى الرمزي لآية قانا الجليل

لا يقتصر معنى أعجوبة العرس في قانا الجليل على إظهار ألوهية المسيح بصورة عامة . فيجب أن تُؤخذ المناسبات بعين الاعتبار . فانها تبدو وكأنها تنسيق للآية ، واسهام في اظهار مجد يسوع .

وهكذا تبدو أيضاً كل الآيات في الانجيل الرابع : فعلاوة على اظهار ألوهية المسيح ، انها تعبر تعبيراً رمزياً عن جوانب عمله المختلفة . فتكثير الخبز يظهره خبزَ الحياة . وشفاء الأعمى منذ مولده يظهره نوراً للعالم ، وقيامة العازر تظهره القيامةَ والحياة . أما المعنى من آية العرس في قانا فهو أصعب تحديداً لأن يوحنا يشير إليه ولا يوضحه . فلا نعجبنّ إذن من تضارب آراء المفسّرين .

وهنا أيضاً يجدُر بنا أن نبدأ القراءة من الأخير . فنص الأعجوبة — قبل ختام الفقرة ١١ التي هي انعكاس لفكرة القديس يوحنا — ينتهي بملاحظة فيها شيء من السخرية يوجهها رئيس المتكأ الى

العروس: «جَرَتْ عادة الناس أن يقربوا الخمرة الجيّدة أولاً، فإذا أخذ منهم الشراب قرّبوا ما كان دونها في الجودة». فهذه الكلمة تؤلف ما يسميه المفسّرون، رأس النص. انها تسلّط الضوء على العروس لامتداحه ولاظهار الغرابة في تصرفه. وفي الحقيقة انها موجهة الى يسوع، بدون علم من رئيس المتكأ لأن رئيس المتكأ ما كان يدري من أين أتت الخمرة. فيسوع هو العريس الحقيقي الذي قدّم خمرة العرس، وتحت ستار عرس القرية كان عرسه هو المعنيّ: عرس الحمل المسيحاني الذي بشّر يوحنا بمجيئه، والذي سيقول فيه عما قليل: «من يأخذ العروس، فهو العريس. أما صديق العريس، وهو الواقف يسمعه، فيستولي عليه الفرح لهتاف العريس. هذا هو فرحي قد تمّ. لا بدّ له من أن يعظم، ولا بدّ لي من أن أصغر» (٣ / ٢٩ ...). والأب لوفافر Lefèvre يكتب قائلاً: سرّ قانا قائم كله على وجود هذا العريس، المتستّر، أو بالأصح الذي بدأ يظهر نفسه».

ملاحظة أخرى يجب التنويه بها. لم يحوّل يسوع مطلق ماء الى خمر. فالانجيلي يوضح انه كان هناك ست أجاجين من حجر لقضاء الطهارَة عند اليهود... فقال لهم يسوع: «املأوا الأجاجين ماء». فملأوها الى فوق. فالماء الذي استخدمه يسوع كان ماء شعائرياً، معدّاً لخدمة ينفرد بها العهد القديم، والأجاجين الست، الممتلئة ماء هي رمز لليهودية التي يتهيأ يسوع لأن ينفخها بروح جديدة. ويبدو واضحاً أن الانجيلي قد ميّز في الأعجوبة آية العهد الجديد، الذي افتتحه يسوع.

«والخمرة الجيدة المؤخّرة حتى الآن» والتي أعطيت بوفرة، تمثل النعمة في هذا العهد. ولا نفسّر غير هذا التفسير، تشديد يوحنا على جودة الخمرة، كما أشاد بها رئيس المتكأ، وعلى وفرتها، وكما تدل سعة الأجاجين. فكل واحدة منها تسع مقدار مكيالين أو ثلاثة. والمكيال أربعون ليتراً تقريباً. فالكل يوازي اذن من خمسة الى سبعة هكتوليتر. ويسوع لم يأمر بالغرف منها، إلا بعد أن طفحت الأجاجين كلها. وهذا لا يعني حكماً ان الماء قد تحوّل كله خمراً. فمن الممكن ألا يكون الماء قد تحوّل خمراً إلا ساعة الاستقاء. ولكن النبع موجود، وهو يفيض نوعاً وكمّاً عن كل الآمال وعن كل الحاجات.

فتأويل خمرة قاناكرمز لنعم العهد الجديد، تثبته وفرة العطاء من خمرة طيبة، تعتبرها الديانة اليهودية من النعم المسيحانية المرتقبة (تك ٤٩ / ١٠... عاموس ٩ / ١٣...، يوئيل ٢ / ٢٤؛ ٤ / ١٨؛ اش ٢٥ / ٦).

وبعض آباء الكنيسة، وبالتحديد القديس ايريناوس، وأكثر من مفسّر كتابي يرون فيها رمزاً للأفخارستيا. ولكنه يصعب التثبت بصورة أكيدة ان الانجيلي كان يرى فيها سر الأفخارستيا. وقد يكون من الخطأ حصر معنى الآية في هذا الرمز. وانما يجب الاقرار بأنه قد تحقق في الأفخارستيا ما كانت ترمز إليه أعجوبة قانا. فالمسيح يقدم لكنيسته كأس الخمرة الكاملة التي لا تنضب، نبع الفرح والحياة الأبدية، والعهد الجديد بدمه. ويقول فيها لتلاميذه، أفضل مما تقول حكمة العهد القديم: «هلمّوا!... واشربوا من الخمر التي مزجت!» (أمثال ٩ / ١ — ٥؛ راجع ابن سيراخ ٢٤ / ١٧...).

وتجدر الملاحظة ان يسوع لا يكتفي بأن يخلق خمرة الأعجوبة ويقدّمها : انه يحوّل ماء الى خمر. ولم يعمل بمفرده : فقد أشرك الخدم في الآية. لقد طلب منهم أن يملأوا الأجاجين حتى طفحت. اننا نجد هنا طابعاً مميزاً لآيات انجيل يوحنا. فمهما سمت، فانها تستند الى حقيقة ملموسة، وتُشرك فيها الانسان. فالأعجوبة، عند يوحنا، تحصل نتيجة لسعي البشر، وجهودهم التي لا يغفلها، وانما يتبناها بمفهوم جديد (٥ / ٥ ... ، ٦ / ٧ — ١٨، ٩ / ٣٢، ١١ / ٣٩، ٢١ / ٣، الخ).

### ٣. دور مريم، أم يسوع

دور مريم رئيسي. هي أول مَن ذُكِر وهي التي لفتت انتباه يسوع الى نفاد الخمر. صحيح ان تدخّلها قد حصل بتكتّم كبير، حتى اننا نتردّد أمام أهمية دورها فلا يبدو ثابتاً انها طلبت أعجوبة من ابنها. لقد أسرّت إليه بحال العروسين وبالغمّ الذي تعانيه هي بسبب هذه الحال.

وجواب يسوع ليس سهل التفسير. فالعبارة: «ما لي ولك أيتها المرأة؟»، تدلّ على تباين في الرأي، وفي وجهات النظر. ولكن درجة هذا التباين وفروقاته، لا تحدّد إلا بنبرة الصوت والحركة ومجمل الجو العام. وهذا ما يظل سرّاً علينا، مغلقاً. فيسوع يرجع الى «ساعته». وساعة يسوع في الانجيل الرابع تعني الزمن الذي يُظهر فيه، مطيعاً حتى الموت، ملءَ مجدِه كابن لله، ووحدتَه مع الآب وحبه للبشر (١٢ / ٢٣ — ٢٧ ... ، ١٧ / ١). وهذه الساعة «لم تأت بعد». ويسوع ينتقل من الحقائق المادية الى الحقائق الروحية بدون أن يعلن ذلك صراحة: ينتقل من فقدان الخمرة في العرس، الى الساعة التي يداوي فيها نقصاً أكثر إلحاحاً، فيخلّص البشر من الموت، بتضحيته، وينقل إليهم الحياة. فمنذ البداية يرى يسوع كل عمله من منظور تلك الساعة ويرد كل شيء إليها.

قالت أمه للخدم: «افعلوا ما يأمركم به» (راجع تكوين ٤١ / ٥٥). فهمت مريم أن نظر ابنها ينفذ الى أبعد وأسمى من هموم الساعة الحاضرة ويصل الى نقطة في المستقبل، سريّة، كلّ الحاضِر يُنَظَّم ويوجَّه نحوها. وخضَعَت بكل كيانها لسرّ تلك الساعة، فأمرت الخدم بأن يتقيّدوا بأوامر يسوع، ويطيعوه طاعة عمياء. فماذا سيصنع؟ انها تجهل ذلك. وانما تفهم معنى عمله: فمهما فعل، فانه سيفعله من أجل تلك الساعة، التي قبلت أن تكون هي خادمة لها منذ الأزل. فالأعجوبة هي جواب لطاعتها وايمانها. استبق يسوع ساعته فخلق خمر الأعجوبة كآية، وكشعور مسبق بمجد وسخاء العهد الجديد بدمه.

٤. لنلخِّصْ غنى أولى هذه الآيات. لما حوّل يسوع الماء الى خمر أظهر ألوهيته ومجده. ولكن المناسبات، وطبيعة الآية بذاتها، مقترنة بميل يوحنا الى الرموز، أجبرتنا على الزيادة في التفصيل. فيسوع يظهر نفسه الماشيحا، والعريس، ومؤسس العهد الجديد. في أجاجين الديانة اليهودية العاجزة عن التطهير بعد الآن، صبّ يسوع الخمرة الجديدة «الجيدة المحفوظة الى الآن»، أي التي يحتفظ بها الله الى الأزمنة الأخيرة. فوفرة هذه الخمرة وجودتها هما

صورة لعطاء الله ، ولتجديد كل شيء بالمسيح . أما ايمان التلاميذ ، فانه يؤلف بواكير الايمان الجديد . ولمريم مكانة خاصة : واقفة بقرب ابنها ، أرشدت الناس ، بايمانها وطاعتها واستسلامها الى طرق الحياة الجديدة ، وفتحتها لهم .

وذِكرُ « اليوم الثالث » ، والرجوع الى « الساعة » التي « لم تأت بعد » ، والرمز ذاته ، تحمل كلها على قراءة النصّ في منظور « ساعة » تضحية المسيح ، كما يفعل القديس يوحنا . عندئذ تنجلي الآية في ضوء الواقع ، ويترك عرس قانا مكانه لعرس الحمل الذبيح ، ولقيامته في اليوم الثالث . وايمان التلاميذ الأول الناشئ ، يفسح مكاناً لايمان الكنيسة الفصحي . وأُمُّ يسوع ، تُكَرَّسُ بكلمة ابنها ، الى الأبد ، أُمّاً لكل التلاميذ . ونحن نعيش اليوم ، في الكنيسة حقيقة هذا السر . واليوم تتم الأعجوبة ، ويظهر مجد يسوع .

## الفصل الثالث

# يسوع ونيقوديمس (يو ٣ / ١ — ٢١)

## (سر الولادة الجديدة)

### ١. موقع النص في الانجيل، والموضوع الرئيسي

لكي نتمكن من تحديد الحوار الذي حصل بين يسوع ونيقوديمس، في الانجيل الرابع، يجب أن نربطه في الحوادث التي ذُكرت في آخر الفصل السابق، اذ صعد يسوع الى أورشليم بمناسبة الفصح. والانجيلي يخبرنا انه «لما كان في أورشليم مدة الفصح، آمن باسمه كثير من الناس، لما رأوا من الآيات التي يأتي بها. على ان يسوع لم يطمئنّ إليهم، لأنه كان يعرفهم كلّهم ولا يحتاج الى من يخبره عن أحد، فقد كان يعلم ما في الانسان» (يو ٢ / ٢٣ — ٢٥). وربط يوحنا كلامه بهذه الحادثة قائلاً: «وكان في الفريسيين رجل يدعى نيقوديمس، وكان من أركان مجلس اليهود فجاء ليلاً الى يسوع». فلفظة «انسان» المأخوذة من الفصل الثاني، تؤلف، ما يسمّيه المفسّرون، «اللفظة — الكلّاب». انها تربط النصّ الجديد بالنصّ السابق، ربطاً محكماً، وتبيّن ان نيقوديمس هو واحد من هؤلاء «الكثيرين» الذين آمنوا بيسوع، بفضل الآيات التي أتى بها. ولكن هذا الايمان مقتصر على المظهر الخارجي للأشياء، ولا يوحي ثقة ليسوع.

ودخول نيقوديمس في الحديث يؤكد هذا التأويل. فقال نيقوديمس ليسوع: «ربي، نحن نعلم انك جئت من لدن الله معلماً، فلا أحد يستطيع أن يأتي بما يأتي من الآيات، إلا اذا كان الله معه» (٣ / ٢). فكان جواب يسوع قاطعاً: انه لا يكتفي بهذا الايمان الناقص، بل يطلب المزيد. وهكذا ينكشف لنا موضوع الحوار. وهذا الموضوع هو الولادة الروحية بالايمان الحقيقي بشخص المسيح.

## ٢. شخصية نيقوديمس

يحسن بنا أن نقول كلمة في شخصية نيقوديمس، قبل أن ندخل في سياق الحوار.

انه واحد من وجهاء اليهود، وأحد أركان المجلس اليهودي. انه شخصية نموذجية، يمثل فئة بأكملها. وهو يجسّد شخصية «المعلّم في اسرائيل» (٣ / ١٠) تجسيداً كاملاً وحقيقياً، بصورة انه صحّ أن نعنون المقطع: «لقاء المسيح مع الحكمة اليهودية» (الأب ستانلي اليسوعي). فهذا لا يعني ان نيقوديمس هو فكرة تجريدية. فما حكي عنه في الانجيل الرابع، يدل على انه شخص حقيقي يوليه يوحنا اهتماماً خاصاً. في الفصل ٧ / ٤٨، ٥٠... يدافع بشجاعة عن يسوع ويجلب لنفسه التأنيب: «أَوَأنت من الجليل؟ إبحثْ تجدْ انه لا يُبعث من الجليل نبيّ». ويظهر من جديد على الجلجلة مع يوسف الرّامي للقيام بدفن يسوع (١٩ / ٣٩...). انه يبدو في عيون الكثيرين مثالَ المؤمن الخجول الذي يندسّ في الظلّ ليلتقي يسوع، فلا يدري به أترابه، حتى بات مضرب مثل، فيقول الناس في شخص من هذا النوع: انه نيقوديمس. وقد لا يستحق نيقوديمس مثل هذا الصيت. لأن العتمة لا تعني حكماً التخفّي. فعلماء الشريعة عند اليهود كانوا يغتنمون الليل فرصة ليتبحّروا في الكتب المقدسة، ويتناقشوا فيها. وهذه الحجة تكفي لأن نفهم زيارة نيقوديمس الليلية.

## ٣. تصميم الحوار

انه من الأهمية بمكان أن نحدّد تصميم الحوار. فالحوار يتدرّج في مراحل ثلاث متشابهة البنية، يبرز الجوهريّ فيها، كل مرة، بعبارة: «الحق الحق أقول لك (٣ / ٣، ٥، ١١).

**المرحلة الأولى: ٣ / ١ — ٤ آ.** جاء نيقوديمس الى يسوع، وأدى احتراماً الى «معلّم آتٍ من الله، والله معه». فأجابه يسوع بأن «ما من أحد يمكنه أن يرى ملكوت الله، إلا اذا وُلد من علُ». فهذه أول عبارة وحي، تثير نيقوديمس: «كيف يستطيع الانسان أن يُولَد وهو شيخ مسنّ؟».

**المرحلة الثانية: ٣ / ٤ — ١٠ ب.** رأى نيقوديمس ان كلام يسوع مُحال: أتقضي الولادة الجديدة بالرجوع الى أحشاء الوالدة؟ فأجاب يسوع: بأن الولادة التي يعنيها، هي ولادة من «الماء والروح». وكلمة الوحي هذه، توضح السابقة، ولكنها هي أيضاً تحتاج الى تفسير. لذلك يكمل يسوع: «فمولود الجسد يكون جسداً، ومولود الروح يكون روحاً. لا تعجب من قولي لك: يجب عليكم أن تولدوا من علُ...». وجواب نيقوديمس يدل على انه لم يتقدم في فهم السر. «كيف يكون هذا؟». فتعجب يسوع من صعوبة الفهم التي يصادفها.

**المرحلة الثالثة: ٣ / ١١ — ٢١.** في هذه المرحلة يسوع يتكلم وحده. انه يكشف لنيقوديمس سرّ ابن الانسان «المرفوع»، سرّ ابن الله الواحد، الذي أرسله الآب لخلاص العالم. انها ثالث كلمات الوحي. وهي تعمّق الاثنتين السابقتين وتقترح الايمان الحقيقي كطريق وحيد لبلوغ الحياة.

فمكث نيقوديمس صامتاً. وانتهى الحوار فجأة الى كلام يسوع، كما تنتهي حوارات كثيرة في الانجيل الرابع. اذ يختفي المحاور عن الحلبة، بدون أن يقول شيئاً. لم يعد له من وجود. وذلك لا يعني انه دمية،

وانما المهم في نظر يوحنا هو كلمة المسيح التي تكشف سرّه، أكثر من نفسية نيقوديمس أو أي محاور آخر. لذلك، حالما يصل الى قمة من الكشف يترك يوحنا قارئه، متحاشياً كل ما يصرفه عن كلمة المسيح. فالقارئ يجب أن يحصل على النور والحياة من خلال الكلمة وحدها.

## ٤. تعليق

محتوى هذه الصفحة واضح. هدفه أن يظهر ان المسيح المعترَف به في ملء حقيقة سرّه هو وحده الذي يفتح للانسان طريق الخلاص، وأن يظهر أيضاً ان الانسان لا يبلغ هذا السر إلا بنعمة تجديد جذرية. ونيقوديمس يظنّ القضية سهلة. يتصور انه يعرف مفتاح ملكوت الله، ويملكه بفضل الشريعة. ويتصوّر انه قادر أن يدخله بسهولة مع أترابه. واذا جاء الى يسوع فذلك انهم رأوا فيه، من خلال آياته، معلماً كفؤاً: «نحن نعلم انك جئت من لدن الله». انه يقصد أن يسأله عن الشريعة وأن يناقشه. فبدّد له يسوع كل أوهامه. فأحس نيقوديمس بأنه في حضرة شخص أكبر من «رابي» وأكثر من «معلّم»: ان الذي يكلمه يحمل في ذاته سراً «من عل»، لا يكشِف كنهَه إلا نور «من عل». ونعمة هذا النور تفترض «ولادة من عل». والماء والروح هما قوامها.

واستناداً الى تأويل مُسْنَد، يرمز الماء الى العماد، سرّ الولادة الجديدة، والروح يرمز الى الروح القدس الذي يولّد الايمان في قلب المعمّد حديثاً، وينميه مدى حياته المسيحية. فالاثنان ضروريان لتجديد الانسان. ورتبة العماد لا تفعل بصورة سحرية، أو آلية. يجب على المعمّد أو على الجماعة العائلية اذا كان المعمّد طفلاً، أن يشارك ايمانياً، ويلتزم في عمل الله، الذي يجعل منه كائناً جديداً. والروح وحده يملك القدرة على خلق هذا الايمان وأن يفتح عيون الانسان على النور العلوي، كما ان ماء العماد وحده هو الذي يحوي قوة لأن يُدخل الى ملكوت الله أولئك الذين أنارهم الروح.

والسبب في ذلك هو أن «مولود الجسد يكون جسداً» وبالمعنى الكتابي، خليقة سريعة العطب زائلة تنتهي الى الموت، كسائر مخلوقات العالم السفليّ الذي ينتمي إليه. في حين ان سر المسيح هو سر الله الذي هو روح، أي الحياة بذاتها، ومبدأ كل حياة (تكو ٢ / ٧). وهوّة كبيرة تفصل بين الخليقة — الجسد، وبين الله — الروح (اش ٣١ / ٣)، يستحيل اجتيازها ما لم يأتِ الله بروحه لنجدة الخليقة — الجسد، ويجددها تجديداً كاملاً، ويرفعها الى مستوى الروح. عندئذ يصل الانسان الجسديّ الى عالم جديد: كان أرضياً (٣ / ٣١)، ومن الدرك الأسفل (٨ / ٢٣)، فَجُعِل مشاركاً في حياة سماوية وقادراً أن يفهم أمور السماء (٣ / ١٢، ٣١). كان جسدياً فجُعِلَ روحياً، لأن «مولود الروح يكون روحاً» (٣ / ٦).

هذا هو سر المسيح، يأتي من علُ (٣ / ١٣؛ ٦ / ٣٣، ٥١، ٦٢) فيدعو الانسان الجسد لأن يحقق الدعوة الى الروح الذي يفوقه من كل ناحية. وهذه الدعوة هي أساسية للانسان (١٢ / ٢٥) ومع ذلك فهو لا يعرفها إلا اذا كشفها له المسيح (٣ / ٣١...)، ولا يحققها إلا بنعمة الروح. وعليه أن يقبل هذا التناقض، فيحقق ذاته، فوق ذاته، وفي

حالة لا يستطيع هو أن يوفرها لنفسه ولا يوفرها له أي مخلوق آخر. خليقة، مولود من الخليقة، مدعو لأن يشارك في حياة الله، لأن يشارك في ما لا تلده أحشاء الأم. جسد وعليه أن يصبح روحاً. أجاب نيقوديمس متعجباً: «فكيف يكون ذلك؟» اننا نفهم قلق «المعلم في اسرائيل».

ان يسوع يقرّ بذلك: ان ذلك لسرّ يفوق ادراك البشر. ومع ذلك فلا يشك بحقيقته. فالتشبيه يبرهن عنه: «ان الريح تهب حيث تشاء فتسمع هزيزها، ولا تدري من أين تأتي والى أين تذهب. تلك حالة مولود الروح» (راجع سفر الجامعة ١١ / ٥). ان تجديد الانسان بروح الله هو أكثر غموضاً، وأقل ادراكاً من هبوب الريح، ولكنه ليس أقل منه حقيقة، اذ انه يُعرف من خلال نتائجه. والمسيحي الحقيقي هو لغز للعالم، الذي لا يعرف بالحقيقة عنه، كما لا يعرف عن المسيح «لا من أين يأتي ولا الى أين يذهب» (٨ / ١٤؛ راجع متى ١١ / ٢٧). انه هنا حاضر في العالم، وليس من العالم، انه جسد، ومع ذلك روح.

تعجّب يسوع من كون «المعلّم في اسرائيل» يجهل هذا السرّ، في حين ان قراءة الكتب المقدسة يجب أن تكون قد هيأته لذلك. فالعهد القديم يتنبأ في أكثر من مقطع عن تجديد الانسان بروح الله. وحزقيال كان يَعِد الانسان بقلب جديد وروح جديد من صنع روح الله: «وأعطيكم قلباً جديداً، وأجعل في أحشائكم روحاً جديداً» (حز ٣٦ / ٢٦؛ راجع ارميا ٣١ / ٣٣...).

جدّة العهد الجديد تقوم في ربط سر تجديد الانسان بسر المسيح، أي بمجيء ابن الله الى هذا العالم، وارتفاعه على الصليب: وكما رفع موسى الحيّة في الصحراء (العدد ٢١ / ٤ — ٩، الحكمة ١٦ / ٦...)، هكذا يجب أن يُرفع ابن الانسان لكي تكون الحياة الأبدية لكل من يؤمن به. وكما يظهر في المقدمة، يوحنا يلعب على معنى «رفع»: رُفع الصليب، ورُفع في المجد. والاثنان يلتقيان في سرّ الخلاص الواحد: فالمسيح الذي رُفع على الصليب، وفي المجد الذي كان يتمتع بالقرب من أبيه من قَبل انشاء العالم (١٧ / ٥، ٢٤)، يفتح للبشر أبواب الخلاص: يهبهم حياته بالذات، ومجده كقائم من الموت.

غير ان التفتيش عن مصدر الخلاص يحتم علينا الغوص الى أبعد من ذلك، الى الحب الذي دفع بالآب، ولا شيء غير الحب، لأن يعطي العالم أعز ما لديه: ابنه الواحد المولود. نعم ان الله قد أحب العالم، حتى انه جاد بابنه الواحد لكي لا يهلك كل من يؤمن به، بل تكون له الحياة الأبدية. وقد تكون محرقة ابراهيم هي التي أوحت بهذا الكلام (تكو ٢٢ / ٢، ٨، ١٢ — ١٦). حبّاً لنا قد حقق الله حتى النهاية التضحية بابنه التي طُلبت قديماً من أبي المؤمنين القديس.

ولا يعرف الانسان قيمة هذا الحب، ويفتح له قلبه إلا بواسطة الايمان. فالايمان بالنسبة ليوحنا، هو أكثر من أمر عقلاني. انه اندماج الانسان بكليته، قلباً وروحاً، في تصميم حب الله الخلاصي الذي تحقق بابنه يسوع المسيح. انه اختيار أساسي دائم التجدّد، به تتعلق حياة أو موت كل انسان. انه «نعم» الانسان لدعوته الالهية في المسيح بواسطة الروح القدس.

ولهذا السبب، يستطيع يسوع أن يختم كلامه محدداً مجيئه الى هذا العالم بدينونة. «فمن يؤمن به لا يُحكَم عليه، ومَن لم يؤمن به حُكم عليه لأنه لم يؤمن باسم ابن الله ووحيده». ففي حضرة المسيح — النور، تنكشف القلوب، ويتميّز بعضها عن بعض، تبعاً لايمانها أو لجحودها، لأن الانسان قادر أن يفضل الشر على تطلبات الحقيقة، والظلمة على النور، ويهرب آنذاك من المسيح النور. وبالفعل «فمن يعمل السيئات يبغض النور، فلا يُقبل الى النور لئلا تفتضح أعماله». وبالعكس «من يعمل للحق»، أي من يطابق سلوكه بصورة عادية على تطلبات الحقيقة الالهية، يولد من جديد في المسيح مرشده، ومخلصه. فهذا «يقبل الى النور ليظهر ان أعماله صنعت في سبيل الله»، أي في توافق واتحاد مع ارادة الله.

وبهذه الكلمات تنتهي هذه الصفحة من لاهوت العماد. فاذا ما ارتفعنا بصورة متواصلة، فإنها تقودنا من الايمان الناقص، ومن اكتفائية نيقوديمس الساذجة، الى اكتشاف سر المسيح النور والخلاص، والى قبوله بدون تحفظ. وهذا الجهر بالايمان العمادي الذي هو عمل الروح القدس فينا، يدعونا الانجيل لأن نتفحص دائماً غناه، وعمقه، ونتائجه العملية. ومن هنا تنمو فينا بذور الحياة الالهية، التي زرعها روح الله في أجسادنا يوم تعمدنا، لتنضج، وتثمر في الملكوت. ونيقوديمس كان يفتش عن هذا الملكوت، بقواه الشخصية، ولم يعرف أننا ندخله، كما ندخل الحياة، أي شيئاً فشيئاً، بالنعمة، الى حياة الله الذي هو روح، ومثل طفل يولد في الجسد.

الفصل الرابع

# يسوع عند السامريين (يو ٤ / ١ ـــ ٤٢)

عمداً لم نُعَنْوِن هذا الفصل: يسوع والسامرية، لأنه لم يقتصر على المشهد الذي حصل على بئر يعقوب. انه يشمل الآيات الاثنتين والأربعين التي تتكلم عن اقامة يسوع في السامرة.

١. ولكي نفهم معنى هذا الفصل، ومكانته في السياق العام للانجيل الرابع، يجب أن نأخذ بعين الاعتبار نهاية الفصل السابق. فبعد حوار يسوع مع نيقوديمس، يخبر يوحنا ان يسوع قد ذهب الى اليهودية مع تلاميذه، فمكث هناك، وكان يعمّد.

لنا هنا ثلاث ملاحظات: الأولى في الانجيل نفسه. اذ ان يوحنا يوضح أن يسوع لم يكن يعمّد، بل تلاميذه (٤ ـــ ١ ـــ ٢) والثانية هي انه لم يقصد سرّ العماد المسيحي، الذي لم يتأسس إلا بعد قيامة المسيح، وانما المقصود طقس تحضيري الى ملء الحقيقة المسيحية. والثالثة هي الفائدة التاريخية التي توفرها هذه النبذة الوجيزة عن رسالة يسوع في اليهودية في بداية رسالته. واذا ما قرأنا الأناجيل الازائية، نتيقّن ان يسوع لم يبدأ نشاطه إلا في الجليل (متى ٤ / ١٢ ...، مر ١ / ١٤ ...، لو ٤ / ١٤). ولكن بفضل يوحنا، نعرف انه بدأ رسالته في اليهودية، في غمرة الوعي الديني الذي أثاره يوحنا المعمدان.

وعرفت رسالة يسوع في اليهودية نجاحاً كبيراً، لدرجة ان تلاميذ يوحنا تضايقوا منها. وجواباً على قلقهم، لفظ يوحنا المعمدان تلك الكلمات المدهشة التي تختم شهادته في الانجيل الرابع: «من يأخذ العروس فهو العريس. وأمّا صديق العريس، وهو الواقف يسمعه، فيستولي عليه الفرح لهتاف العريس. هذا هو فرحي قد تمّ. لا بدّ له من أن يعظم، ولا بدّ لي من أن أصغر (٣ / ٢٩ ...)».

ونجاح يسوع قد حصل بفضل مروره في السامرة. وقد «بلغ الربَّ ان الفريسيين سمعوا أنه اتخذ من التلاميذ، وعمّد أكثر مما اتخذ يوحنا... فترك اليهودية ورجع الى الجليل». لم يشأ أن يبدأ

رسالته بخلاف مكشوف مع قادة اليهود. فالجليل بعيدة عن وسط البلاد، توفر له حقلاً للعمل، وتُبعد عنه ضرباتهم المباشرة.

وبلوغ الجليل يحتّم على يسوع اختيار احدى الطريقين: الواحدة تصعد في وادي الأردن، والثانية، معروفة، تجتاز السامرة. وانما كانوا يتحاشونها أحياناً بسبب الخلاف بين اليهود والسامريين (لو ٩ / ٥١ — ٥٦). غير أن يسوع قد اختار الثانية. وهذا الاختيار يحوي بذور الأمثولة من هذا الفصل: يريد يسوع أن يظهر عملياً شمولية الديانة «في الروح والحقّ» التي جاء يؤسّسها. ولأجل ذلك، كان يجدر به أن يعلنها عند السامريين، خارج حدود الديانة اليهودية.

٢. وهكذا وصل الى بئر يعقوب، بالقرب من مدينة سيخارة، حوالى الساعة السادسة، أي نحو الظهر. وهذه البئر هي اليوم، في الأراضي المقدسة، واحدة من أكبر الشهادات على مرور المسيح. انها تقع على مصبّ الوادي الشرقي — الغربي، حيث تقوم مدينة نابلس، بالقرب من سيخار القديمة. وجبل بَنال من الشمال، وجَرزيم من الجنوب، متواجهان ويحفظان مدخل هذا الوادي.

ان يسوع كان يمشي منذ الفجر. «وكان قد تعب من المسير، فقعد على حافة البئر». ومن المحتمل أن يكون قد جلس على الأرض، لأنه ليس مؤكداً أن يكون للآبار حافات آنئذ: كانت فوهتها بمستوى الأرض، يُرَدُّ عليها حجر (تكو ٢٩ / ٣)، كما هي الحال اليوم في فلسطين. أما التلاميذ فقد مضوا الى المدينة ليبتاعوا قوتاً.

**المشهد الأول (٤ / ٦ — ٢٥**: حوار يسوع مع السامرية. جاءت امرأة سامرية لتستقي. هذا العمل من شأن النساء في الشرق. ساعة مجيء المرأة، هي وحدها غير مألوفة. ظاهرياً، لم تعر الرجل القاعد هنا أي انتباه، فبدأت عملها. أخذت الحبل والدلو وهي تجهل ان اللقاء مع هذا الرجل سيقلب حياتها.

فجأة قطع يسوع الصمت وقال لها: «اسقيني». كان هو البادئ بالحوار. انه عطشان. انه يستعطي قليلاً من الماء. نجد هنا واحدة من المزايا البشرية التي تكثر في الانجيل الرابع. ولكن لا تقلّ نموذجية في هذا الانجيل، تلك الطريقة التي ستنجلي بها أسمى الحقائق وأعمقها، انطلاقاً من هذا الطلب البشري البسيط. فمن اندهاش الى آخر ستكتشف المرأة سر هذا الرجل.

فَمَن يكون؟ مِن لهجته — كما حصل لبطرس أثناء القبض على يسوع (متى ٢٦ / ٧٣، قضاة ١٢ / ٥) — عرفت المرأة انه يهودي. ولكنه — وهذه دهشتها الأولى — ليس يهودياً مثل الآخرين: انه يطلب من سامرية أن تسقيه! واليهود، في الواقع، كما يوضح القديس يوحنا، لا يخالطون السامريين وقد صدر تنظيم سنة ٦٥ — ٦٦ يعتبر كل امرأة سامرية نجسة. ونتيجة لذلك حرّم على اليهودي أن يستعمل إناء سامرية، وخاصة اذا كانت قد شربت منه.

فمنذ الكلمات الأولى أظهر يسوع انه متحرر من تعصّب أمّته الديني، والعنصري. فَمَن هو اذن؟ لن يُعطَى الجواب الكامل إلا في الفقرة ٤٢: انه مخلّص العالم. لذلك يجب قراءة النص بكامله. غير

انه يترتب علينا خطوات كثيرة ، قبل الوصول الى هذه النتيجة .

وملاحظة السامرية تستدعي ، بسخريتها ، جواباً : «أنت يهودي ، وأنا سامرية ، فكيف تستسقيني؟ فجواب يسوع قد دفع بالموضوع الى الأمام. لم يشجب دهشة المرأة. بل انه أخذ عليها انها لم تدهش كفاية ، لأن السر هو أكبر مما تتصور : أن يستجدي يهودي قليلاً من الماء من سامرية ، ليس بكبير تناقض ، وانما ما لا يصدَق هو أنْ يَطلب هذا الرجل بالذات ، ماءً من المرأة ، وليس العكس : «لو كنتِ تعرفين عطاء الله ، ومَن هو الذي يقول لك اسقيني ، لسألتِهِ أنت ، فأعطاك ماء حياً» .

عند سماع هذه الغرابة الثانية ، أجابت المرأة على الفور : «سيدي ، ليس لديك ما تستقي به ، والبئر عميقة» . وبئر يعقوب بأمتارها الخمسة والثلاثين ، هي اليوم ، بالفعل ، أعمق آبار فلسطين ، ويسوع لا يملك حبلاً ، ولا دلواً ، ولا جرّة ، ليستقي . «فمِن أين لك الماء الحي؟» .

تحت هذا التهكّم ، يختبئ السر الرئيسي للانجيل الرابع ، سر عطاء الله في المسيح : سر خمرة قانا الجليل ، التي يجهل رئيس المتكأ مصدرها (٢ / ٩) ، سر الانسان المولود من الماء والروح ، والذي لا ندري من أين يأتي ، والى أين يذهب (٣ / ٨) ، سر يسوع الذي لا يعرف العالم من أين أتى (٨ / ١٤ ؛ ٩ / ٢٩ ؛ ١٩ / ٩) .

وتابعت المرأة قائلة : «هل أنت أعظم من أبينا يعقوب الذي أعطانا هذه البئر ، وشرب منها هو وبنوه وماشيته؟» . انها تسخر . ويسوع لم يغضب . يعرف انه يستطيع أن يستند الى هذا التحدي ليرتقي الى درجة من الكشف جديدة . فأخذ الكلام من جديد ، لا لكي يشرح مصدر هذا الماء الحي ، الذي لا يعرف أحد غيره سرّ تفجّره ، وانما لكي يكشف ، على الأقل ، شيئاً عن مفاعيله : انه ليس كالماء الذي ينبجس من عمق بئر يعقوب : اذ ان هذا الماء لا يروي الظمأ إلا مؤقتاً ، أما الماء الذي يَعِد به يسوع ، فيروي الظمأ الى الأبد ، ويصبح «عين ماء يتفجّر حياة أبدية» في من يشرب منه . يصبح مجرى دائم التجدّد ، لا تقتصر مفاعيله على هذه الأرض .

الى أية حقيقة يشير يسوع؟ ان الأنبياء ، عاموص (٨ / ١١) ، واشعيا (٥٥ / ١) ، وباروك (٣ / ١٢) ، وكتب الحكمة (الأمثال ١٣ / ١٤ ، ابن سيراخ ١٥ / ١ — ٣ ، ٢٤ / ٢٣ — ٣٣) ، كلهم قد رمزوا بنبع ماء الحياة ، الى كلمة الله ، والى الشريعة ، والى الحكمة . فالماء الحي الذي يعد به يسوع ، يعني بكل تأكيد وحي الله الى البشر ، في كلمته ، وفي شخصه بالذات . هذا هو «عطاء الله» . فهذا الماء يصبح لمن يشربه ، أي لمن يؤمن بالمسيح وبكلامه ، نبع حياة لا ينضب ، بفضل عمل الروح القدس الذي «سيتلقاه المؤمنون به» (٧ / ٣٧ — ٣٩) .

جاء جواب المرأة على هذا العرض ، مخيباً للآمال . ظنّت السامرية انها وجدت في هذا الرجل شخصاً يملك سراً سحرياً ، سيعتقها من العطش ، ومن الاستقاء اليومي المضني . لذلك هتفت : «سيدي ، أعطني هذا الماء ، لكي لا أظمأ فأعود الى

الاستقاء من هنا!» غير أنه مهما كان الطلب رديئاً، فقد انقلب الوضع الأول: فالمرأة هي التي تسأل الآن، وتطلب من يسوع ليسقيها. والآن أصبح بإمكان يسوع أن يذهب بها بعيداً.

اتخذ الحوار فجأة شكلاً لاهثاً وقاطعاً. فطلبت المرأة: «أعطني من هذا الماء!». ويسوع لا يعطي ماء الحقيقة الحي، إلا لمن يهتدي. لذلك قال للمرأة: «اذهبي فأدعي زوجك، وارجعي الى هنا». لقد فعلت الضربة فعلها: «ليس لي زوج». لقد خادعت المرأة، وحاولت أن تفلت من هذا النور القاسي، الذي اخترق قلبها فجأة كالسيف. ولكن يسوع لم يفلت فريسته: «أصبتِ إذ قلتِ: ليس لي زوج، فقد اتخذتِ خمسة أزواج. وأما الذي يصحبك اليوم فليس بزوجك، لقد صدقت»، فماذا تراها ستفعل؟ تتجلّد؟ تنكر؟ تنغلق؟ تهرب؟ أقْلقَها هذا النور فاستسلمت الى الاقرار: «سيدي، أرى أنك نبي!». لم تعد تتهكم على اليهودي الغريب، الجسور، الذي يحدّث سامرية، ويدّعي انه يعمل أفضل مما عمل يعقوب، فانحنت أمام رجل الله.

لم نعد نعجب أن نسمعها تستطرد في الحال: «قد تعبّد آباؤنا في هذا الجبل، وأنتم تقولون: ان أورشليم هي المكان الذي يجب فيه التعبّد». ان السؤال بديهي. اذا كان هذا الرجل يأتي من الله، يتوجب عليه أن يحلّ المشكلة القائمة بين اليهود والسامريين: أين يجب التعبّد؟ وأشارت المرأة باصبعها الى جبل جرزيم. فالسامريون يعتبرونه المكان الذي قدّم فيه ابراهيم محرقته (تكو ٢٢ / ٢)[1]، والتقى ملكيصادق. وكان يعقوب قد أقام فيه مذبحاً (تكو ٣٣ / ٢٠). و«تثنية الاشتراع» السامري يردّ إليه أول تقدمة عبرانية في الأرض المقدسة، وليس على جبل غيبال (اشتراع ٢٧ / ٤)، وكان يُعتَبَر جبل البركات (اشتراع ٢٧ / ١١ — ١٤). ألم يكن هذا المكان المقدس هو المكان الذي اختاره الرب ليُعْبَد فيه؟ (اشتراع ١٢ / ٥ — ١٢).

لم يرفع يسوع عينيه الى جرزيم. فأخذ جوابه طابعاً احتفالياً. ومن المرأة الصامتة، التي تنتظر جواباً، طلب الايمان: «صدقيني أيتها المرأة، ستأتي ساعة تعبدون فيها الآب لا في هذا الجبل، ولا في أورشليم». لقد ولّى زمن العبادة على الجبل، مهما كان مقدّساً. وبَطُل خلاف المعابد: أورشليم؟ جرزيم؟ ان يسوع هو فوق هذا الصراع، اذ جمع اليهودَ والسامريين بدون تمييز، في رؤية نبوية، وأعلن منعطفاً في تاريخ العالم الديني: «ستأتي ساعة — بل أتت الآن — يَعْبد فيها العباد الصادقون الآب بالروح والحقّ، لأن الآب يريد مثل هؤلاء العباد». فالذي يهم الله، ليس المكان وانما طبيعة العبادة: «ان الله روح، فيجب على العباد أن يعبدوه بالروح والحق».

(١) في تكوين ٢٢ / ٢، ما كان السامريون يقرأون مثل اليهود: «الى أرض موريّة» وانما «الى أرض مورة» بالقرب من شكيم، كما جاء في تكوين ١٢ / ٦.

بسبب عدم تنبّهنا للمعنى الكتابي للفظة « الروح » في الفصل السابق، تَشَوَّهَ مدلول هذه الكلمة بشكل غريب. فالديانة الجديدة التي يعلنها يسوع هنا ليست ديانة باطنية بحتة وفردية بدون طقوس ولا هيكلية ولا أبعاد اجتماعية. وليست روحية، بمعنى انها لا مادّيّة، وانما بمعنى انها من صُنع روح الله، وليس من صنع الخليقة الجسدية. فمن قلب الانسان المتجدّد بالماء والروح (٣ / ٥)، تصعد الصلاة البنوية: « يا أبتاه! » (روما ٨ / ١٥، غلا ٤ / ٦)، التي ترضي الله وحدها، لأن بها وحدها يَعْرِفُ الله روحه. فهذه الديانة هي « في الحق »، لأنها مبنية على وحي الآب عن ذاته وعن حبه في ابنه الذي هو الحق (١٤ / ٦؛ راجع ١ / ١٤).

ان جواب يسوع يفوق ادراك السامرية. فنزل عليها هذا الكشف وهي شاردة الذهن: « اني أعلم ان ماشيحا (أي المسيح) آتٍ، ومتى أتى أنبأنا بكل شيء ». فأتى كلامها في حينه كأنه ثمرة يانعة: « أنا هو، أنا الذي يكلمك ».

**المشهد الثاني (٤ / ٢٦ — ٤٢)**: حصاد الأزمنة الأخيرة. عندئذ رجع التلاميذ من القرية حاملين الزاد. ولكن المرأة لم تعد هناك. « فتركت جرّتها » التي لم تعد بحاجة إليها، وأسرعت الى المدينة، ولكنها عادت امرأة أخرى: لقد تحوّلت الخاطئة الى مبشّرة بالمسيح: « هلموا فانظروا رجلاً ذكر لي كل شيء فَعَلْتُ. فلعلّه المسيح؟ ». اضطربت المدينة كلها، حالاً، وخرج السامريون بين حقول القمح، نحو بئر يعقوب.

وهنا حصل مشهد آخر. ألحّ التلاميذ على يسوع ليأكل، فرفض الطعام الذي قدّموه له: « اني لآكل طعاماً لا تعرفونه. طعامي أن أعمل بمشيئة الذي أرسلني، وأن أتمّ عمله ». لقد أجاب يسوع على التساؤل الذي قرأه في أعين تلاميذه عند عودتهم، وإن لم يقل واحد منهم « ماذا تريدين منه؟ » أو « لماذا تحادثها؟ »، أكثر مما أجاب على دعوتهم له الى الطعام. عليه أن يشرح لهم ما أدهش المرأة ذاتها: لماذا يخالف كل الأعراف ويكلم سامرية. وغلّف جوابه بألغاز وأمثال على الطريقة الشرقية: لمّا تكلم مع هذه المرأة، مع هذه السامرية، أتمّ الرسالة التي من أجلها أرسله الآب الى العالم، ومنها يغتذي ويعيش. لذلك رفض كل طعام.

وها إن يسوع يوسّع الأفق الآن، فيرفع نظره الى حقول القمح، حيث يرى السامريين آتين نحوه، ويدلّ تلاميذه، اللامبالين حتى الآن، على الحصاد الروحي الذي ينتظرهم. وهؤلاء الآتون هم أولى سنابله: « أما تقولون: بعد أربعة أشهر يحين الحصاد؟ واني أقول لكم: ارفعوا عيونكم وانظروا الى الحقول، تروها قد ابيضت وحان الحصاد ». لقد دقت ساعة حصاد الأزمنة الأخيرة، ساعة الفرح المسيحاني الكبير. وانتهى زمن البذار! لقد أتى زمن الحزن في الأهراء. بدأ زمن الكنيسة. فلم يعد من مجال للتأخير: فتلاميذ المسيح أُرسِلوا بدورهم ليَحصدوا. وفي رؤية نبوية، رأى يسوع تلاميذه يخوضون هذه الحقول الشاسعة، حيث تعب غيرهم في البذار، وبصورة خاصة، هو.

**فدعاهم** الى العمل ، مدركين وحدة العمل الالهي وتعب الذين سبقوهم : «فيصدق المثل القائل : رُبٌّ زارع لِحاصد. أرسلتكم لتحصدوا ما لم تتعبوا فيه. فغيركم تعب ، وأنتم تجنون ثمر أتعابه».

وانتهى المشهد في المدينة ، حيث قَبِلَ يسوع الضيافة لمدة يومين. **فكسب** قلوب السامريين ، ولما أخذوا بكلامه ، هم استخلصوا النتيجة من الحدث ، وبدأوا يعلنونها جماعياً : «فقالوا للمرأة : «لا نؤمن تبعاً لكلامك ، بل لأنا سمعناه نحن وعلِمنا انه مخلّص العالم حقاً».

الفصل الخامس

# شفاء مُقعد بركة بيت ذاتا (يو ٥ / ١ — ٤٧)

مع الفصل الخامس ، يبدأ يوحنا يصف التنازع بين يسوع وأحبار الشعب . ان التباين كامل مع الاستقبال الحار الذي لقيه يسوع عند السامريين. لقد انكشف الصراع على أثر شفاء فعله يسوع يوم السبت . وبلغ فوراً ذروته . فمن هذه الناحية ، يبرز هذا الفصل ، مفتاحاً . لا نرى فيه فقط العداء المأساوي الذي انتهى الى الجلجلة ، وانما نكتشف أيضاً سبب هذا العداء وطبيعته الحقة .

## ١ . الاطار التاريخي والطوبوغرافي (٥ / ١ — ٤)

ان الحدث مرتبط بأحد أعياد اليهود . ولكن الانجيلي لم يحدّد أيها من الأعياد ، وانما أراد أن يشدّد على أمر واحد «ان ذلك اليوم كان سبتاً» (الآية ٩) . والخلاف اللاحق ، يبين سبب هذا التشديد .

مكان الحادث ، أورشليم . لقد صعد يسوع الى أورشليم بمناسبة العيد . ويزيد يوحنا في الايضاح ، فيقول انه كان يوجد في أورشليم بناء عند بركة الغنم يقال له في العبريّة بيت ذاتا .

ان شكوكاً تحوم حول مضمون النص . فالبعض يقولون بأن القديس يوحنا لا يتكلم عن **بركة** الغنم ، وانما عن **باب** الغنم ، المفتوح في سور الهيكل الشمالي (نحميا ٣ / ١ ، ٣٢ ؛ ١٢ / ٣٩) . أما اسم بيت ذاتا ، فيعني «الشقّ» . وقد كان اسماً لأحد أحياء أورشليم ، المنفصل عن المدينة بشقّ ، أو بأخدود . وقد أطلق على بناء بركة الغنم . وبعض المفسّرين يفضلون عليه اسم «بيت حسدا» أي بيت الرحمة .

ويضيف القديس يوحنا قائلاً انه كان للبناء خمسة أروقة . وكان أ . لوازي A. Loisy يتهكم على هذه البركة المخمسة الزوايا ، ويتخذها حجة للطعن في صحة الانجيل الرابع . غير أن الحفريات التي أجراها الآباء البيض ، أثبتت صحة هذا الانجيل الرابع . اذ ان معالم البركة المخمسة الأروقة

ما تزال موجودة ، وهي بشكل مربع منحرف ، تحيط بها أروقة على أضلاعها الأربعة. ولكن الشرح الذي لم يأبه له لوازي ، هو ان البركة كانت منقسمة الى حوضين ، يفصلها حائط عرضه ستة أمتار ونصف المتر ، وكان يحمل رواقاً خامساً.

وكان يضّجع في الأروقة جماعة من الزّمنى بين عميان ، وكسحان وشلّ. وكان ماء البركة يفور ويشفي الأمراض. والوثنيون أنفسهم كانوا يؤمنون بها ، كما يظهر ذلك من بقايا عبادة الآسكولاب Esculape وجدت هناك.

وميزة الشفاء هذه كانت مرتبطة بفوران الماء. من أين كان هذا الفوران؟ أكان يأتي من تدفق فجائي لمياه نبع متقطع ، كان يغذي البركة ، ويجدّد فيها هذه الميزة على دفعات؟ أم كان يتأتى «من وصول مياه جديدة ، أكثر نقاء ، كان يحبسها سكر حتى ذلك الحين؟» كما يفترض الأب لاغرانج؟. لا نستطيع أن نعطي جواباً أكيداً. وانما يصحّ أن نلاحظ ان القسم الأخير من الفقرة الثالثة ، الذي يتعلق بانتظار المرضى لهذه الظاهرة ، غائب في أكثر المخطوطات. أما الفقرة الرابعة التي تردّ فوران الماء الى نزول ملاك في البركة فهي مفقودة في أقدم المخطوطات اليونانية وأفضلها ، وفي أقدم بعض الترجمات. لذلك يعتبرها أكثر المفسّرين اضافة لاحقة على الانجيل : حاشية قديمة تثبت تفسيراً شعبياً لهذه الظاهرة.

## ٢. شفاء المقعد (٥/ ٥ — ١٩)

جاء يسوع الى هذا الرواق حيث تحصل العجائب. والقديس يوحنا لم يوضح الوقت ، ولا المناسبة ، ولا السبب من مجيء يسوع الى هناك. فالمهم ، هو أن المخلّص هو فجأة هنا بين الزمنى. ويبدو انه ليس هنا إلّا من أجل واحد منهم : رجل عليل منذ ثمان وثلاثين سنة. ما هو مرضه؟ يوحنا لا يقولُ شيئاً في ذلك. فالشيء الذي يلفت نظر الانجيلي ، هو قدم المرض : ثمان وثلاثون سنة ، كأنه يقول ان مرضه مُستعصٍ. ان الرجل هو صورة للضيق ، ضيق تضاف إليه خيبات أمل متكررة مئات المرات ، وعزلة تامة : فبسبب علّته كان يصل المسكين دائماً متأخراً ، فلا يستفيد من فوران الماء ، ولم يفكر فيه أحد : لم يكن له مَن يغطّه في البركة عندما يفور الماء.

نظر يسوع الى هذا التعس ، نظرة كلها شفقة. انه يعرف قصته. وبدون مقدمات ، قال له : «أتريد أن تشفى؟». فكان جواب المقعد ، جواب الشاكي المستسلم. فنزل عليه ردّ يسوع نزول الصاعقة : «قم فاحمل فراشك ، وامشِ!». «فشفي الرجل من ساعته ، فحمل فراشه ومشى».

يستحيل إظهار يسوع بأنه مخلّص العالم ، وبأن كلمته مصدر حياة ، بكلام أكثر إيجازاً من هذا الكلام. ففي هذا النص ترتسم المميزات الخاصة لعمل المسيح ، بخطوط واضحة : حريته ، وتدخله غير المتوقع ، وقدرته ، وفي ذات الوقت حاجته الى تعاون الانسان والتزامه الداخلي : «أتريد أن تشفى؟» ، ان نعمة المسيح تأتي في حينها ، عندما يبدو اليأس كاملاً. ولكن هذه النعمة لا تخلّص الانسان إطلاقاً من الخارج ، بدون مشاركته ، أو رغماً عنه. انها تطلب موافقته. وأكثر من ذلك ، انها تثيرها. انها توقظ فيه ارادة العيش ، وتجعله يرغب في خلاصه ، ويحبه. وتجعله يسعى الى

انهاض ذاته، ورفعها. هذه هي الولادة بالروح. والأناجيل الازائية تعبّر عن العقيدة نفسها عندما تُسمعنا يسوع يمتدح ايمان المرضى الذين يأتون إليه.

**٣. الخلاف مع زعماء اليهود (٥ / ٩ ب — ١٨)**

ما ان تمّ الشفاء، حتى بدت العاصفة على الأفق: لأن ذلك اليوم كان سبتاً. وحالما خطا المقعد بضع خطوات، دخل في شجار مع السلطات الدينية، وحكم عليه. فقال اليهود للذي شُفي: «هذا يوم السبت، فلا يحلّ لك أن تحمل فراشك». وبالفعل، ان تأويل الوصيّة الالهية تأويلاً متزمتاً (ارميا ١٧ / ٢١ ...) يعتبر حمل أي شيء يوم السبت، كالفراش مثلاً، انتهاكاً للشريعة. ان الرجل الذي شُفي، قد رمى — وعلى حقّ — مسؤولية عمله الأدبية، على ذاك الذي أعطاه القوّة الفائقة الطبيعة للقيام بهذا العمل، فأجابهم: «ان الذي أبرأني قال لي احمل فراشك وامشِ». فعمل هذا الجواب على اذكاء الدعوى. فسألوه: «مَن الرجل الذي قال لك احمل فراشك وامش!» ان السؤال هو في الواقع مزدوج: «مَن الرجل؟» و«بأي حق يخرق السبت؟». والمقعد يجهل الاثنين معاً. اذ ان يسوع كان قد فعل ذلك خفية.

وهنا يدخل فاصل مقتضب يكشف للمقعد هوية الرجل الذي شفاه، ويفتح الدرب لمجابهة مباشرة بين يسوع ورؤساء اليهود: ولقيه يسوع بعد ذلك في الهيكل، فقال له: «قد تعافيت فلا تعد الى الخطيئة، لئلا تصاب بأسوأ». يبدو للوهلة الأولى، ان يسوع، اذ يشارك الرأي السائد في المحيط الهادي، يعتبر ان علّة هذا الرجل هي نتيجة خطيئة. وقد عبّر عن ذلك، فيما بعد، تلاميذه، أمام الأعمى منذ مولده (٩ / ٢ ...). ولكن جواب يسوع لا يترك ظلاً للشك في نظرته. لقد رفض أن يربط بين العاهة والخطيئة. وهنا يقصد أن يفهم المقعد بما يلزمه به شفاؤه: ان النعمة التي نالها، وقد جدّدت جسده، تدعوه الى الارتداد بكليته الى الله. واذا تجاهل ذلك يصاب بأكثر من علّته السابقة: يعرّض نفسه للموت الروحي. فكانت الأعجوبة علامة الارتداد، والدخول في الحياة الجديدة (متى ٩ / ١ — ٨). هكذا فهم التقليد المسيحي هذه الأعجوبة التي رأى فيها رمزاً للعماد. وأكثر من شهادة تقول بأن سر العماد كان يمنح، أثناء العصور الأولى، في بركة بيت ذاتا، تذكاراً لعمل يسوع.

ويختم هذا الفاصل بمجيء المقعد توّاً الى اليهود يخبرهم بأن يسوع هو الذي شفاه. انفجرت العاصفة هذه المرّة: فأخذ اليهود يشغبون على يسوع، لأنه كان يفعل ذلك يوم السبت. ان الانجيل يضمر نقاشاً حاداً، ودفاع يسوع يختصر في هذا المثل المقتضب: «ان أبي ما زال يعمل، وأنا أعمل أيضاً». ان يسوع يشبّه نفسه بالله. ان اليهود كانوا يؤمنون بأن استراحة الله بعد الخلق (تكو ٢ / ٢ ...؛ خروج ٢٠ / ١١؛ ٣١ / ١٧)، تشمل عمله الخالق فقط، الذي انتهى في اليوم السابع، ولكنهم كانوا يؤمنون أيضاً بأن الله، كملك أعلى ما زال يعمل حتى الآن في ادارة الكون الذي خلقه،

وفي الحكم عليه . فالله لا يتوقف عن العمل اطلاقاً ، حتى ولا يوم السبت . وبارتياح الابن ينسب يسوع الآن الى نفسه ، ما ينسب الى الله : «ان أبي ما زال يعمل ، وأنا أعمل أيضاً» . ان يسوع يتقمّص نفسية أبيه . ويختم يوحنا قائلاً : «واشتد سعي اليهود لقتله ، لأنه لم يقتصر على استباحة السبت ، بل قال ان الله أبوه ، فساوى نفسه بالله» .

### ٤. دفاع يسوع (٥ / ١٩ — ٤٧)

ان يوحنا يروي لنا هنا دفاع يسوع على اتهامات اليهود ، بشكلٍ عرضٍ لاهوتي مكثف. فلم ينكر يسوع شيئاً من ادّعائه بأنه يعمل يوم السبت ، مثل الله ، وانما يشرحه ، ويبرره . وما قد يبدو من قِبَلِ غيره كفراً ، ليس من قبله هو إلا حقيقة ، لأنه هو الابن الذي أولاه الآب كلّ شيء ، والذي لا يقول شيئاً ، ولا يصنع شيئاً إلا باتحاد مع الآب.

ودفاع يسوع يقسم الى قسمين :

آ) ٥ / ١٩ — ٣٠ : يسوع يكشف اتحاد الآب والابن في العمل ، ويجعل نفسه ديّان الأحياء والأموات.

ب) ٥ / ٣١ — ٤٧ : استناداً الى تأكيداته ، يقدّم يسوع شهوده ، ويدين جحود زعماء اليهود.

آ) **القسم الأول** (٥ / ١٩ — ٣٠). اننا نلفت النظر الى الصيغة التي تفتتح هذا المقطع (الآية ١٩) ، والى التي تختمه (الآية ٣٠). وفقاً لأسلوب ساميّ ، يعرف بالتضمين ، ان هاتين الصيغتين تتبادلان الجواب ، وتتضمنان كل التوسع بالفكرة الرئيسية . ان يسوع يكشف سرّ عمله بالذات . فهذا العمل يتم بخضوع كلّي للآب ، وبمشاهدة دائمة له : «لا يستطيع الابن أن يصنع شيئاً من عنده إلّا اذا رأى الآب قد صنعه : فما صنعه الآب ، يصنعه الابن على مثاله» .

فالآب لا يطلع يسوع على عمله كما يطلع نبياً ، بل يكشفه له ، على مثال أب لابنه ، بلا تحفّظ ، ولا وسيط ، وبدون انقطاع ينظر الابن الى الآب يعمل . انه يعمل ، ونظره الى الآب ، والآب لا يشيح بنظره عن الابن ويكشف له ذاته دائماً. وهذا يعني ان عملهما مشترك ، وان الابن اذا كان لا يعمل شيئاً إلا اذا رأى الآب قد صنعه ، فالآب من جهته ، لا يعمل شيئاً بمعزل عن الابن . فالمنسنيور سارفو (Cerfaux) يقول : «لا يكفي أن نقول ان الابن ينسخ عن الآب في عمله» . فان عمل الابن هو مطابق لعمل الآب ، فمن يَرَ عمل الابن ، يرَ الآب يعمل : «أنا والآب واحد» (١٠ / ٣٠).

وهذه الشراكة مع الآب ، تنبع من حب الآب للابن ، لأن الآب يحب الابن ويطلعه على جميع ما يصنع . هذا هو السر المخبأ في قلب أعمال المسيح. وهذه الأعمال تكشف حب الآب للابن. وحب الابن للآب ، وتكشف أيضاً حبهما المشترك للبشر.

ان يسوع يحدّد أعماله (الفقرة ٢١ ...). انها اثنان : الإحياء والدينونة . وهذا السلطان المزدوج ، الذي يقول فيه العهد القديم (تثنية الاشتراع ٣٢ / ٣٩ ، ٤ ملوك ٥ / ٧ الخ) انه سلطان الهي محض ، هو معطى كاملاً للابن ، وشفاء المستعصي بالقرب من بركة بيت ذاتا ، يوم السبت ، هو دلالة على ذلك . ولكن يسوع يزيد قائلاً : والآب سيطلع

الابن على آيات أعظم من هذه ، فتعجبون . وهكذا يعلن يسوع آيات جديدة ، ستكون قمتها اقامة عازر ، التي هي تمهيد لقيامته هو ، وللأعمال التي سيعملها الرسل (١٤ / ١٢) . فالآب قد ربط مجده نهائياً بمجد الابن ، لكي يكرم الابنَ جميعُ الناس ، كما يكرمون الآب : فَمَن لم يكرم الابن لا يكرم الآب الذي أرسله . ان يسوع يدّعي مركز الصدارة في قلب الديانة الجديدة ، متساوياً بالآب ، وحائزاً على رضاه .

ومع ذلك ، قد نخطئ في فهم طبيعة العمل الذي أوكله الآب الى المسيح . لذلك يوضح لنا يسوع ان الحياة التي يهبها للبشر لا تقتصر على صحة الأجساد : انه يهب الحياة الأبدية . وهذه الحياة مرتبطة بالايمان الذي يجيء بكلمته ، كلمة الآب بالذات ، وبصوته ، صوت ابن الله : «مَن يسمع كلامي ويؤمن بمن أرسلني ، فله الحياة الأبدية ... والذين يسمعون ، يحيون : «يسوع يعطي المؤمن الحياة التي توجد فيه كنبع ، والتي يتصرف بها مثل الآب . ان التلميح الى العماد يبدو هنا واضحاً .

وبعد أن وسّع يسوع رؤية الزمن والتاريخ الى أقصى الحدود ، فإنه يتكلم الآن عن ساعة الدينونة الأخيرة . في تلك الساعة ، المحتّمة ، سيدوي صوته من جديد ، كما يدوي الآن على الأرض . وبهذا الصوت سَيُنْهِضُ الله الأموات من القبور : «فستأتي ساعة يسمع فيها صوتَه جميع الذين في القبور ، فيخرجون منها . أما الذين عملوا الصالحات فيقومون الى الحياة ، وأمّا الذين عملوا السيئات ، فيقومون الى الهلاك» . عندئذ يظهر يسوع في مجد ابن الانسان ، سيد الحياة والموت حاكماً أعلى ، لم يتعرف إليه اليهود في آية بيت ذاتا .

وختاماً لكلامه ، ردّد يسوع تأكيده الأول ، وانما بأسلوب مغاير قليلاً هذه المرّة : «أنا أحكم على ما أسمع» . ان الابن يصغي الى الآب ، لينفذ ارادته «لأني لا أتوخى مشيئتي ، بل مشيئة الذي أرسلني» . فهذه الجملة الأخيرة لا تعني أن يسوع هو بدون ارادة شخصية ، وانما ارادته متعلقة تعلقاً مطلقاً بإرادة أبيه ، ومنها تغتذي (٤ / ٣٤) ، وهي وسيطتها الحرة والمطلقة في المحبة .

ب) **القسم الثاني** (٥ / ٣١ — ٤٧) . في القسم الأخير من هذا العرض يجيب يسوع على اعتراض محتمل ، يصوغه هو لنفسه بهذا الشكل : «لو كنت أشهد لنفسي لما كانت شهادتي صحيحة» . لأن شهادة الانسان لنفسه لا تقوم . والاعتراض ذاته يتردّد في الفصل (٨ / ١٣) ، على لسان الفريسيين هذه المرّة ، ولكن يسوع يجابهه بدون أن يسلّم به ، لأن وضع الابن فريد : «أجل اني أشهد لنفسي ، ولكنّ شهادتي صحيحة ، فأنا أعلم من أين أتيت والى أين أذهب» (٨ / ١٤ — ١٨) . وأما في الفصل الخامس فيقبل يسوع أن يدخل في الاعتراض ، ليدحضه من الداخل . ونظراً لادعاءاته المفرطة ، طلب منه اليهود أن يسمّي شهوده . فقبل يسوع ، وقدّم شهوده . أولهم يوحنا (المعمدان) الذي «شهد للحق» (١ / ١٩ ...) . غير أن يوحنا لم يكن إلا انساناً ، ويسوع «لا يعتمد على شهادة انسان» . واذا سمّاه يسوع ، فذلك لأن اليهود أرسلوه إليه وقد سمعوا شهادته . ولكن «آخَرَ» يشهد ليسوع ، وهو «الآب» وهو يشهد له من خلال أعمال الابن : «ان الأعمال التي خوّلني الآب أن أعملها ، هي نفسها تشهد لي

بأن الآب أرسلني». لأن هذه الأعمال، هي عطاء الآب للابن (٥ / ٣٦ ؛ ١٧ / ٤). وتشهد له أيضاً الكتب التي يتصفّحها اليهود على أمل أن يجدوا فيها الحياة الأبدية. «هي تشهد لي. وأنتم لا تريدون المجيء إليّ، فتكون لكم الحياة!».

وبانتقاله الى الهجوم، يسوعُ يعرّي جذور كفر زعماء اليهود. ولا نفتشنّ في هذا الكفر إلا عن مقاومة أثيمة لمحبة الله: «قد عرفتكم فعرفت أن ليس فيكم محبة الله!». ويمكن أن تشمل هذه العبارةُ محبةَ الانسان لله، أو محبة الله للبشر. والمعنى الثاني يبدو أكثر توافقاً مع النص، كما يستعمله القديس يوحنا (راجع ٣ / ١٦، ١ يو ٢ / ١٥، ٤ / ١٦). لقد رفض اليهود محبة الله. وأسباب هذا الرفض هي الكبرياء. وحب الذات. فهؤلاء الناس هم عبيد المجد البشري والرأي العام الدنيوي: «أنـى لكم أن تؤمنوا؟ وبعضكم يقبل المجد من بعض، وأما المجد الذي يأتي من الله دون غيره، فلا تطلبونه» (راجع ١٢ / ٤٣). ان الايمان بيسوع المسيح يفرض عليهم أن يقطعوا كل صلة بحب التوافق مع الرأي العام، وبالخوف من «القيل والقال»، وأن يجازفوا في الاستماع الى كلمة الله في المسيح، فهكذا تكون الحكمة، لأن الطريقة الوحيدة لكي يحافظ اليهود الآن على أمانتهم لموسى، هي في تخطّي موسى، واتباع مَن تكلّم عنه موسى. ولكن الأمانة حتى النهاية صعبة، ومن الأسهل تخدير الضمير بأمانة سطحية. وزعماء اليهود يتيهون في أمانة هي في الواقع غير أمينة. فقال لهم يسوع: «لا تظنوا اني أشكوكم الى الآب. فلكم من يشكوكم: موسى الذي جعلتم فيه رجاءكم. لو كنتم تصدّقون موسى لصدّقتموني، لأنه أخبر عني فيما كتب».

الفصل السادس

# سر خبز الحياة (يو ٦ / ١ — ٧١)

## ١. موقع النص في الانجيل

بعد سر العرس (قانا)، وسر الولادة الجديدة (نيقوديمس)، وسر الماء الحي (السامرية)، يدخلنا القديس يوحنا في سر الخبز. فهذا السر هو أيضاً انساني الجذور: أليس كسب الخبز اليومي للأطفال، واحِداً من هموم الزوجين الرئيسية؟. فالفصل السادس من انجيل يوحنا يسلّط ضوءاً قوياً على هذه المعضلة الحياتية.

ومن ناحية ثانية انه يحمل تعليماً أساسياً. فالفصل السابق يظهر نزاع يسوع مع رؤساء شعبه الروحيين المتمردين على كلامه، بسبب فهم خاطئ للكتاب المقدس والشريعة. وهذا الفصل يظهر خلافه مع الشعب الجليلي الذي تظلله أحلامه المسيحانية. فنرى يسوع يتصدّى لضلالة دينية على جبهتين:

الأولى، أكثر علماً، والثانية شعبية. وهمه هو أن يثبت رسالته ناصعة، بدون مساومة ولا انحراف.

## ٢. هيكلية الفصل

ان الفصل يقسم الى ثلاثة أقسام رئيسية:

— الآية (٦ / ١ — ٢١)

— عظة كفر ناحوم (٦ / ٢٢ — ٥٩)

— الخيار (٦ / ٦٠ — ٧١)

## ٣. الآية (٦ / ١ — ٢١)

ان تكثير الخبز، هو آية في نظر يوحنا، مثل تحويل الماء خمراً في عرس قانا (٦ / ١٤ — ٢٦). فهو اذاً أكثر من أعجوبة. انه في ذات الوقت أعجوبة، وحكمة حية تبين عطية الله. ولكن الجمهور لم ير فيه إلا إظهاراً لمقدرة فائقة الطبيعة، يتبين من خلالها ملك أحلامه المسيحاني. لذلك «لما رأى الناس الآية التي أتى بها يسوع، قالوا: «حقاً هذا هو النبي الآتي الى العالم».

ولكن يسوع يعلم التباس هذه المسيحانية الشعبية، ويرفض أن يشارك فيها. فشعر أنهم يهتمون باختطافه، ليقيموه ملكاً — كما يريدونه

هم — ، فابتعد عنهم ، وعاد وحده الى الجبل.
رفض يسوع هذا التنصيب الملكي المشبوه. ورفض الانزلاق والانجراف في عملية منافية لصُلب رسالته.

ان القديس يوحنا ، يوضح هنا ، كما يفعل في أماكن أخرى كثيرة ، نقطة تاريخية لم تُلقِ عليها الأناجيل الازائية ، إلا ضوءاً خفيفاً. فالقديس مرقس يخبر فقط ان يسوع قد أخطر تلاميذه ، بعد تكثير الخبز ، أن يركبوا السفينة ويتقدموه الى الشاطئ المقابل تجاه بيت صيدا حتى يصرف الجمع (مر ٦ / ٤٥). لماذا أجبر يسوع تلاميذه على الابحار السريع ولماذا يريد أن يصرف الجمع؟ ان القديس يوحنا وحده يعطي الأسباب: لقد كان يسوع موضوع تظاهرة مسيحانية ، حماسية ، تهدد معنى رسالته بالتشويه ، فرفضها ، كما سبق أن رفض التجربة في الصحراء (متى ٤ / ٨ — ١٠).

ورغم ذلك فإن تكثير الخبز هو اعلان صارخ للمسيحانية. ففي انجيل يوحنا — أكثر منه في الازائية (متى ١٤ / ١٣ — ٢١ ، مرقس ٦ / ٢٢ — ٤٤ ، ولوقا ٩ / ١٠ — ١٧) ، يظهر يسوع انه هو المسيح الذي يَقْبَل على مائدته شعبَ الله ، ويشبعه». فتبعه جمع كبير ، لِما رأوا من الآيات التي أتى بها فشفى المرضى. واذ سأل يسوعُ فيليبس«مِن أين نشتري الخبز لنطعمهم» هو الذي أخذ البادرة لإطعام الجمهور (الآية ٥) ، وهو الذي نظم العملية ، فأمر: «أَقعِلوا الناس». وهو الذي أخذ الأرغفة ثم فرق منها على الحاضرين. وفعل مثل ذلك بالسمكتين ، بمقدار ما أرادوا. وهو الذي أمر تلاميذه أخيراً بأن يجمعوا ما فضل من الكسر.

ان كل شيء مدروس لإبراز عظمة الآية ، أو مجدها: ضخامة الجمهور الذي يقدَّر بخمسة آلاف رجل ، وتقدير المواد اللازمة لإطعامهم ، «لو اشترينا خبزاً بمائتي دينار ، لما كفى أن يحصل الواحد منهم على كسرة صغيرة» ، وضآلة الوسائل المتوفرة: «ههنا صبي معه خمسة أرغفة من شعير ، وسمكتان ، ولكن أنّى هذا لمثل هذا الجمع»؟ وتناقضا مع هذا كله ، كما في عرس قانا الجليل ، وفرة الأعجوبة. وبالفعل فقد رفع التلاميذ ، بناء على أمر من يسوع ، ما فضل من الكسر ، فملأوا اثنتي عشرة قفة ، أي ما يكفي لاطعام شعب الاثني عشر سبط.

نلاحظ ان هذا التفصيل في انجيل يوحنا ، يشكل مضاعفة في الآية. ففي الأناجيل الأخرى ، لم تذكر إلا الفضلات المتبقية ، والتي جمعها الجمهور ، وفي انجيل القديس مرقس ، تحتوي هذه الفضلات ، خبزاً وبعض السمك ؛ أما الانجيل الرابع فلا يذكر إلا الخبز ، وكما يبدو ان هذا الخبز المتبقي يكفي لأن يوزع بوفرة. فالمقصود هو الوفرة في الأعجوبة.

فتكثير الخبز يظهر اذن كعطاء المسيح الملوكي لشعبه. ولكن ، فيما يتيه الشعب في تصوراته بمسيحانية اعتباطية ، نرى يسوع يهدف الى حقيقة روحية مغايرة. انه يفكر بالخبز الخالد ، وبالمائدة القربانية ، حيث سيشبع شعبه الى الأبد.

وفي انجيل القديس يوحنا ، كما في الأناجيل الازائية ، نقرأ أعجوبة أخرى باهرة ، بعد تكثير الخبز: يسوع يمشي على الماء. ان النص في انجيل يوحنا ما زال مركّزاً على شخص يسوع ، أكثر منه

في الأناجيل الازائية. وتسكين العاصفة العجائبي، الذي يحتل مركز الصدارة في الأناجيل الازائية، لم يذكر إلا تلميحاً في انجيل يوحنا. فالمهم بالنسبة ليوحنا، هو وجود يسوع الفجائي، بالقرب من تلاميذه التائهين في العاصفة، وفي الليل، والكلمة ذات الصدى الالهي: «أنا هو». فيسوع الذي رفض المُلك الزمني، والبشري، يرجع نحو تلاميذه في المجد والمهابة الالهيين. يجب أن نرى هنا آية سابقة لتجليه الدائم الحضور بالقرب من شعبه، في مجده الفصحي.

### ٤. عظة كفرناحوم (٦ / ٢٢ — ٥٩)

وفي اليوم التالي التقى يسوع والجمع في كفرناحوم. واللقاء يحمل لغزاً فالجمع الذي بات على الشاطئ الآخر، رأى أنه لم يكن هناك إلا سفينة واحدة وان يسوع لم يصعد إليها مع تلاميذه، بل ذهب التلاميذ وحدهم. فتحيّروا وسألوا يسوع: «رابي متى وصلت الى هنا»؟. وهذه الآية كانت موجهة أيضاً الى الجمهور.

كيف سيتوصل هذا الجمع اليوم، بوجود يسوع في كفرناحوم، الى فهم الحقيقة التي ترمز إليها آية الخبز البارحة؟. فهنا تكمن كل القضية. ان يسوع يعمل بتدرّج، لأن الطريق طويل، كما كان طويلاً لنيقوديمس، والسامرية، وكما هو أيضاً لكل انسان يعبر من حقائق هذا العالم الى الحقائق الايمانية، من الأرض الى السماء ومن الجسد الى الروح. فإن يسوع يتخذ محدثيه حيث هم وكما هم: فلماذا بدأوا يفتشون عنه؟ بدون مواربة قال لهم يسوع: «الحق الحق أقول لكم: لم تطلبوني لأنكم رأيتم الآيات، بل لأنكم أكلتم الخبز، وشبعتم»، فأحلام الرخاء الدنيوي تملكهم، لدرجة أنهم لم يروا البارحة الآية التي صُنعت لأجلهم. انهم يأتون الى يسوع طلباً للخبز الذي أكلوه. ولم يتبيّنوا الحقيقة.

ولكي يرفعهم الى مستوى هذه الحقيقة، انطلق يسوع من اهتماماتهم المادية. انهم فلاحون جليليون، وعمال يَشْقَون ويكدّون لكسب معيشتهم. همهم الأكبر، كسب الخبز لعيالهم. ويسوع لا يذمهم. ولكن هذا الهم البشري الشرعي قد يصبح فخّاً، والانسان قد يتعرض للغرق فيه. لذلك يدعوهم يسوع الى التطلع الى أعلى: «لا تعملوا للقوت الفاني، بل اعملوا للقوت الباقي في الحياة الأبدية».

ان الفلاحين الجليليين هم ديِّنون، فلم تَخْفَ عليهم الدعوة: ان يسوع يطلب منهم أن يعملوا في سبيل الله وملكوته، ولذلك سألوه: «ماذا نصنع لنعمل أعمال الله؟»، عندئذ أوضح لهم يسوع ما كان يجب أن يفهموا البارحة: «عمل الله أن تؤمنوا بمن أرسل».

ففهم الجمع ان يسوع جعل نفسه رسول الله. وقبل أن يؤمنوا به ايماناً كلياً سألوه آية. انهم يطلبون منه برهاناً واضحاً، لا يدحض، يبين ان رسالته من الله. ان مثل هذا الشرط، يبدو غريباً في اليوم التالي لتكثير الخبز. ولكن الجمع يوضح ما يريد. انه يريد آية مماثلة لأعاجيب موسى، فانهم ينتظرون من المسيح أن يأتي بخوارق الخروج، وبطريقة أكثر دهشة. ولهذا ذكروا له المزمور ٧٧ /

٢٤ : «أعطاهم من السماء خبزاً ليأكلوا». فرأى يسوع انه يُطلب منه أن يمطر، كما في زمن موسى، خبزاً من السحاب. فالخبز الذي كثره البارحة، لم يكن إلا خبزاً أرضياً. انهم ينتظرون الآن «خبز السماء».

عندئذ بدأت الخطبة واضحة عن خبز الحياة. فبدأ يسوع يشرح لهم الكتاب المقدس بسلطان (خر ١٦ / ٤، ١٣ — ١٥ (تثنية الاشتراع ٨ / ٣، مز ١٠ / ٤٠، نحميا ٩ / ١٥، حكمة ١٦ / ٢٠)، فكشف لمحدّثيه المغزى الحقيقي لأعجوبة المنّ. فالمنّ الذي نزل من السحاب لم يكن هو المنّ الحقيقيّ، خبز السماء، خبز الحق، فلم يكن إلّا رمزه النبوي. لأن خبز الله هو الذي ينزل من السماء، ويعطي العالم الحياة.

ويستفيض يسوع في الشرح: انه هو الخبز النازل من السماء، الغذاء الحقيقي الذي يحمي من الموت: «أنا خبز الحياة. من يأتني لا يجع أبداً، ومن يؤمن بي لا يعطش أبداً». ورغم تذمرات محدثيه، يتابع يسوع بلهجة حازمة: «أنا الخبز الحي الذي نزل من السماء. من يأكل هذا الخبز يحيَ الى الأبد... لأن جسدي طعام حقاً، ودمي شراب حقاً... هو ذا الخبز الذي نزل من السماء، غير الذي أكله آباؤكم ثم ماتوا. من يأكل هذا الخبز يحيَ الى الأبد».

لقد تجادل اللاهوتيون طويلاً في هذا الموضوع أثناء المجمع التريدنتيني، ليعرفوا اذا كانت تأكيدات يسوع في هذا الفصل تعني التجسد، أو الأفخارستيا. فالاحتمال الأول لا يعتبر الخبز الحي الذي نزل من السماء، إلا كما يُعتبر النور والراعي، والكرمة، وحمل الله، واحداً من الرموز الكبرى التي يستخدمها يسوع في الانجيل الرابع، ليعبر عن رسالته مع البشر، والأكل منه يعني في هذه الحال الايمان به. لم يرفض المجمع هذا الحل بل ترك باب النقاش مفتوحاً.

غير ان المعنى القرباني (الأفخارستي) لا يبدو قابلاً للنقاش، وخاصة في القسم الأخير من الخطبة (٦ / ٥١ — ٥٨)، حيث ان واقعية التعابير، وتشابه الكلمات مع الألفاظ التي فاه بها يسوع في العشاء السري، تتزايد. وفي الواقع فإن الفصل بين التجسد والأفخارستيا ليس مسنداً لأن الحقيقتين متداخلتان، وتستندان الواحدة على الأخرى، طوال الفصل. ويسوع يظهر نفسه كأنه حياة البشر مقدمة تحت رمز الخبز: وسر القربان يعبر عن هذه الحقيقة، ويحدثها (ينقلها من القوة الى الفعل)، ويحققها ويعرضها للايمان.

يبدو ان هذه هي الفكرة الرئيسة في هذا الفصل.

ان وجهة النظر حول الأفخارستيا هي اذن واضحة في الانجيل الرابع. هي بالنسبة الى يوحنا، سر خبز الحياة. وذلك لا يعني ان يوحنا يجهل النواحي التي بسطها القديس بولس، والأناجيل الازائية. فعبارات مثل «جسدي... ليحيا العالم»، (الآية ٥١) تبين بداهة، ان مفهوم الذبيحة في السر، التي تذكر بموت الرب، ليست منسية. والجسد الذي يجب أن يؤكل هو الجسد المقرَّب قرباناً، والدم الذي يجب أن يُشرَب، يشير الى الكأس الذبيحي. وعقيدة وحدة شعب الله، في

الاشتراك بالخبز الواحد، ليست غائبة عن يوحنا، ومشهدُ الشعب المجتمع يتلقى من يسوع خبز الأعجوبة الذي باركته يداه، ورفعُ الفضلات، كل ذلك يتضمن معنى الأفخارستيا الجماعي. هذه النقطة ليست محور العقيدة القربانية عند يوحنا. فالانجيل الرابع يرى في الأفخارستيا قبل كل شيء، عطية الله ابنه غذاء. فالأفخارستيا هي المنّ الحقيقي، هي الخبز الذي يعطي الحياة للعالم، بمجرد الاتحاد الوثيق بيسوع.

لقد لاحظ البعض الصلات التي تربط هذه العقيدة بالتقاليد الكتابية واليهودية التي تتعلق بحكمة الله، وكلمته، وشريعته، والتي يتوجب على الانسان أن يغتذي منها لتكون له الحياة. ولكي يكشف يسوع سره الشخصي، فإنه يستعمل نبرة الحكمة الكتابية. انه يعمل مثلها، فيدعو الناس الى وليمته (٦/ ٣٥...، أمثال ٩/ ٥، اشعيا ٥٥/ ١ — ٣، ابن سيراخ ٢٤/ ٢٠). ان الجدة المذهلة، هي ان الحكمة لم تعد في شخصه حقيقة مجردة، انها تبدو متجسدة وحية، في وضح التاريخ. واذا حقق يسوع النزعات الشمولية التي تبرز في كتب الحكمة، فقد توجه الى كل انسان، وأظهر له نفسه كأنه خبزه.

### ٥. الخيار (٦/ ٦٠ — ٧١)

لقد سُحق التلاميذ. فبعد أن سمعوه قال كثير منهم: «هذا كلام عسر، مَن يطيق سماعه»؟ فلجأ يسوع عندئذ الى الكلام عن صعوده الى أبيه. عندما يصعد ابن الانسان الى حيث كان قبلاً، ويتمتع بقوة الروح، يصبح، بجسده، النبع الذي يتفجر حياةً للعالم، لأن الروح هو الذي يحيي، واما الجسد فلا يجدي نفعاً. ولكن كلام يسوع قد ذهب سدى. لقد تخلوا عنه تخلياً شبه كامل. وتبدّد حماس البارحة أمام الحقيقة، تبدّد الدخان أمام الريح.

ولم يبقَ معه إلّا الاثنا عشر. فالتفت يسوع إليهم: «أفتريدون أنتم أن تذهبوا مثلهم؟» يجب أن يلتزموا. فإما أن يعلنوا ايمانهم بيسوع، وأما أن يرحلوا. ويسوع لا يتساهل، فالقضية هي قضية وجوده وقضية رسالته. وفي هذه اللحظة الحرجة، بادر بطرس بالكلام، فقال باسم الاثني عشر، وبدون علم منه، وباسم الكنيسة المستقبلة: «ربِّ الى من نذهب، وكلام الحياة الأبدية عندك!».

نحن نقف كل يوم أمام هذا الاختيار. فكل مرة نقتبل الخبز المقدس وكل مرة ندخل الكنيسة، لنكرم فيها الأفخارستيا، نعيش الفصل السادس من انجيل يوحنا، ليس كحدث عَبَر في الماضي، وانما كحدث دائم الحضور. اننا نجدّد اختيار الاثني عشر، ونعلن في وجه العالم، كما كتب عن ذلك كاهن شاب توفي باكراً: «ان جسد المسيح هو خبز البشر الأسمى... ولا يمكن أن نحصل على خبز أكثر منه غنى، وفاعلية، وتأليهاً».

ان المسيحي الحقيقي يتحرق لأن يكسر هذا الخبز مع اخوته الأرضيين. ولكن مثال يسوع يرشده الى الطريق: ان الشوق الى خبز السماء لا يستيقظ في الكثيرين، إلّا بعد أن يروا أخاهم المسيحي يكسر معهم، على مثال يسوع، خبز الأرض.

فالتعليم الذي يعلّمنا اياه يوحنا في هذا الفصل ، وسيط الحب الأخوي بين البشر ، ووسيط الحياة ليس زهيداً : انه يكشف لنا عمق سر الخبز ، والحب الالهين ، بفضل تجسد المسيح .

الفصل السابع

# الراعي الصالح (يو ١٠ / ١ — ٢١ ، ٢٦ ، ٣٠)

## ١ . موقع المثل في الانجيل الرابع

ان مثل الراعي الصالح يختم المقطع الرئيسي الطويل في انجيل يوحنا . وهذا المقطع — أقله اذا قبلنا التصميم الليتورجي المطروح — يتعلق بأكمله بعيد المظال . وبامكاننا أن نعنونه بالمقطع المسيحاني الكبير .

لقد صعد يسوع الى أورشليم ، وبدأ يعلّم . فكان الشعب يتهامس عليه . وفي أوج العيد ، في اليوم العظيم ، أعلن يسوعُ نفسَه نبعَ الماء الحي . وقف يسوع ونادى بأعلى صوته : «مَن كان عطشان فليأتني ! ...» (٧ / ٣٧ — ٣٩) ، فوقع بين الشعب خلاف . ان يسوع يعلن نفسه نور العالم (٨ / ١٢) ، فاعترض الفريسيون على صحة شهادته لنفسه ، فاستحثّ يسوع اليهود على الايمان به . ان القضية هي قضية حياة أو موت : «اذا لم تؤمنوا بأني أنا هو ، تموتون في خطاياكم» (٨ / ٢٤) . فقام جدال حادّ حول موضوع ذرية ابراهيم الحقيقية (٨ / ٣١ ...) فأعلن يسوع بأنه ابن الله ، وبأنه كائن قبل ابراهيم : «قبل أن يكون ابراهيم أنا كائن» (٨ / ٥٨) . وهذه الكلمة ليست إلا تجديفاً بالنسبة لليهود ، فأخذوا حجارة ليرجموه ، فاضطر يسوع الى أن يهرب من أمامهم ، وخرج من الهيكل خلسة كأنه شقيّ (٨ / ٥٩) . ان شعب الله القديم ينبذ مسيحه .

الفصل التاسع يروي شفاء الأعمى : ففي هذه الآية يظهر يسوع حقيقة شهادته : انه نور العالم . ان الأعمى الذي شفي قد آمن بيسوع ، أما الفريسيون فتشبثوا بجحودهم ، فأدان يسوع عماهم بتعابير قاسية : انهم عميان ويجهلون ، «تقولون اننا نبصر ، فخطيئتكم ثابتة» (٩ / ٤١) .

هنا يندرج مثل الراعي الصالح . انه يبدو لأول نظرة ادانة للرعاة السيئين الذين يقودون شعب الله

وهم عميان. وللمفارقة بينه وبينهم، أعلن يسوع نفسه الراعي الصالح الوحيد الذي أوكلت إليه قيادة البشر الى الحياة، فهو الرئيس الحقيقي للقطيع الواحد.

في هذا الاطار نفهم مغزى هذه الصفحة. انها بعيدة كل البعد عن الشعرية. انها في الواقع تستنفد القطيعة بين يسوع ورؤساء اليهود الدينيين الجاحدين، كما حصل في الفصل الثالث والعشرين من انجيل القديس متى. فأجاب يسوع على هذه القطيعة بأن أخذ قيادة شعب الله الحقيقي.

## ٢. الاطار الكتابي

لقد نسب يسوع الى نفسه فكرة كتابية قديمة، فصورة الراعي مألوفة في الشرق القديم وترقى الى عهود البداوة عند الشعب العبراني (تكو ١٣ / ٢ — ٥ ...، ٢٩ / ١ — ٩، ٣٠ / ٤٣، ٣٣ / ١٢ — ١٤، ٤٦ / ٣٣ ...، خروج ٣ / ١، تثنية ٢٦ / ٥ الخ). والعهد القديم مليء بالتلميحات المحسوسة الى حياة الرعاية، مثلاً (تكو ٢١ / ٢٥ ...، ٢٦ / ٢٠ — ٢٢، = ٣١ / ٣٩ ...، ١ صمو ١٧ / ٣٤ ...، عاموص ٣ / ١٢، لوقا ٢ / ٨ الخ). والعهد العتيق يستخدم صورة للراعي، ولقباً استعاريين، وينسبهما الى الله، حتى وان لم ينسب اللقب الى الله إلا نادراً (تكو ٤٨ / ١٥، مز ٢٣ / ١، ٨٠ / ٢)، فان صورة الراعي تبرز كواحدة من أغنى تعابير العهد بين الله والشعب القديم. لقد ارتبط الله بشعبه، كما يرتبط الراعي بقطيعه. والشعب القديم هو قطيع الله. والخروج يصوّر كأنه عمل رعاية كبير (مز ٧٨ / ٥٢، اش ٦٣ / ١١ — ١٤)، والعودة من المنفى تتشح بهذه المسحة (ارميا ٣١ / ١٠، اش ٤٠ / ١١).

ولكن الله يكل مهمة الرعاية الى أناس يختارهم هو: أنبياء، وقضاة، وكهنة، وملوك (٢ صمو ٥ / ٢ ...، ارميا ١٠ / ٢١، اش ٦٣ / ١١، مز ٧٨ / ٧١ الخ. وهذا الموضوع يقود الى موضوع الرعاة السيئين (ارميا ٢ / ٨، ١٠ / ٢١، ١٢ / ١٠، ١٣ / ٢٠، ٢٣ / ١ — ٤، ٥٠ / ٦، اش ٥٦ / ١١، حز ٣٤ / ٢ — ٦، زك ١١ / ١٥ — ١٧)، الذي يضاف إليه موضوع المسيح، داود الجديد، الذي «يرعى (غنمي) ويكون لها راعياً» مثل داود الأول (مز ٧٨ / ٧٠ — ٧٢، حز ٣٤ / ٢٣). فالفصل العاشر من القديس يوحنا يرجع الى هذا الرمز في حزقيال ٣٤ / ١ — ٣١. ومن الضروري أن نرجع الى هذا النص من حزقيال، قبل أن نقرأ الفصل العاشر من الانجيل الرابع. فإننا نجد فيه وضعاً مطابقاً لوضع شعب الله، واتهاماً مماثلاً للقادة السيئين، وتصعيداً مشابهاً لنفس العبارات المشتركة.

ويجب أيضاً أن نأخذ بعين الاعتبار معطيات الأناجيل الازائية. فان صورة الراعي ترد فيها أكثر من مرة، مرتبطة بصورة النعاج والقطيع، للتعبير عن دور يسوع المسيحاني (متى ٩ / ٣٦ ...، ٢٥ / ٣١)، وعن عمله الشفوق، الغفور (متى ١٨ / ١٢ — ١٤)، وعن رسالته ومهمته كقاض تجاه شعب الله (متى ١٠ / ١٦، ٢٥ / ٣١). ان هذه الصورة مألوفة لدى يسوع، والفصل العاشر من القديس يوحنا يجمع في لوحة واحدة كل هذه المعطيات. وانما الصورة هنا تأخذ حجماً، وقوة، وعمقاً لاهوتياً وروحياً لا سابق له. انها تشمل كل عمل الخلاص، وتفتح نافذة على سر المعرفة المتبادلة بين الآب والابن.

## ٣. هيكلية الفصل

ان مقطع الراعي الصالح يتضمن قسمين بارزين: المثل (١٠ / ١ — ٥) وعدم فهم

المستمعين، مع شرح مفاتيح المثل الرئيسة (١٠ / ٦ — ٢١، ٢٦ — ٣٠).

يقول بعض مفسري الكتاب المقدس انهم يجدون في هذا الفصل بعض العناصر الغريبة المصدر. ففي المثل نفسه (١ — ٥) جعل الراعي مواجهاً للسارق الذي يدخل الحظيرة خلسة، ليخطف ويسرق، والفكرة ذاتها تتردد بتوسع في شرح الفقرات (٧، ١٠، ١٤ — ١٦) مشددة على «الباب» (٧ و ٩). غير ان بعض العناصر تبدو متأتية من مثل آخر، متمحور بشكل مختلف، وبالفعل فان الراعي في الفقرات (١١ الى ١٣) يبدو في تعارض، ليس فقط مع السارق، وانما أيضاً مع الأجير، الذي لا يبالي بالخراف، بل يهرب عند مجيء الذئب. انه من الممكن أن يكون الانجيلي قد جمع نصين متجاورين، ولكن متمايزين، عن يسوع الراعي، ودمجها في نص واحد بسبب تجانسهما. النص الأول (١ — ٥ + ٧ — ١٠ + ١٤ — ١٦)، وهو الأكثر توسعاً وتركيزاً على العلاقة، والمعرفة، والثقة المتبادلة بين الراعي وخرافه. والنص الثاني (١١ — ١٣ + ١٧ — ١٨) الذي يركز على تفاني الراعي في سبيل خرافه.

## ٤. التعليق

ان المثل (١٠ / ١ — ٥) يصف مشهداً من الحياة الرعوية في فلسطين. نعاج من قطعان كثيرة، مزروبة في حظيرة مسورة بحائط من حجارة بلا طين. هناك تقضي الليل تحت رقابة حارس (بواب المثل). في الصباح، يأتي الراعي ليأخذ قطيعه، ويقوده الى المرعى. يقف على باب الحظيرة وينادي خرافه واحداً واحداً: لكل واحد منها اسم يعرفه، كما يعرف صوت راعيها. وبعد أن يُخرج الراعي كل خرافه، يمشي أمامها مصفراً، أو محدثاً بلسانه فرقعة خاصة تعرفها النعاج فتتبعه.

يقابل هذا الوصف للراعي مع نعاجه، وصف آخر للغريب الذي يتسلق حائط الحظيرة خلسة لأن نواياه مشبوهة. انه السارق الذي يأتي لينهب، وبالنسبة للنعاج انه الغريب ينادي، ولكن الخراف لا تخدع: انها لا تتبع الغريب. بل تهرب منه لأنها لا تعرف صوت الغرباء.

ويختم يوحنا قائلاً: ضرب يسوع لهم هذا المثل، فلم يفهموا معنى كلامه. فالمقصود هنا هم الفريسيون، ولكنهم لم يفقهوا، ولم يدركوا انهم معنيون بهذا الكلام. انهم ممتلئون من ذواتهم، عميان (٩ / ٤١)، وليس لهم عيون ليروا الوحي الذي يخلصهم اذ يكشف لهم خطيئتهم وسر المسيح. كل الانجيليين ذكروا عدم فهم الأمثال (مر ٤ / ١٠ — ١٢).

والقسم الثاني من الخطبة يحوي مفاتيح المثل الرئيسة. فالشروحات مركزة على الباب، وعلى الراعي.

فللباب تفسيران مختلفان.

في التفسير الأول، يسوع يجعل نفسه الباب للخراف (١٠ / ٧). انه، كما يبدو، يقصد الباب الذي يتحدث عنه المثل، أي الباب الذي يوصل الى الخراف، والذي يدخله الراعي. فيسوع هو الباب، بمعنى ان رعاية القطيع الشرعية توجب المرور به، كما فعل بطرس بعد القيامة (٢١ /

٥١ ...) ، ومن يدّعي انه يملك حق رعاية شعب الله ، من مصدر آخر غير المسيح ، فهو اللص السارق الذي يتحدث عنه المثل. ان التفسير يقصد زعماء اليهود.

وفي التفسير الثاني (١٠ / ٩) يسوع يجعل نفسه الباب الذي يدخل منه ، لا الرعاة فقط ، وانما الخراف أيضاً ، لكي تجد لها مرعى. فمن هذه الناحية أيضاً ، يسوع هو الباب : باب الخلاص الوحيد. ولا سبيل آخر غيره للوصول الى مراعي الحياة الأبدية ، فهو المخلص الوحيد ونور العالم (مز ٢٣ / ٢ ، اشعيا ٤٩ / ٩ ، حزقيال ٣٤ / ١٤ ، رؤيا ٧ / ١٧).

أما الراعي فيسوع ينسب الى نفسه كل مهامه : انه الراعي الصالح. فالنص اليوناني الأصلي يحتفظ بالنعت «جميل» الذي يوحي بفكرة الراعي الجدير بهذا الاسم : فيه تشع شهامة الراعي ، وكبره ، بكل تألق.

يجب التشديد على عبارة «أنا هو» (الراعي) التي تتردد مرتين. ان هذه العبارة المميزة ترد مرات عديدة في الانجيل الرابع : «أنا (هو) خبز الحياة» (٦ / ٣٥ — ٤٨) ، «أنا هو الباب» (١٠ / ٧ — ٩) ، «أنا هو القيامة والحياة» (١١ / ٢٥) ، «أنا هو الطريق والحق ، والحياة» (١٤ / ٦) ، «أنا هو الكرمة» (١٥ / ١). فليس لها معنى تفسيري واعلاني فقط : فإن هذه العبارة ترتبط بعبارة أنا هو ، التي استخدمها الله في العهد العتيق لكي يكشف نفسه لهذا الشعب بأنه هو الهه ومخلصه ، وانه دائم الحضور والعمل (خر ٣ / ١٤ ، تثنية ٣٢ / ٣٩ ، اش ٤٣ / ١٠). ولها معنى الوعد والالتزام أيضاً ، بجانب معنى الوحي : فالمسيح يلتزم تجاه خرافه ، وتجاه الآب الذي عهد إليه بهذه الخراف (١٠ / ٢٩) ، وهو لن يخون عهده ، ولن يتنكّر لرسالته. انه الراعي الصالح الى الأبد. وهذا ما يضفي على كلمته جدة دائمة البهاء.

ان الراعي الصالح يريد الخير لخرافه ، لا التذبيح : «فالسارق لا يأتي إلا ليسرق ، ويذبح ، ويهلك. أما أنا فقد جئت لتحيا الخراف». والحياة في انجيل يوحنا ، هي مثلها في العهد العتيق ، مختصر كل الخيرات. والمسيح الراعي الصالح ، يهبها بسخاء ، بوفرة. وهذا الملء في الوفرة الذي نلناه بواسطة المسيح ، هو واحد من ميزات لاهوت القديس يوحنا (١ / ١٤ — ١٦ ، ٢ / ٦ — ٨ ، ٣ / ٣٤ ، ٤ / ١٤ ، ٦ / ١٢ ، ١٣ / ١).

ولكي يوفر هذا الخير لخرافه ، لا يتردّد الراعي الصالح عن التضحية بحياته : فالراعي الصالح يبذل نفسه في سبيل خرافه. حبه خالص ومجاني. وخلافاً للأجير الذي يترك القطيع ويهرب عند اقتراب الخطر ، فإن الراعي الصالح يجابه العدو ، ويضحّي بنفسه لانقاذ خرافه. وذلك لأن الخراف هي خاصته ، بخلاف الأجير. انها له ، عظم من عظامه ، ولحم من لحمه. انه يجعل نفسه منها ، وكل ما يصيبها يطعنه في الصميم. **فالمسيح قد تبنّانا ، وتضامن معنا الى هذا الحدّ**. ويتضح هنا أن الحقيقة تفوق الصورة اذ لم نعرف راعياً ضحّى بنفسه في سبيل خرافه. فيسوع وحده هو الراعي الحقيقي ، كما انه الخبز الحقيقي ، والنور الحقيقي ، والكرمة الحقيقية. انه يجسّد ما ليس الآخرون إلا مسودّة له : ملء النعمة والحق (١ / ١٤ — ١٦).

وبين الراعي وخرافه يقوم رباط وثيق من المعرفة المتبادلة : «أنا أعرف خرافي وخرافي تعرفني». ويجب أن نفهم الفعل «عرف» بكل ما للكلمة من غنى في المعاني الكتابية (هوشع ٢ / ٢١.. ، ٤ / ٢ ، ٦ / ٦ ، خر ٢٣ / ١٢ ، أمثال ٢ / ٥ ، مز ٨٧ / ٤ ، ٩١ / ١٤ الخ). انه يتعدى المعنى العلمي ، ليعبر عن اختيار حياتي ، شخصي ، يلزم الكائن بمجمله. فالمعرفة تعني الحضور الحميم بين شخصين ، كما انها تعني أيضاً الاستقبال والثقة المتبادلين ، والتشارك في القلب والأفكار. انها مشبعة بالحنان والائتناس والشعور بالارتباط المتبادل في الرضى والمحبة. والكتاب المقدس يستعمل اللفظة لكي يشير الى علاقات الرجل بالمرأة (تكو ٤ / ١). والمسيح لا يتردّد في تشبيه ارتباطه ، كراعٍ صالح بنا نحن خرافه ، بارتباطه هو بأبيه : «كما يعرفني الآب وأنا أعرف الآب». وهكذا فهذا الاتحاد يعني حضور الواحد الى الآخر حضوراً روحياً : «ان الآب فيّ ، وأنا في الآب» (١٠ / ٣٨ ، ١٤ / ١٠). وهذه هي علاقة المسيح بتلاميذه. وصلاته الكهنوتية الأخيرة ستكون : «وأكون أنا فيهم !» (١٧ / ٢٦).

فمن يُقْبَل في شراكة الحب هذه بين الراعي وخرافه ؟

ان الجواب شمولي. فإخلاص الراعي وحبه يشملان كل البشر ، بدون تمييز في العرق ، والدين ، والوطن. فللراعي في كل مكان خراف متأهبة لسماع صوته (الآية ١٦) ، وهو مسؤول عنها كلها : «فتلك أيضاً لا بدّ لي أن أقودها» (١٦). وهي تتبعه (الآية ٢٧). ويسوع لا يتكلم عن قيادتها الى حظيرة شعب الله القديمة ، وانما يريد أن يضمّها الى القطيع الأوحد ، الذي يقوده الى الحياة الأبدية. وهذا القطيع هو الكنيسة ، القطيع الأوحد ، المتجمّع تحت عصا «سلطة الراعي الوحيد».

واذا رجع يسوع الى الكلام عن موته (الآية ١٧) ، فذلك يعني ان هذا القطيع سيولد من موته. وقد قال البعض بحق ان يسوع «لم يبذل حياته في سبيل قطيع قائم : انه يؤسس هذا القطيع بموته. فموت يسوع هو الذي ينشئ شعب الله الجديد» ، ولا يصحّ أن نفصل قيامته عن موته ، لأن الراعي الصالح يقود بقيامته المهمة ، التي أوكلت إليه ، حتى غايتها. «ان الآب يحبني لأني أبذل نفسي لأرجعها» (١٧). ان الآب يحب يسوع لأنه يطيع حتى التضحية بنفسه في سبيل الخراف. ويحبه أيضاً بسبب النصر الذي يحرزه على الموت ، والذي هو الغاية الأخيرة من هذا الموت. ان الآب يسر بهذا الابن ، الراعي الصالح ، الذي ينقذ القطيع من سلطان الظلمات والموت ، ويرده مخلصاً الى النور والحياة.

ان العصور المسيحية الأولى كانت تفضل التوقف عند هذا المظهر من مثل الراعي الصالح. لقد كان هذا المثل في نظرهم المثل الأكمل للمخلص ، ولذلك نجده منقوشاً في الديماميس على غرف الأموات.

وختاماً يؤكد يسوع على حريته المطلقة في بذل ذاته : «اني أبذل نفسي... ما من أحد ينتزعها مني ، ولكني أبذلها برضاي ، فلي القدرة على بذلها ،

ولي القدرة على ارتجاعها ». ما من أحد يرغم الراعي الصالح على التضحية بذاته لانقاذ خرافه، فتضحيته ليست إلّا نتيجة لحبه وطاعته لأبيه. والانجيل الرابع يرجع غالباً الى هذه الفكرة الرئيسية (١٣ / ١ — ٣، ١٤ / ٣٠... ، ١٧ / ١٩؛ ١٨ / ٤ ، ١٩ / ٣٠).

وينهي يسوع خطبته باظهار الولاء الى الآب المصدر الأول لعمل الخلاص بأكمله: « هذا أمر تلقيته من أبي ». ومجد يسوع الراعي الصالح، يقوم باظهار الآب للناس، فبواسطته يبرز واضحاً، وكاملاً، حب الآب للبشر.

وللخراف ميزتان تبرزان أمام الراعي: « فخرافي تسمع صوتي... فتتبعني» (١٠ / ٢٧).

فصوت المسيح لها هو صوت المخلص الذي لا يخدع، وكلمته، هي كلمة الابن الذي جعل الآبُ كل شيء في يده (٣ / ٣٥، ٥ / ٢٠ و ٢٤، ١٠ / ٢٩، ١٢ / ٥٠، ١٣ / ٣، ١٨ / ٣٧)، وهي تتبعه، انها تطيع، وتؤمن (٣ / ٢١ — ٣٦)، وتتتلمذ للراعي الصالح (٦ / ٤٥)، وترافق الحمل الذي هو الراعي أيضاً (رؤيا ٧ / ١٧)، وتصحبه كيفما سار (رؤيا ١٤ / ٤)، وتسير في نوره وعلى خطاه (٨ / ١٢).

الفصل الثامن

# احياء عازر (يو ١١ / ١ — ٥٤)

## ١. موقع الحادثة في الانجيل

ان رواية احياء عازر، تحتلّ وسط القسم المخصّص في الانجيل، للكلام عن رسالة يسوع العلنيّة. وبعد ذلك يبدأ الكلام عن الآلام. ويطغى على هذا القسم كلام عن عيد التجديد (١٠ / ٢٢) الذي يقع في أيام الشتاء، في كانون الأول، حيث كان يُحتفل بتذكار تطهير الهيكل الذي دنّسه انطيوخوس ابيفانيوس (المكابيون الأول ٤ / ٣٦ — ٥٩، المكابيون الثاني ٢ / ١٦ — ١٩، ١٠ / ١ — ٨). ففي جو هذا العيد أحدق رؤساء اليهود بيسوع وأحرجوه ليكشف عن نفسه، اذا كان هو المسيح (١٠ / ٢٤). وعلى أثر جواب عُدَّ تجديفاً، رأى يسوع نفسه مجبراً على الانسحاب من بينهم، والرجوع الى عبر الأردن (١٠/ ٢٥ — ٤٢) بانتظار ساعته. وهناك أبلغوه مرض عازر.

## ٢. تركيب الحادثة ومغزاها

نلاحظ ان الحادثة تتألف من قسمين رئيسين:

— مرض عازر، وموته، واحياؤه (١١ / ١ — ٤٤).

— اجتماع مجلس أحبار اليهود، وعزمهم على قتل يسوع (١١/ ٤٥ — ٥٤).

## ٣. تعليق:

تبدأ الرواية بشكل فجائي، كما رأينا ذلك في حادث الأعمى منذ مولده (٩/ ١): «وكان رجل مريض». ثم يقدّم لنا القديس يوحنا الأشخاص: عازر وأختيه مرتا ومريم. وقد سبق أن وُصِفَت لنا مريم بأنها تلك التي دهنت يسوع بالطيب. والانجيلي لا يروي لنا عمل مريم، إلا في الفصل الثاني عشر (١٢ / ١ — ٨) اعتباراً منه ان

الجماعة المسيحية التي يكتب إليها هذا الانجيل، تعرف هذا الخبر.

ان صلاة الأختين هي مثال في الثقة والمحبة والرصانة. «ربنا، ان الذي تحبه مريض». فهذه الصلاة، تذكرنا بصلاة مريم في قانا الجليل (٢ / ٣). انها لجوء الى صداقة يسوع لأن يسوع، كما يوضح يوحنا، كان يحب مرتا وأختها وعازر. اننا نجد هنا واحدة من الملامح الانسانية التي تكثر في الانجيل الرابع، وبصورة خاصة في هذه القصة.

ان جواب يسوع يسيطر على الحدث كله، ويكشف مغزاه مسبقاً: «ليس هذا المرض مرض الموت». فلن تكون الكلمة الأخيرة للموت. بل أكثر من ذلك، ان هذا المرض سيكون مناسبة لاظهار اندحار الموت. وهكذا يكون مآله الى مجد الله. وسيكون مناسبة أيضاً لإظهار حضور الله وقدرته الساطعة. ويزيد يسوع قائلاً: «ان مآله لتمجيد ابن الله»، وبالفعل ان الله سيظهر مجده بواسطة المسيح. ووفقاً لعقيدة ملازمة للانجيل الرابع، فان الآب سيتمجّد به (راجع ١٣ / ٣١، ١٤ / ١٣، ١٧ / ١)، لأن الآب يحب الابن (٣ / ٣٥، ٥ / ٢٢ و٢٦، ١٣ / ٣، ١٧ / ٢. راجع متى ١١ / ٢٧، لوقا ١٠ / ٢٢). لقد ربط مجده بمجد ابنه (٥ / ٢٣، ٨ / ٥٠ و ٥٤)، وكما قيل سابقاً، سيكون احياء عازر أسطع أعماله الكبيرة، التي تنبأ يسوع عنها، بأن الآب سيريه إياها، وان رؤساء اليهود سيتعجبون (٥ / ٢٠).

كان موقف يسوع محيّراً، لما أخبروه بمرض عازر: «فلبث في مكانه يومين، وترك الموت ينجز عمله. بعدئذ تحرك يسوع، وكأنه كان يحتاج الى هذه الفترة لاكمال هذه الآية.

دبّ الذعر في التلاميذ، لما أعلن يسوع عن رغبته في الرجوع الى اليهودية. فان اليهودية ترعبهم، منذ أن هُدّد يسوع بالرجم على أثر خطبته في عيد المظال (٨ / ٥٩)، وفي عيد تطهير الهيكل (١٠ / ٣١). فمجرد التفكير بالرجوع اليها يشوشهم، كأن يسوع يسير نحو موته. لذلك احتجوا عليه قائلين: «رابي، أتعود الى هناك، وقد أراد اليهود رجمك منذ قريب؟».

فاتخذ جواب يسوع شكل المثل، اذ شبّه حياة الانسان — حياته هو — بمسيرة يوم. فالانسان يمشي بلا خوف في النهار: «لا يعثر». ومتى جاء الليل تتغيّر الأمور: «في الليل يعثر لأنه ليس فيه النور». فيسوع يقصد ان ساعته لم تأتِ بعد، لذلك يستطيع أن يذهب لرؤية عازر: فمتى جاء الليل يصبح الخطر فعلياً.

وانتقل يسوع من المثل الى اللغز، فزاد قائلاً: «ان صديقنا عازر راقد، فأنا ذاهب لأوقظه»، فأخذ التلاميذ هذا الكلام بحرفيته: «ربنا، اذا كان راقداً فسيشفى». ان هذا النوع من سوء التفاهم هو من ميزات الانجيل الرابع (راجع ٢ / ٢٠، ٤ / ١٥، ٦ / ٢٧، ٧ / ٣٣ — ٣٦، ١٣ / ٣٦، ١٤ / ٢ — ٦). فقال لهم يسوع موضحاً: «قد مات عازر، ويسرني، رحمةً لكم، كي تؤمنوا، اني لم أكن هناك». وهكذا كشف يسوع الهدف من تأخره بالجواب على نداء مرتا ومريم. كان من الضروري اذاً أن يموت عازر، لكي يظهر سلطان يسوع على الموت. فهكذا يستنير ايمان تلاميذه

ويقوى، استعداداً للأحداث القريبة: آلامه. فاحياء عازر يشددهم فيما بعد في ايمانهم بيسوع القائم من الموت. عندئذ أعلن توما، الذي يدعى التوأم — والذي أبرز يوحنا شخصيته (١٤ / ٥، ٢٠ / ٢٤ — ٢٩) — عن عزمه الكئيب، فقال للتلاميذ الآخرين: «فلنمضِ نحن أيضاً ونمت معه!». فاتخذت الرحلة، من الأردن الى بيت عنيا، طابع مسيرة الى الموت.

فلما وصل يسوع الى بيت عنيا، رأى أن عازر في القبر منذ أربعة أيام، اذ ان الدفن كان يحصل يوم الوفاة بالذات (الآية ٣٩، راجع أعمال ٥ / ٦ و ١٠). فتوقف يسوع على مدخل بيت عنيا (الآية ٣٠)، ولم يدخل بيت الأختين الذي كان يغصّ بالمعزين، بل انتظر أن تأتي مرتا ومريم الى لقائه. وهذا ما يعطي الانجيلي فرصة لاظهار موقف كل منهما، ودرجة ايمانهما، وفرصة أيضاً لسرد كلام يسوع الذي يكمل تفسير الآية.

مرتا كانت أول من وصل. فوجّهت الى يسوع عتاباً خفيفاً، يظهر ايمانها:

«ربِّ، لو كنت ههنا لما مات أخي». انها تؤمن بصداقة يسوع وبسلطانه على المرض: لكان استطاع — وأراد — أن يحفظ أخاها من الموت، ولكنها لا تؤمن بعد بسلطانه على الموت. لذلك لما قال لها يسوع: «ان أخاك سيقوم! «أجابت: اعلم أنه سيقوم في القيامة في اليوم الآخِر». أراد يسوع أن يلمح بأنه سيقيم عازر، ولكن مرتا لم تفهم. عندئذ قال لها يسوع: «أنا هو القيامة». وكلمة «والحياة» تنقص في رواية بعض الشهود. ولكن ما يتبع، يحمل ما يوازيها من معنى. فأكمل يسوع قائلاً: «من آمن بي يحيا، وان مات».

ان شرح هذه الآية لا يتم بدون صعوبة: اننا نتساءل، أي موت هو المقصود! الجسدي أم الروحي؟ الاثنان على الأرجح. والمقصود هنا هو موت الجسد أولاً، نظراً للاطار الذي نحن فيه. فيسوع سيقيم جسد عازر، وهكذا يعلن نفسه مبدأ القيامة المقبلة للأجساد (راجع ٥ / ٢٨). ولكن فوق ذلك، يبدو انه يقصد الموت الروحي أيضاً (راجع ٥ / ٢٤)، وإلّا فلا يُفهَم معنى الآية التي تلي: «مَن آمن بي يحيا وإن مات». فمنذ الآن أصبح يسوع مبدأ الحياة التي لا تزول: فمن يؤمن به ينتقل، بفضل هذا الايمان، من الموت الى الحياة (٥ / ٢٤)، وينتصر على الموت (راجع ٣ / ١٥ و ٣٦، ٤ / ١٤، ٥ / ٤٠، ٦ / ٤٠ و ٤٧، ٨ / ٥١، ١٠ / ٢٨، ١٤ / ٦، ١ يو ٥ / ١٢).

وتجدر الاشارة الى قوة اللفظة «أنا هو» في العبارة: «أنا هو القيامة». فيسوع ليس فقط ذاك الذي يأمر الموت، ويعطي الحياة، انه هو القيامة والحياة. والدخول في علاقة معه، هو الدخول مع الحياة بالذات. والاستماع إليه، والايمان به، هما، منذ الآن، القيامة والحياة. وقيامة الأجساد في اليوم الأخير، ليست إلّا إكمالاً لإعطاء الحياة الأبدية التي توهب للمؤمنين منذ اليوم (٦ / ٥٤).

لقد وضح الآن مغزى الأعجوبة. ان قيامة عازر هي رمز لقيامة البشر الأخيرة، تلبية لصوت المسيح، وهي رمز للحياة الأبدية التي يملكها منذ الآن أولئك الذين يؤمنون به. ويجب أن نضيف أيضاً انها رمز نبوي لقيامة المسيح ذاته لأن سيّد الموت لا يقهر بالموت. فالموت يُغلَب بمن هو الحياة (١٤ / ٦، ٢٠ / ٣١).

وجواباً على سؤال يسوع «أتؤمنين بهذا؟» أعلنت مرتا ايماناً غير واضح المضمون. اذ يبدو أنها تثق بكلام يسوع، بدون أن تدرك مغزاه بوضوح. انها تؤمن، بكل كيانها، بأنه هو المسيح ابن الله الذي يأتي إلى العالم، وتسلم به تسليماً أعمى.

عندئذ أسرعت مرتا الى أختها تدعوها: «المعلم ههنا، وهو يدعوك». ان موقف الأختين يكشف طبعين مختلفين: فمريم تبدو كلها انفعالية. حين تلقّت النبأ، قامت على عجل، وخفّت الى يسوع. وردّدت كلام أختها مرتا: «ربّ، لو كنت ههنا لما مات أخي!» وأكبَّت على قدميه تبكي. انها منسحقة، ومتوسلة، فلم يتمالك يسوع نفسه أمام مشهد هذا الألم. ويقول القديس يوحنا ان نفسه قد ارتعشت، كما سيحصل له أثناء العشاء الأخير (١٣ / ٢١).

ثمة كلمة تخلق أشكالاً. فيوحنا يذكر مرتين ارتعاش يسوع، (الآيتان ٣٣ و٣٨)، وهذه اللفظة تعني تذمراً يعبر عن تأثر، وعن اضطراب عنيف وعن سخط. واننا نجدها في انجيلي مرقس (١ / ٤٣، ١٤ / ٥) ومتى (٩ / ٣٠). فكيف نفسرها؟ البعض يرى فيها سخط يسوع أمام قلة ايمان الناس، والبعض الآخر يرى فيها نوعاً من الغضب أمام آثار الموت والخطيئة.

ولكن مهما يكن من أمر، فان يسوع قد ارتعش وبكى. وأمام هذه الدموع الانسانية، انقسم الشهود الى فئتين، فمنهم من تأثر لهذه العاطفة الانسانية تأثراً صادقاً، وأقرّ بعمق محبة يسوع لِعازر، فقالوا: «ما أشدّ ما كان يحبّه». ومنهم من تعجّب مسيئاً الظن، باعتبار ان يسوع الذي فتح عيني الأعمى، كان بوسعه أن يردّ الموت عن صديقه.

فارتعشت نفس يسوع ثانية، وطلب أن يرشدوه الى قبر عازر. ورغم تحذيرات مرتا — التي لم تؤمن بعد، والتي دعيت بحزم الى الايمان — أمر يسوع بأن يرفع الحجر عن القبر. والغاية من الصلاة التي تلاها يسوع جهراً على مسمع من الجمهور، هي الكشف العلني عن اتحاد الابن بالآب الذي يستجيبه في كل حين، واظهار الأعجوبة كآية كافية لاقناع الذين سيشهدون رسالة يسوع: لكي يؤمنوا انك أنت أرسلتني. واذا ما أخذت الأعجوبة في جوّ هذه الصلاة فانها تبرز كاظهار لمجد الله (الآية ٤٠)، أو بكلام أوضح، اظهاراً لمجد الآب بواسطة ابنه. وهكذا تكون تتويجاً لخطاب يسوع في (٥ / ١٩ — ٣٠).

ان الكلام عن قيامة عازر مقتضب: «وصاح بأعلى صوته: هلمّ عازر فاخرج!» «فخرج الميت مشدود اليدين والرجلين بالعصائب، ملفوف الوجه في منديل». ولكن هذا الاقتضاب يفوق في قوته رؤيا حزقيال (٣٧ / ١ — ١٠). فالحدث يكمل تعليم الانجيل الرابع عن يسوع واعطاء الحياة. فقدرة الاحياء التي وهبها الآب الى يسوع (٥ / ٢٦) تشمل كل الانسان، حتى جسده، وقيامة الأموات في اليوم الأخير لدى سماع صوت المسيح، ستكون تكليلاً لعمل الحياة الذي ينجزه الآب بواسطة الابن (٥ / ٢٨، ٦ / ٣٩...).

وعلى مثال الحوار مع نيقوديمس، هكذا تنتهي فجأة رواية احياء عازر بدون اشارة الى عواطف

عازر وأختيه. فالانجيلي يترك القارئ على هذه الكلمات : «حلّوه ودعوه يذهب». غير ان يوحنا ، أمانةً منه لغايته اللاهوتية الأساسية ، يولي اهتماماً لردة الفعل الايمانية عند الكثيرين من اليهود ، والى مسعى البعض منهم لدى الفريسيين. فكانت نتيجة هذا المسعى أن اجتمع مجلس اليهود : «فعقد الأحبار والفريسيون مجلساً وقالوا : ماذا نعمل؟...» واليهود الذين كانوا ، في بدء رسالة يسوع ، قد طلبوا منه آية تبرّر تدخلّه ضد الباعة في الهيكل (٢ / ١٨ و٦ / ٣٠) ، قرروا الآن قتله لأنه يأتي بآيات كثيرة. انهم يخشون حركة مسيحانية تجلب نقمة الرومان (راجع ١٩ / ١٢) وتُعرِّض حَرَمَهم للدمار ، والمقصود هنا هو الهيكل والأمة اليهودية. وكلام قيافا الذي طلب موت يسوع ، حفاظاً على أمة اليهود ، يرن في أذني يوحنا ، وأذني كل مسيحي ، كنبوءة خلاصية. فقيافا يعلن بدون علم منه ، الهدف من موت يسوع : كان عليه أن يموت لكي يجمع شمل أبناء الله. ويقول يوحنا انهم عزموا منذ ذاك اليوم على قتله ، فصار يسوع لا يظهر بين اليهود.

# الكتاب الثاني

## مقدمة لكتاب «ساعة يسوع» (١٣ / ١)

يبدأ الكتاب الثاني من انجيل القديس يوحنا في الفصل الثالث عشر. والفصل لا يتكلّم إلّا عن «ساعة» يسوع، وهو يُقسَم الى قسمين رئيسيين:

— الأول، من الفصل ١٣ حتى ١٩: المساء الأخير والآلام.

— والثاني، القيامة. يتبع ذلك خاتمة لكل الانجيل، في الفصل ٢١.

ويقدِم هذا القسمَ تمهيدٌ وجملة طويلة، ويوحي بما في القسم. لذلك يجمل بنا أن نزن كل كلمة من كلماته.

آ) **قبل عيد الفصح**: ان حياة يسوع الأرضية ستنتهي باتصال وثيق مع احتفالات فصح اليهود. وهذه الصلة مع الفصح هي في نظر يوحنا كبيرة الأهمية لفهم آلام المسيح.

ب) **يسوع يعلم ان ساعته قد أتت**: في نظر يوحنا يوجد هنا واحدة من العلامات المميزة لآلام يسوع المسيح. وهو يرمز إليها ثلاث مرات حاسمة: في ١٣ / ٣ في بداية غسل أرجل التلاميذ، وفي ١٨ / ٤ قبل إلقاء القبض على يسوع، وفي ١٩ / ٢٨ قبل أن يلفظ النفس الأخير. فيسوع يواجه آخر حدث في حياته الأرضية بمعرفة تامة — لا تخفى عليه خافية. ولا يفاجئه شيء. انه يعرف مصيره، ويسيطر عليه سيطرة تامة.

ان «**الساعة**» التي بدأت الآن (راجع ٢ / ٤، ١٢ / ٢٣) تعني موت يسوع في تمام سره. وهذا الموت لا يحمل شيئاً من الخيبة، أو من الانحدار الى العدم. انه بالعكس، يمثل قمة حياة المسيح ونشاطه على الأرض، كما انه يمثّل أيضاً الظرف الذي تنتهي به رسالة يسوع الأرضية وتكتمل، والوقت الذي يُنْجَز فيه عمل الوحي والمحبة، والزمن الذي تكتمل فيه شخصية يسوع التاريخية، في المجد: «أتت الساعة التي يمجَّد فيها ابن الانسان» (١٢ / ٢٣).

**انها ساعة انتقاله من هذا العالم الى أبيه**. وهي

تفتح باباً على الماوراء المشرق للقائه مع الآب. لم يأت يسوع الى هذا العالم إلّا ليحقق في جسده هذا العبور من الابن الى الآب، ولكي يأخذ معه كل البشر، في حركة هذا الفصح الواحد.

ج) **وقد أحب**: فالحب يختصر كل حياة يسوع. والانجيل يوحي بهذا الحب، من قانا الجليل، إلى إحياء عازر. غير ان يوحنا لم يبرزه قبل الآن. لقد عُرِضَت له هذه اللفظة، قبل الخاتمة، لتعبِّر عن كل شيء. فيسوع لم يأتِ، ولم يتكلم، ولم يعمل إلّا بمحبة (راجع ٣ / ١٧).

**خاصته الذين في العالم**، هم أولاً تلاميذه المتجمعون حوله في هذا المساء، ولكن نظر المسيح يتعدّى هذه الجماعة الصغيرة، ليشمل أيضاً كل الذين سيسمعون كلامهم ويؤمنون به (١٧ / ٢٠): كل أبناء الله المشتتين في العالم، الذين سيجمعهم موته في واحد (١١ / ٥٢). والفعل الماضي في جملة «الذين كانوا في العالم»، يفترض ان انفصال يسوع عن أصحابه قد تم، فيسوع قد أصبح الآن من عالم آخر. انه قد أصبح متصلاً بالآب.

**فبلغ به الحب لهم الى أقصى حدوده**، في هذه العبارة أكثر من مجرد اشارة الى وضع زمني، فيوحنا لا يقصد ان يسوع قد أحبّ خاصته حتى النفَس الأخير، انه يريد أن يقول بأن يسوع في نهاية حياته، وساعة افتراقه عن أصحابه، قد ذهب في الحب الى أقصاه. واذا تركهم ليمضي الى الآب، فذلك من محبته القصوى لهم.

وهكذا ينتهي هذا التمهيد. فلم يكن بمستطاع يوحنا أن يصدّر هذا النص عن أمسية يسوع الأخيرة على هذه الأرض، وعن أحاديثه الأخيرة، بمقدمة أكثر عمقاً وأصالة. فبعد الصراعات الحادة في رسالته العلنية، تأتي ساعة الاختلاء والصداقة: ساعة وصية يسوع. اننا نشهد جهد المعلم الأقصى مع تلاميذه، ليهذّب عقولهم وقلوبهم، ويحضرهم لمواجهة المحن القريبة، ويربطهم نهائياً به، في الايمان والمحبة. وبعد الاعلانات الكبيرة أمام العالم (١٨ / ٢٠) يأتي دور اطلاع أصدقائه (١٥ / ١٥) على أدق الأسرار، في مجابهة العالم (١٥ / ١٨، ١٦ / ١ — ٤، ١٧ / ١٤). فلو ان يوحنا قصر الكلام على رؤية العشاء الأخير، لكان قيّد معنى هذا التمهيد الى أقصى الحدود. انه في الواقع، يصدّر الآلام كلها، ويشير الى تقدمة يسوع وموته على الصليب.

## الفصل التاسع

# حادثة غسل الأرجل (يو ١٣ / ٢ — ١٧)

بعد هذه المقدمة، تبدأ أمسية المسيح الأخيرة بحادثة غسل الأرجل (١٣/ ٢ — ١٧).

١. وهذه الحادثة تبدأ **بتمهيد** أيضاً (١٣ / ٢ — ٣) يصحّ أن نحلّله. ان يوحنا كعادته، يبخل بالتفاصيل الخارجية، انه يكتفي بالقول ان الحدث قد حصل في أثناء العشاء. أين، وكيف؟ يتوجب علينا أن ننتظر الفصل ١٨ / ١ لكي نتحقق أن ذلك قد حصل في أورشليم، والفصل ١٣ / ٣٠ لكي نفهم انه حصل بعد حلول الظلام.

أي نوع من العشاء هذا؟ يوحنا يوضح ذلك. فرغم الاختلاف في الترتيب الزمني (يوم الفصح أم مساء اليوم السابق له؟) ورغم غياب أية اشارة الى جو هذا العشاء (أهو فصحي أم لا) ورغم عدم التنويه بوضع سرّ الأفخارستيا، فمن المؤكد ان المقصود هو العشاء الذي تتكلم عنه الأناجيل الازائية (متى ٢٦ / ١٧ — ٢٩، مر ١٤ / ١٢ — ٢٥، لو ٢٢ / ٧ — ٣٨). فالصلة الوثيقة بالآلام، وبالاعلان عن خيانة يهوذا، وبإنكار بطرس، وبتخلي التلاميذ عن يسوع، لا تترك مجالاً للشك في ان المقصود هو هذا العشاء. ولكن يوحنا لم يتوقف على هذه الايضاحات، رغم أهميتها.

انه قد توقف على المحتوى الروحي واللاهوتي لحفلة غسل الأرجل.

آ) الملاحظة الأولى تضع هذه الحفلة فوراً في قلب الآلام: «وقد وسوس الشيطان الى يهوذا بن سمعان الاسخريوطي ليسلّمه». فعمَل يسوع يرتبط ارتباطاً وثيقاً بخيانة يهوذا. عندما انحنى يسوع الى أرجل تلاميذه، أضمر يهوذا الخيانة في قلبه. فالحفلة ترتدي، هكذا، طابع الحبك المؤلم بين أقصى الحب وأقصى الدناءة، بين النور والظلمة. وهذه الفكرة التي أقلقت يسوع ذاته (١٣ / ٢١)

تستولي على يوحنا وتثقل القصة بأكملها ، الى أن يترك يهوذا العلية ، ويغرق في الظلمة (١٣ / ٢٦ — ٣٠) . فني حفلة غسل الأرجل ، كما في قصة الآلام كلها ، يوحنا يتألم لرؤية حب المعلم يبادَل بالرفض والخيانة .

وأكثر من ذلك ، ان العالَم غير المنظور متورّط في هذه المسألة . فوراء البشر ، ووراء يهوذا ، يلوح وجه القوى الشيطانية . هو الشيطان الذي وسوس ليهوذا لكي يسلم معلمه . وأصبحت قاعة العشاء السري حقلاً مقفلاً ، لا يتصارع فيه يهوذا فقط ، الذي ليس إلّا إنساناً ، وانما ابليس والمسيح . ويسوع يتحدّى قوة الكذب ، والبغض القاتل (٨ / ٤٤) التي حاربها طوال حياته والتي يستعدّ لقهرها (١٢ / ٣١ ، ١٦ / ١١ — ٣٣ ، رؤيا ١٢ / ٤ — ١٧ ، لو ٢٢ / ٣ ، قور ٢ / ٨) ، ويسوع يجابه هذه القوة ، مدجّجاً بسلاح واحد ، قادر أن يحطمها : الحب والحق .

ب) والملاحظة الثانية تتعلق بعواطف يسوع الحميمة : «وكان يعلم ان الآب جعل كل شيء بيديه ، وانه من الله جاء ، والى الله يعود» . فيسوع يعمل واثقاً ثقة تامة بالقوى العلوية التي تلقاها من أبيه ، وبرسالته الالهية ، وبالغاية السامية التي يرمي إليها : قد وُهب كل سلطان ليعطي الحياة الأبدية للبشر (٣ / ٣٤ ، ٥ / ٢٢ ... ، ١٧ / ٢) ، وجاء من لدن الله (٣ / ٢ ، ٨ / ١٦ ، ١٨ / ٢٨ ، ١١ / ٤٢ ، ١٦ / ٢٧ — ٣٠ ، ١٧ / ٣ ، ٢٣ ، ٢٥) ، والى الله يعود . فادراكاً منه لكل ذلك ، ولأهمية ساعته ، قام يغسل أقدام تلاميذه . لقد توقّف الشرّاح أمام كبر هذا التناقض ، وحاولوا التفسير بهذا الشكل : «**مع ان** يسوع كان عالماً» ، ولكن هذا التفسير يخون فكرة يوحنا الذي كان يترجم شعور المسيح . بالعكس لقد تصرف يسوع هكذا **لأنه** كان يعي مقدرته على اعطاء الحياة ، وكان يعي رسالته في اظهار الآب ، والأهمية اللامتناهية لساعته . كان يعي وهو يغسل أقدام تلاميذه انه ينجز العمل الوحيد الملائم : العمل الوحيد الذي يترجم الطبيعة الحقيقية لسلطانه ، والهدف الحقيقي لمجيئه ، والسبيل الحقيقي لرجوعه الى الله .

٢ . **ان يوحنا** الذي نعرفه ، عادةً ، مقتضباً ، **يصف هذه المرة حركات يسوع بدقة** ، ولا يهمل واحدة منها . انها مطبوعة في ذاكرته ، جديدة ، ومؤثرة ، كأنه يكتب عنها في اليوم الأول لحدوثها .

كل شيء يبدو غير مألوف في مبادرة يسوع . أولاً ، الوقت الذي اختاره . فالضيافة الشرقية تقضي بغسل أرجل الضيوف قبل الطعام (تكو ١٨ / ٤ ، قضاة ١٩ / ٢١ ، لو ٧ / ٤٤) . وتوقف يسوع عن الطعام ليقوم بهذه الخدمة ، يعطي هذا العمل طابعاً ومعنى غير اعتياديين .

والغريب في الأمر أن يكون المعلم هو الذي كلف نفسه بهذه الخدمة المحفوظة للعبيد (١ صمو ٢٥ / ٤١) والتي كانوا يتحاشون أن يطلبوها من عند يهودي لأنها مذلة .

ويسوع لم يسقط شيئاً من المهمة ، والدور اللذين كلف نفسه بهما ، لقد فعل كما يفعل العبد في العمل : خلع رداءه لتسهل عليه الحركة . ورفع طرف ثوبه ، وائتزر بمنديل يمسح به الأقدام التي

يغسلها. ثم صبّ ماء في مطهرة، وغسل أرجل تلاميذه كلهم. ويوحنا لم يصرف نظره عنه. وواقعية جملته الدقيقة تخون تأثره.

إلا ان الشرّاح لم يتفقوا على المعنى الدقيق لهذا العمل. فالشروحات المقترحة تضاهي باختلافها الشروحات عن عرس قانا الجليل.

فليس من المستغرب أن يدرج هذا العمل في عداد الآيات، حتى وإن كانت لفظة «آية» لم ترد في النص. لقد شُبه بالأعمال الرمزية في العهد القديم حيث كان الأنبياء لا يكتفون بالرمز الى الأحداث المستقبلة، وانما كانوا يستبقون حدوثها. فهكذا مثّل حزقيال حصار أورشليم، وسقوطها (حز ٤ — ٥). ويسوع لما غسل أرجل تلاميذه بشَّر بساعته، والتزم بها بدون تراجع.

وانحناء الرب والمعلم (١٣ / ١٣) حتى أقدام تلاميذه يترجم حبه اللامحدود في الساعات الأولى لتضحيته، وان ضود Dodd يرى في هذا العمل صورة ابن الله المدهشة نازلاً من السماء ليخدم البشر في المركز الأخير (٣ / ١٣، ٦ / ٣٨، ٤٢). اننا نرى المسيح في صورة عبد الله في كتاب اشعيا (٥٢ / ١٣ — ٥٣) مزدرًى ومهاناً يمضي في الخدمة حتى الموت عن خاصته. وعمل المسيح لا يفهم منفصلاً عن سر المحبة على الصليب. انه رمز لهذا السر.

**٣. معارضة بطرس** (١٣ / ٦ — ١١).
شكلت حفلة غسل الأرجل صراعاً حقيقياً ليسوع. لقد صارع قساوةً قلب يهوذا، وقوة ابليس. وهوذا الآن يصارع معارضة بطرس. فمشهد المعلم (يغسل الأرجل) أثار التلميذ الحادَّ المزاج. فلما بلغ يسوع إليه رفض بطرس أن يدخل في هذا العمل المشين: «ربِّ أأنت تغسل لي قدميّ!». من خلال هذه الكلمة، نرى توقير بطرس ليسوع، واحترامه له، وتعلّقه به. ونرى أيضاً عمق اضطرابه. فاختيار الكلمات وترتيبها يعبران عن ذلك: «أأنت تغسل لي قدميّ!».

في باديء الأمر عذر يسوع تلميذه لقلة فهمه، كما عذر نيقوديمس لتعجّبه من سر الولادة الجديدة (٣ / ٦). في الحالتين الأولى والثانية، نحن أمام سر يفوق الادراك البشري: «أنت الآن لا تفهم ما أنا فاعل، ولكنك ستدركه بعد حين». هل المقصود — كما يقول البعض — انتظار الشروحات التي سيعطيها يسوع بعد أن ينتهي من غسل أرجل تلاميذه (١٣ / ١٢ — ١٧)؟ انه يبدو أكثر توافقاً مع الفكرة العميقة للقصة، ومع روح الانجيل الرابع (٢ / ٢٢، ٧ / ٣٧ — ٣٩، ١٢ / ١٦، ١٤ / ٢٦، ١٦ / ١٣) أن نَرُد هذه الكلمات الى موت المسيح، وقيامته، وصعوده. فبعد هذه الأحداث، وبفضل الروح القدس، سيدرك بطرس معناها (١٤ / ٢٦، ١٦ / ١٣، ١٦ / ٢٥).

ولكن بطرس يعاند في الوقت الحاضر. انه يرفض أن يسمع، متكلاً على حكمته، ويقف في وجه معلّمه: «لن تغسل قدميّ أبداً!».

عندئذ ساءت الأمور. يسوع يهدّد تلميذه المتعنّت بكلام قاسٍ: «اذا لم أغسلها لك، فلا حظّ لك معي». فالمقصود هنا أن يكون له حظّ مع يسوع في خيرات الحياة الأبدية (٦ / ٤٧، ١٧ / ٣، ٢٠ / ٣١ الخ)، أي في مجد المسيح بالذات

(١٧ / ٢٤) في بيت الآب (١٤ / ٢ ، ٨ / ٣٥ ، ١٢ / ٢٥ ...) . فإذا رفض بطرس فانه يحرم نفسه من كل مشاركة في هذا المجد. فالتهديد خطير، ويفترض ضلالاً كبيراً.

ان فهم هذا المشهد يفرض علينا الرجوع الى المشهد الذي تلى شهادة بطرس في قيصرية فيلبس (مر ٨ / ٣١ / ٣٣). كان يسوع قد بدأ يعلّم تلاميذه «ان ابن الانسان يجب عليه أن يعاني آلاماً شديدة، وأن يُرذل... وأن يُقتل... فانفرد به بطرس، وأخذ يعاتبه... لكنه هو زجر بطرس قائلاً له : «سر خلني يا شيطان، لأن أفكارك ليست أفكار الله، بل أفكار البشر». فالذي يثور في بطرس سواء في العلية أم في قيصرية بطرس، ليس فقط احترام التلميذ المحبّ، وانما أيضاً عصيان الانسان الدنيوي أمام تواضع معلّمه. فهذا الاتضاع لا يتوافق مع الصورة التي كوّنها بطرس في رأسه عن المسيح. انها تتعارض مع أحلامه، ومع أفكاره عن الله وعمله. ولكن يسوع حازم : اذا كان بطرس يريد أن يكون له حظّ مع المسيح، عليه أن يقبل هذا الاتضاع، وأكثر من ذلك عليه أن يقبله كطريق وحيد للخلاص.

لم يبطئ بطرس في الجواب، جاء جوابه حيّاً وعفويّاً، كاحتجاجه : انه يحب يسوع ولا يريد أن يخسر نصيبه معه، بأي شكل من الأشكال، فصرخ قائلاً : «ربّ، لا تغسل قدميّ وحدهما، بل اغسل معهما يديّ ورأسي» لقد ضلّ بطرس من جديد. لقد فسر كلام المسيح تفسيراً مادياً ففكر بتعداد الغسل، ظنّ انه بقدر ما يكثر الغسل يزداد حظّه مع معلّمه. انه لم يفهم التطهير الذي يرمز إليه عمل المسيح. لم يكتشف فيه بعد صورة الحب الخلاصي.

لذلك أجابه يسوع : «من اغتسل لا يحتاج الى غسل، لأنه كله طاهر». فما الحاجة الى تعداد الغسل الذي يتكلم عنه بطرس؟ ان تضحية يسوع تكفي لأن تطهّر الانسان من كل خطيئة (راجع ١ يو ١ / ٧، عبرا ١٠ / ٢٢).

وفي الايضاح التالي : «وأنتم أيضاً أطهار» يلمح يسوع الى التبدّل الذي حصل للتلاميذ بفضل رسالته. فكلامه طهّرهم ونقاهم (١٥ / ٣)، وهذا الكلام نقل إليهم كلام الآب (١٧ / ٨). لقد آمنوا بالله، فطهّر قلوبهم بالايمان (أعمال ١٥ / ٩)، والهدف الوحيد من عمل الغسل، هو تتميم هذا الايمان، وربطه بالساعة، وتنقيته أيضاً من الأوهام التي ما تزال تشوشه.

ومع ذلك تهرّب واحد منهم من عمل المعلم، ولم «يثبت في كلامه» (٨ / ٣١) ولم يدع الكلمة تنقيه. لذلك بعد أن قال يسوع «وأنتم أيضاً أطهار» زاد بألم : «ولكن ليس كلّكم»، ويوحنا يشدّد : وما قال : «لستم كلكم أطهاراً، الّا لأنه كان يعرف مَن سيسلّمه»، وفي الوقت الذي اتضح فيه الحبّ اللامحدود، للتلاميذ، انغلق قلب يهوذا نهائياً، واستسلم الى الظلمة، وغرق في الأوحال.

٤ . **شريعة الخدمة**. بعد أن أنهى يسوع غسل الأرجل، لبس رداءه وعاد الى المائدة وسأل تلاميذه الذين ما يزالون مندهلين : «أتفهمون ما صنعت اليكم؟» لأن الوقت قد حان لاستخلاص النتائج العملية من الحادثة. فعمل المسيح كان كشفاً، كشفاً لمعنى التجسّد. ولكنه أيضاً قدوة :

«لقد جعلت لكم من نفسي قدوة، لتصنعوا ما صنعت اليكم». فيتوجب على التلاميذ إذَن أن يسلكوا الدرب التي خطها معلمهم: «ما كان عبد أعظم من سيده، ولا كان رسول أعظم من مرسله». عليهم أنْ يتحابّوا ويتعاضدوا» فيحمل بعضهم أثقال بعض» (غلا ٦ / ٢) وأن يؤدّوا الخدمات لبعضهم البعض بمحبة صادقة. فالخدمة المتبادلة، اقتداء بالمعلم، يجب أن تصبح قانون جماعتهم.

وبهذه الخدمة لن يفقدوا شيئاً من سلطتهم. فانها لم تنقص شيئاً من سلطة يسوع. فيسوع يضطلع بها كاملة: «أنتم تدعونني معلماً، ورباً، وأصبتم فيما تقولون، فهكذا أنا»، وبالعكس قد اتخذت سلطة يسوع بهذه الخدمة، أبعاداً كبيرة. وهكذا وضع يسوع الأسس الجديدة لمفهوم السلطة: لقد شجب مسبقاً كل سلطة لا تكون في خدمة الاخوة.

وسيجد التلاميذ في الخدمة والمحبة المتبادلتين، سر السعادة والمجد الحقيقي: «وقد علمتم الآن هذا الأمر، فطوبى لكم اذا عملتم به». فالمعرفة وحدها لا تكفي: العمل بها واجب.

والسعادة التي يعد التلاميذ بها، هي سعادة الملكوت العتيد، لأن يسوع قد أراد أن يبين لنا في غسل الأرجل ان شريعة الملكوت ستكون: المحبة والخدمة. ويصحّ أن نقارن هذه الحادثة مع المثل عن رجوع ابن الانسان: «طوبى لأولئك العبيد الذين اذا جاء سيدهم وجدهم ساهرين! الحق أقول لكم: انه يشدّ وسطه ويجلسهم للطعام، ويطوف بهم يخدمهم» (لو ١٢ / ٣٧).

## ٥. هل في ذلك رمز للأسرار؟

شرّاح عديدون، بدءاً بآباء الكنيسة، رأوا في غسل الأرجل رمزاً للأسرار. فمنهم من رأى فيه رمزاً لسرّ الأفخارستيا، ومنهم من رأى رمزاً للعماد. وآخرون رمزاً لسر التوبة.

وفي الواقع، ونظراً للكلمات المستعملة عن الغسل والتطهير، وعن الصلة بالآلام، يبدو الاحتمال ضعيفاً أن تكون هذه الأمور غائبة عن ذهن الانجيلي. والمقارنة بين رواية يوحنا، ونص مار بولس في رسالته الى أهل أفسس، تفرض نفسها، اذ اننا متفقون على أنها تلمح الى العماد: «أيها الرجال أحبوا نساءكم كما أحبّ المسيح الكنيسة، وضحّى بنفسه من أجلها ليقدّسها ويطهّرها بماء الاستحمام، وبما يتلى من الكلام (أفسس ٥ / ٢٥).

والعماد يخلد عمل المسيح في غسل أرجل تلاميذه، وبواسطة هذا العماد يجعل المسيح حبه الذي دفعه الى التضحية بنفسه حتى النهاية، دائم الحضور، ويشمل كل مسيحي، وبواسطة العماد يظل المسيح هنا، بيننا، بوضع الخادم. في بداية كل سنة مسيحية، نصادف العمل نفسه، والحب نفسه، والكلام الذي قاله يسوع لبطرس: «اذا لم أغسلك فلا حظّ لك معي!».

لكي نكون مسيحيين، علينا أن ندع المسيح يخدمنا، ويحبنا بهذه الطريقة، وأن نؤسس حياتنا على هذا الحبّ، وعلى هذا المثال.

اننا نعرف كيف حاول شارل دي فوكو أن يرفع تحدي المسيح، فكتب هذه الصلاة عن غسل الأرجل: «آه يا الهي، اجعلني أفيد من هذه الأمثولة. اجعلني أنظر الى نفسي دائماً كخادم للجميع، خادم الأنفس والأجساد، لأعمل أكبر قدر من الخير للجميع، خادم كلما توفرت له الفرصة، خادم يأخذ المركز الأخير، خادم لا يطلب أن

يُخْدَم ، بل يَخْدُم نفسه والآخرين ، وهذا ممكن دائماً ، مهما كانت وظيفتنا ، كما أنت برهنت عن ذلك ، أنت الاله ، والرب ، والمعلم ، عرفت أن تكون بين تلاميذك كالخادم .

الفصل العاشر

# تحضير التلاميذ لتقبّل رحيل يسوع وغيابه (يو ١٣ / ٣١ — ١٤ / ٣١)

**١**. ان **الموضوع السائد** في هذه الصفحات هو موضوع الوداع والرحيل.

ان يسوع يتأهب لمغادرة أصحابه والعبور الى الآب. انه ينبئهم باقتراب الفراق، ويكشف لهم مغزاه الحقيقي، ويعدهم برجوعه وبقائه الدائم معهم[١].

**٢. تركيب النص**

ان النص يقسم الى ثلاثة أقسام أساسية:

آ) الآيتان الأوليان تُستخدَمان مَعبَرًا (١٣ / ٣١ — ٣٢): بعد أن أعلن يسوع عن أنه سيُسلم، وبعد أن أخذ يهوذا اللقمة، دخل الشيطان في هذا الأخير، وترك قاعة العشاء، وغرق في الظلمة (١٣ / ٣٠). بعد خروجه شرع يسوع بالكلام ليحتفل بمجد ابن الانسان بأسلوب طقسي (ليتورجي): «الآن تَمجّد ابنُ الانسان، وتمجد الله فيه، واذا كان الله قد تمجّد فيه، فان الله يمجّده في ذاته، وبعد قليل سيمجّده». وقد أصبحت الآلام أمراً واقعاً بالنسبة الى يسوع الذي يعرف أن مجلس اليهود قد حكَم عليه وان تلميذه قد خانه الآن. لقد وقعت المأساة، ويسوع يحتفل بمجده كأمر مكتسب.

ب) نزل يسوع من هذه الأعالي الى تلاميذه المحيطين به، وأعلن لهم دُنُوَّ الفراق: «يا بَنيّ، أنا باقٍ معكم وقتاً قليلاً، فستطلبوني، وما قلته لليهود

(١) تجدر الاشارة الى أن أفعال الحركة كثيرة في هذا النص: خرج، مضى، أتى، ذهب، انطلق، رجع... فأربعة عشر منها نُسبت الى المسيح في الفصل ١٤ وحده.

أقوله لكم الآن : حيث أنا ذاهب الآن ، لا تستطيعون أن تأتوا» (١٣ / ٢٣).

ج) ثم تخلى يسوع ظاهراً عن الأسلوب الذي بدأ به ، وأخذ يتكلم عن المحبة الأخوية : «اليكم وصية جديدة : فليحب بعضكم بعضاً ، وليكن حبّ بعضكم لبعض ، كما أنا أحببتكم ، ويعرف الناس جميعاً انكم تلاميذي اذا أحب بعضكم بعضاً» (١٣ / ٣٤ — ٣٥).

د) بطرس الذي لم ينتبه كثيراً الى الكلام عن المحبة الأخوية ، رجع الى الموضوع الأساسي : رحيل يسوع (١٣ / ٣٦ — ٣٨). فسأله : «ربّ ، الى أين تذهب؟». تصور ان معلمه قد تكلم عن سفر ما ، فهو يريد أن يعرف وجهته. فجاء جواب يسوع يحمل لغزاً جديداً : «لا تستطيع اليوم أن تتبعني الى حيث أنا ذاهب ، ولكن ستتبعني ذات يوم». في نهاية الانجيل نكتشف ان هذه الكلمة كانت تلميحاً مبطناً الى استشهاد بطرس (٢١ / ١٨ — ٢٠). ولكن بطرس لا يفكر الآن بهدف الرحلة ، انه يفكّر باتباع يسوع ، ويظنّ نفسه مستعداً لكل شيء : «لماذا لا أستطيع أن أتبعك اليوم ، وأنا أبذل نفسي في سبيلك !» عندئذ كشف له يسوع ضعفه : سينكره قبل صياح الديك.

هـ) عندئذ رجع يسوع الى موضوع الوداع ، وتبسط به في الفصل الرابع عشر. فغسْلُ الأرجل ، والاعلان عن خيانة يهوذا ، وعن رحيله الى وجهة مجهولة ، وعن انكار بطرس ، أوقع التلاميذ في قلق كبير. ويسوع يعرف ذلك ، لذلك سيبذل قصارى جهده الآن لطمأنتهم.

والفكرة الرئيسة في هذا المقطع كامنة في هذه العبارة : «لا تضطرب قلوبكم !» (١٤ / ١) ، التي استعادها في النهاية : «السلام أستودعكم ، وسلامي أمنحكم... فلا تضطرب قلوبكم ولا تفزع !» (١٤ / ٢٧). ان هذا التضمين يحدّد الموضوع الرئيسي للحديث.

ويتطور هذا الحديث ، وفقاً لأسلوب أَلِفْناه في الانجيل الرابع ، والحوارُ مع بطرس يقدّم لنا مثالاً واضحاً على ذلك. ويسوع يقدم اقتراحاً لغزياً : «أنا ذاهب لأعدّ لكم مقاماً... أنتم تعرفون الطريق ، الى حيث أنا ذاهب». مما أحدث سوء تفاهم لدى محدثيه ، فقال توما : «ربّ ، إنّا لا نعرف الى أين تذهب فكيف نعرف الطريق؟» (الآية ٥). فأعاد يسوع الكلام ، بلغز جديد ، ولكن على صعيد آخر : «أنا هو الطريق...» (الآية ٦) ، فأحدث سوء فهم جديداً ، وألقى نوراً جديداً. وهكذا ، من طريحة الى نقيضة الى الجمع الدائم بينهما ، يتطور الحوار نحو ادراك أعمق للسرّ ، ونحو قمة من الكشف : «يومذاك تعرفون اني في أبي ، وانكم فيَّ ، واني فيكم» (الآية ٢٠). لقد سبق أن صادفنا هذا الأسلوب الدائري في حوار يسوع مع نيقوديمس ، وفي كلامه عن خبز الحياة ، واننا نجده هنا في تدخلات تلاميذه المعاكسة (١٤ / ٥ ، ٨ ، ٢٢) وهذه التدخّلات تؤلف حلقات الحديث الرئيسة الثلاث.

ان تطور الموضوع يحصل على مرحلتين :

— يسوع يحثّ تلاميذه على الايمان (١٤ / ١ — ١٤) ، فكلمة «ايمان» تَرِد أربع مرات (الآيات : ١ — ١٠ — ١١ — ١٢) ، وكلمة معرفة تتردّد في الآيات ٤ ، ٥ ، ٧ ، ٩ ، وكلمة «رأى» في الآيتين ٧ — ٩.

— يسوع يحثّ تلاميذه على المحبة (١٤ /

١٥ — ٢٧)، فكلمة محبة ترد ثماني مرات (الآيات ١٥ / ٢١ / ٢٣ / ٢٤). فمحبة التلميذ ليسوع تقابلها محبة يسوع وأبيه (الآيتان ٢١ / ٢٣) ومجيئهما إليه (الآيتان ١٨ / ٢٣) واظهار يسوع له (الآية ٢١ ...).

و) ان الفصل ينتهي بتلخيص وخاتمة (١٤ / ٢٨ — ٣١) يتضمنان الحض على المحبة والايمان، ولكن بطريقة مختلفة (الآيتان ٢٨ — ٢٩). ويختم يسوع كلامه بالانطلاق نحو آلامه.

### ٣. الشرح

نقطتان تستوجبان شرحاً خاصاً: الوصية الجديدة، وموضوع التشجيع.

آ) الوصية الجديدة (١٣ / ٣٤ — ٣٥)

السؤال الأول الذي يطرح في هذا الموضوع، هو كلمة «وصية». فالشرّاح يطعنون بصحة هذا التقليد. وفي الواقع انه لمن الخطأ أن نجعل من وصية المسيح مجرد تعليمات قانونية. ان هذه الوصية كالشريعة اليهودية، تتضمن فكرة الوحي الالهي، أساس الحياة الدينية والأدبية، فترجم البعض هكذا: «اني أعطيكم تعليماً جديداً». الخطأ في هذه الترجمة انها لا تبرز وجه الأمر، والمثال في الوصية. لذلك يفضل البعض الكلام عن «طريق» أو «وكالة». فهاتان اللفظتان تعبران تعبيراً أوضح عما في الموضوع. وفي الواقع ان يسوع قد شق طريقاً لتلاميذه، أعطاهم نظاماً للحياة، ونسقاً في العمل، وأوكل إليهم عملاً أساسه الحب.

ويسوع يصف هذه الدرب بالجديدة. وهذه الميزة الخاصة في كتابات القديس يوحنا (راجع ١ يو ٢ / ٧ ... ، ٢ يو ٥) تفاجئ قليلاً، لأن الوصية بالحب الأخوي هي شريعة موسوية (الأحبار ١٩ / ١٨، راجع متى ١٩ / ١٩، ٢٢ / ٣٩، لو ١٠ / ٢٦)، ومع ذلك فان وصية المسيح جديدة. أولاً، لأنها تنطوي على نوعية حب كلية الجدة: يجب أن تكون المحبة على مثال محبة يسوع. فمحبة يسوع تكون المثال، والقياس، والحافز، على محبة تلاميذه بعضهم لبعض: يجب أن يحبوا لأنه هو قد أحب، وكما أحب هو. وأكثر من ذلك، فان علاقاتهم الأخوية ستكون ثمرة حبه هو. ومن حبه تنبجس علاقاتهم كأنه هو نبعها، فقبل مجيء المسيح لم يخطر مثل هذا الحب في بال العالم، فالمسيح هو الذي عرفنا على هذا الحب (١ يو ٣ / ١٦).

والوصية هي جديدة أيضاً، بمعنى انها تتعلق بالحقائق المميزة للأزمنة الجديدة أو الأزمنة الأخيرة، أي بمرحلة الخلاص الأخيرة التي افتتحها المسيح بموته ومجده. انها علاقة الميثاق الجديد، والنهائي، الذي ختمه المسيح بدمه (لو ٢٢ / ٢٠، ١ كور ١١ / ٢٥، عبرا ٨ / ٨).

ان المحبة هي الميزة الخاصة للانسان الجديد والمتجدّد على صورة خالقه (قولسي ٣ / ١٠ — ١٤)، وهي رسولة الخليقة الجديدة، «حقيقة سماوية يظهرها الله، تأتي من عالم المستقبل، وتنقل معها التلاميذ الى هذا العالم الالهي».

ويراها القديس يوحنا في رسالته الأولى تشرق على العالم بفضل الجماعات المسيحية الأولى، كفجر يوم جديد، منتصر على قوة الظلمة: «لأن الظلام على زوال، والنور الحق أخذ يضيء» (١ يو ٢ / ٨)، وفي نظر يوحنا من يحبّ ينتقل من الموت الى الحياة (١ يو

٣ / ١٤ ...)، انه يبرز في نور الخلود، ونجمة الصبح المشعة تشرق في قلبه (٢ بطرس ١ / ١٩، راجع رؤيا ٢ / ٢٨، ٢٢ / ١٦).

هذه الشريعة الجديدة هي عطاء المسيح لتلاميذه: «أعطيكم وصية جديدة». والديانة اليهودية كانت تستعمل فعل «أعطى» في الكلام عن الشريعة، فبأولى حجة الشريعة الجديدة هي نعمة وعطاء! انها نعمة وعطاء ليس فقط كإظهار لنوعية في الحب يفوق أحلامنا، وانما كدعوة لعيش هذا الحب، وكدينامية، وطاقة جديدة بُثت في الانسان، وجعلته قادراً على عطاء كامل.

ان هذا العطاء يتضمن مسؤولية ضخمة لدى التلاميذ. لأن العالم يعرفهم تلاميذ المسيح من خلال هذه الشريعة. لقد تسلموا رسالة اظهار الحب للعالم، هذا الحب الذي تعلّموه وتسلموه من معلمهم. وخيانة وصية المحبة هي خيانة له هو بالذات. وهي تشويه وجهه أمام العالم. والحفاظ عليها، واستلهامها مدى الحياة، هو اظهاره للعالم دوماً.

ب) وموضوع التشجيع هو جواب على اضطراب التلاميذ، ساعة رحيل يسوع. وقد حلّل الأب شارليه [1] حالتهم النفسية بعمق، كما ظهرت من خلال أجوبتهم: كلام بطرس (١٣ / ٣٦)، وكلام توما (١٤ / ٥)، وكلام فيليبس ١٤ / ٨)، وأخيراً كلام يهوذا (١٤ / ٢٢). فكلامهم كلهم يدل على عدم فهم لسر المسيح.

كلهم كانوا يأملون اظهاراً لقدرة المسيح يسوع، وينتظرون عملاً مبهراً. لقد كانوا واهمين (راجع لوقا ٢٤ / ٢١، أعمال ١ / ٦)، لذلك أقلقهم نبأ رحيله، كما أقلق اليهود من قبل (١٢ / ٣٦ / ٣٨)، فتبخرت أحلامهم سريعاً.

غير انه وان كان عدم فهم التلاميذ — كما يلاحظ شارليه (Charlier) — يلتقي مع جحود رؤساء اليهود (١٢ / ٣٧)، فانه يتميز عنه بمحبتهم لمعلمهم وتعلّقهم العميق به (١٧ / ٧ ...) انهم منفتحون ويتقبلون تعاليمه. والفصل الرابع عشر يعرض لنا هذا التعليم الأخير، الذي هو تحضير لسر يسوع.

وقد مهّد يسوع لهذا التعليم بحثٌ على الايمان (١٤ / ١) لأن الايمان هو مجلبة السلام: «لا تضطرب قلوبكم، آمنوا بالله وآمنوا بي أيضاً». ويجب أن نفهم هذا الايمان بالمعنى التوراتي: الاعتماد على شخصٍ كلامُه ثقة (اشعيا ٧ / ٩). وقد طلب يسوع من تلاميذه المضطربين هذا الايمان الثابت بكلامه، وبشخصه، لأن الايمان به هو الايمان بالله نفسه.

ان يسوع يفصّل دوافع هذا الايمان وأوجهه المختلفة:

١. الآيات ٤ — ١١: على التلاميذ ألّا ييأسوا عند رؤية معلّمهم يرحل، فان يسوع يرجع الى البيت الأبوي. سيعدّ مكاناً لأصحابه، ويرجع

(١) س. شارلييه، الحضور في الغياب (يو ١٣ / ٣١ — ١٤ / ٣١) مجلة «الكتاب المقدس والحياة المسيحية» ١٩٥٣، عدد ٢، صفحة ٦٨ وما يليها.

إليهم ويستصحبهم. ولكي يذهبوا الى بيت الآب فانهم يعرفون الطريق (الآية ٤) مهما فكروا (آية ٥) ويسوع هو الطريق (آية ٦): «لا يمضي أحد الى الآب إلّا اذا مرّ بي»، وهو الحق، وقد أظهر الآب: «من رآني رأى الآب» (آية ٩)، واذا ما عرف التلاميذ الآب، فانهم يملكون الحياة: ويسوع هو الحياة.

٢. الآيات ١٢ — ١٤: عند رؤية معلّمهم يرحل لا يظن التلاميذ أن لا هدف لهم بعد الآن، فعمل يسوع يستمر في أعمال تلاميذه، ويبدو ان تلاميذه أعمالهم ستفوق أعماله. انها ستكون في الواقع أعمال الرب الممجّد الحاضر بين تلاميذه، والفاعل فيهم. وهذه الأعمال ستنبع منه، كأنه نبع لا ينضب (٧ / ٣٧ — ٣٩) وستكون جواباً على صلواتهم باسمه، أي جواباً لاعلان ايمانهم به، وبأنهم من خاصته، ويسوع يسمع صلواتهم، واستجابته تكون تمجيداً له ولأبيه «كي يتمجّد الآب في الابن».

٣. الآيات ١٥ / ٢٧: ويبقى حزن التلاميذ لدى رحيل معلّمهم. ألا يخسرون في رحيله خيراً لا يعوَّض؟ فاستجابة لهذا الحزن ولهذه الكآبة وعد يسوع بأنه سيرجع: «لن أدعكم يتامى، بل أرجع إليكم» (آية ١٨).

**يسوع سيرجع**

— أولاً بإعطاء الروح القدس: «سأسأل أبي فيهب لكم مؤيداً آخر يبقى معكم الى الأبد» (الآية ١٦)، فإن الروح القدس سيؤمن حضور المسيح بشكل من الأشكال.

— ثم يعلن يسوع لتلاميذه انه سيراهم عما قريب: «بعد قليل لن يراني العالم، أما أنتم فترونني حيّاً، وتحيون» (آية ١٩). يبدو ان هذا الكلام كان يقصد قيامة المسيح، وترائيه لتلاميذه (راجع ١٦ / ١٦ — ٢٢)، ولكن هذه الرؤية لن تكون حسية بحتة، سيرافقها اكتشاف روحي باطني. فعلاقات يسوع بأبيه، التي لم يفهمها التلاميذ حتى الآن (آية ٩..) ستتضح لهم، كما سيتضح لهم في الوقت ذاته حضوره فيهم: «يومذاك، تعرفون اني في أبي، وانكم فيّ، واني فيكم» (آية ٢٠)، والتلاميذ يحيون (آية ١٩) منذئذ حياة جديدة: يحيون بيسوع حاضراً فيهم.

— وينشأ رباط وثيق بين يسوع والتلميذ الأمين، ويقوم بينهما حوار حميم، ويسوع يظهر نفسه، كما هو: «أحبه وأظهر له نفسي» (آية ٢١).

— ولكن يسوع لا ينفصل عن الآب، فوجود الواحد لا يُعقَل دون وجود الآخر «أنا في الآب والآب فيّ» (آية ١٠)، والكشف ينتهي بالوعد بمجيء الآب والابن الى التلميذ: «ونجيء إليه فنجعل لنا عنده مقاماً» (آية ٢٣)، والمسيحي يكون مضيفاً، وهيكلاً للأقانيم الثلاثة.

فمن مرحلة الى مرحلة تَعمّق الكشف، انطلاقاً من التأكيد على رجاء كان ما يزال بعيداً («أرجع إليكم وأستصحبكم» — آية ٣) الى الضمانة بحضور الآب والابن والروح («ونجيء إليه» — آية ٢٣). وهكذا في حين يبدو لهم ان معلّمهم

سيتركهم، يَظهر الفراقُ شرطاً لحضوره الحميم والكامل في ملء تجلّي شخصه الالهي: حضور سري في الغياب، كما يقول الأب شارلييه.

نجد أنفسنا على نقيض مع الظهور المدهش، الذي كان التلاميذ يحلمون به (١٤ / ٨ — ٢٢) على طريقة التجليات في العهد العتيق، والتي تثير حماسهم (خروج ٢٤ / ٩ — ١١، اشعيا ٦٠، حبقوق ٣ الخ). لقد أدخل يسوع تلاميذه في عالم الايمان.

وانطلاقاً من الآية ١٥، أخذ الايمان اسم «الحب». فحضور الآب، والابن، والروح، هو وعد للتلميذ الذي يحب. والصِيغ: «اذا أحببتموني»، «من يحبني»، «اذا أحبني أحد»، تتردّد كاللازمة في الأنشودة. ويسوع يطلب الطاعة والمحبة اللتين كان الله يلقاهما في العهد العتيق (تثنية ٦ / ٤ — ٩، ٧ / ٩، ١١ / ١، مز ١١٩، نحميا ١ / ٥، دانيال ٩ / ٣٤): «من تلقّى وصاياي وحفظها أحبني» (الآية ٢١)، «اذا أحبني أحد حفظ كلامي» (الآية ٢٣). فحفظ الرسول للكلمة وأمانته لها، يضمنان له حياة صداقة ووصال مع الله الذي كشف عن ذاته في عمق حياته الثالوثية. وبالنسبة للتلاميذ قد تحقق وحي حزقيال (٣٧ / ٢٧ — ٢٨): «وأبتّ لهم عهد سلام، عهداً أبدياً، واجعل مقدسي في وسطهم الى الأبد» (راجع ٢ قور ٦ / ١٦، رؤيا ٢١ / ٣).

فمن هذا المنظور للعهد الجديد، يجب أن نقرأ إرشاد يسوع الأخير: «السلام أستودعكم، وسلامي أمنحكم، فلا أمنحكم إياه، كما يمنحه العالم» (الآية ٢٧)، وربما أن كل سبب للاضطراب والقلق قد أقصي، فقد بات على التلاميذ أن يفتحوا قلوبهم لوعود هذا العهد الجديد الذي سيختمه معلمهم بدمه. وهذه الوعود تُختَصَر بهذه الكلمة: السلام. هذا السلام القائم على وعد قاطع بالطمأنينة المطلقة (١٠ / ٢٨) هو قمة العطاء المسيحاني (اشعيا ٩ / ٥...، ١١ / ١ — ١١، ميخا ٥ / ٤، زكريا ٩ / ٩...) وعلامة ملكوت الله. فبهذا المعنى يسميه يسوع «سلامي».

ويسوع يودّ أن يَعبُر تلاميذه من هذا السلام الى الفرح: «فإن كنتم تحبوني فرحتم بذهابي الى الآب» (الآية ٢٨)، وعودة يسوع الى الآب تثبته في مجده كابن لله، وتمكنه من الرجوع الى أصحابه ليغمرهم بعطاياه.

والعبارة: «لأن الآب أعظم مني» قد أزعجت اللاهوتيين، ويجب أن تدرج في رؤية الانجيل الرابع، حيث يظهر الآب كالألف والياء، كالمبدأ والغاية، كالمصدر والخاتمة. ونحوه يرفع يسوع نظره كما نرى في رمز الراعي الصالح (١٠ / ١٧...) لكي يمجّده على كل شيء، ويسوع لم يعمل إلا على إظهار الآب (١٢ / ٤٤، ١٧ / ٦)، ولكن هذا الاظهار الذي لا غبار عليه، والذي هو مجده أيضاً، لم يكن ممكناً إلّا لأنه هو «الابن الواحد الذي في حضن الآب» (١ / ١٨، ٥ / ١٩...)، والذي يستطيع وحده أن يقول: «أنا والآب واحد» (١٠ / ٣٠، راجع ٥ / ١٧).

## الفصل الحادي عشر
# الكرمة الحق (يو ١٥ / ١ — ١٧)

### ١. علاقة الفصلين ١٥ و ١٦ بالفصول السابقة

ان الكلمات الأخيرة في الفصل الرابع عشر تتركنا على انطباع بأن قصة العشاء الأخير قد انتهت، وان قصة الآلام ستبدأ. واذا بالأحاديث وخطابات الوداع تُستعاد وتطول فتملأ فصلين كاملين، تعقبهما صلاة يسوع في الفصل السابع عشر. وفي الواقع بإمكاننا أن نربط ١٨ / ١ بنهاية الفصل ١٤ / ٣١.

وقد قدم المدققون شروحات مختلفة لكي يفسروا هذا الخروج على القياس. فالبعض يتصور أن يسوع قد أكمل حديثه في أثناء الانتقال من العلية الى بستان الزيتون. وهكذا تكون الفصول الثلاثة من ١٥ الى ١٧ هي كلام يسوع على الطريق. وبعض هذا الكلام يكون قد قاله في الهيكل الذي يظل مفتوحاً طوال الليل، بمناسبة عيد الفصح. والكلام عن الكرمة، يكون يسوع قد قاله أمام الكرمة المنقوشة على مدخل الهيكل، والتي تمثل شعب العهد القديم. ولكن هذه الفرضية لا تستند الى أي نص، وبالتالي اننا نتردد كثيراً في فصل رمز الكرمة عن النص الكامل الذي يتكلم عن الأفخارستيا على العشاء الأخير.

وافترض مدققون آخرون ان ترتيب الفصول قد تبعثر، لسبب أو لآخر، إما بتغيير موقع الأوراق، وإما بقلبها. فنهاية الفصل الرابع عشر تؤلف خاتمة، في حين ان الفصل الخامس عشر يبدأ موضوعاً جديداً. ففي الفصل الرابع عشر، يسوع يشرح الغاية من ذهابه، ويهدئ اضطراب تلاميذه. وفي الفصل الخامس عشر يحكي عما سيحصل لهم بعد ذهابه، وعن اتحادهم به، وعن خلافهم مع العالم، وعن قوة الايمان وانتصاره (١٥ — ١٦). ويتحول موضوع التشجيع الى دعوة لتجديد الحياة بالاتحاد مع المسيح وبمساعدة الروح القدس.

قد نستطيع أن نردّ الفجوة القائمة بين الفصلين ١٤ و ١٥ الى الطريقة التي صيغ بها الانجيل الرابع: ان يوحنا قد استعاد بعض الأجزاء عدة مرات، وترك كتابات مختلفة تكمل بعضها بعضاً.

ولكن مهما يكن من أمر، فان الاختلاف في النبرة، وتطور الأفكار بالنسبة الى القسم السابق هما أكيدان. في الحوار الأول (١٣ / ٣١ — ١٤ / ٣١)، يسوع يشدّد على ضرورة ايمان التلميذ، ويبرز أسسه. والموضوع الرئيسي في الخطاب الجديد (١٥ — ١٦) هو الرسالة، ووضع تلاميذ المسيح في العالم.

وتَطبع الخطابَ ميزتان:

١. الاتحاد بيسوع للاتيان بثمار (١٥ / ١ — ١٧)،

٢. والعلاقة بالعالم (١٥ / ١٨ — ١٦ / ١٥):

أ) عداوة العالم (١٥ / ١٨ — ١٦ / ٤)،

ب) تأييد الروح القدس (١٦ / ٥ — ١٥).

وخاتمة (١٦ / ١٦ — ٣٣) تعبّر عن ثقة يسوع بانتصاره على العالم، وتحضّ التلاميذ على الفرح والسلام.

## ٢. رمز الكرمة (١٥ / ١ — ٨).

### آ) جو الصورة التوراتي:

ان يسوع يعلن نفسه الكرمة الحق (١٥ / ١ — ٥). ان هذه الصورة تتجذّر كصورة الراعي، عميقة في التقليد الشعبي، والثقافي، والديني، عند الشعب القديم. ولكي نفهم المعنى الصحيح لكلام يسوع، يجب أن نرجع الى هذا التقليد.

كان شعب اسرائيل شعباً بدوياً، فاستبدل الصحراء بأرض تُزرَع قمحاً وزيتوناً، وكروماً (تثنية ٨ / ٨، ١١ / ١٤)، عناقيدها الأسطورية مثلت الخصب مسبقاً في عيونهم (العدد ١٣ / ٢٣ ...). فامتلاك كرمة، وحراثتها، والتذوق من ثمارها، والتفيّؤ بسلام في ظلها، وفي ظل التينة، هي عنوان السعادة، وعلامة الأيام السعيدة (٣ ملوك ٥ / ٥، ٤ ملوك ١٨ / ٣١، ١ مكابيين ١٤ / ١٢). كانوا ينتظرون ذلك عطاءً من المسيح (ميخا ٤ / ٤، زكريا ٣ / ١٠).

ان الكروم العامرة والمواسم الوافرة، والآكام التي تسيل خمراً جديدة، هي، في الكثير من الرؤى النبوية، واحدة من الرموز المميزة للتجديد والبهجة المسيحانية (عاموص ٩ / ١٣ ...، يوئيل ٢ / ٢٢ — ٢٤، زكريا ٨ / ٩).

وقد عبر حزقيال بقوة عن السر الخاص بالكرمة. وحدها بين الأشجار، لا تصلح إلّا بثمرها (حز ١٥ / ١ — ٨) الذي يعطي الخمر و«يفرح قلب الانسان» (مز ١٠٤ / ١٥؛ قضاة ٩ / ١٣، ابن سيراخ ٣١ / ٢٧ ...). وبسبب «دم» عناقيدها المسكر، تعطى الكرمة رمزاً للخصب، والبهجة، وفيض الحياة. ونشيد الأناشيد يتغنى بالكرمة المزهرة التي تبشّر بالربيع، وبعودة الحياة (٢ / ١٣ — ١٥، ٦ / ١١، ٧ / ١٣). فالكرمة توحي لكاتب نشيد الأناشيد صوراً حية يصف بها حبيبته، ويبجّل الحب وأمل الأزواج (١ / ٢، ٤، ٦؛ ٤ / ١٠؛ ٥ / ١ الخ). والمزمور ١٢٧ / ٣ يرى فيها صورة الزوجة الولود. وكتاب ابن سيراخ يصفها بالحكمة (٢٤ / ١٧،

راجع ١ / ١٦). وفي كتاب الأمثال قد «ذَبحت ذبائحها ومزجت خمرها وصففت مائدتها» (٩ / ١ — ٦). ونعرف ان الكرمة أصبحت لدى الأنبياء، في رؤية العهد، رمزاً للشعب القديم ينتظر اللهُ منه ثمراً. وقد وحد الله الشعب القديم كعنب في البرية (هوشع ٩ / ١٠). وقد غرسه الله أفضل كرمة، وزَرْعَ حق (زرعاً أصيلاً) (ارميا ٢ / ٢١)، فأصبح يثمر ثمراً لنفسه (هوشع ١٠ / ١، حز ١٧ / ٣ — ٨، ١٩ / ١٠ ...). لقد وضع الله كل ثقته في كرمه، ولكن الكرم المفضّل قد أصبح كرماً عاقاً (ابن زنا) لا يعطي الهه إلّا حصرماً (١٠ / ١ ...، ارميا ٢ / ٢١). وموضوع الحب والحنان هذا، يتغيّر الى موضوع غضب. فالحب الخائب ينتقم من الكرمة الخائنة، والمزمور ٧٩ يصرخ الى الله مستعيذاً به من الضيق الذي تعانيه الكرمة التي كانت مزدهرة وهي الآن متروكة للخراب والنار (٩ / ١٧. ورؤيا اشعيا (٢٤ — ٢٧) تستحضر اليوم الذي ستزدهر فيه الكرمة بفضل عناية الله (٢٧ / ٢ — ٥).

هذا هو موضوع الكرمة في خطوطه التّوراتية الكبيرة. لقد أخذه يسوع بصور مختلفة. في العشاء الأخير جعل من «عصير الكرمة» سرّ العهد الجديد بدمه، باكورة الوليمة المعادِية (السماوية) التي أعدها للمختارين في ملكوت أبيه (متى ٢٦ / ٢٧ — ٢٩، مر ١٤ / ٢٣ — ٢٥، لو ٢٢ / ١٧ — ٢٠).

**ب) ان الرمز في انجيل يوحنا** هو امتداد للصورة التّوراتية، لكن، كما هي الحال دائماً، انه ينحصر في شخص المسيح. فاذا أعلن المسيح نفسه انه هو الكرمة الحق، قدّم نفسه كممثل أصيل لشعب الله، وكرأس له، به يتجلى ويتحقق شعب الله القديم الحقيقي، الكرمة المختارة للأزمنة الأخيرة. وذلك لأنه هو الابن، وأبوه الكرّام (١٥ / ١).

ان تأكيد يسوع مطلق: لن يستطيع أحد بعد اليوم أن يكون من شعب الله، ما لم ينتسب الى الكرمة الحق، أي اذا لم يكن فيه، كما هي الأغصان في الكرمة. وقد نَبَّه الشرّاح الى أن التأكيد الأساسي في المقطع قائم على لفظة «فيّ» التي تتردّد ست مرات في سبع آيات (الآيات ٢ — ٤ — ٥ — ٦ — ٧)، وبصيغة السلب (الآية ٥): «اذا انفصلتم عني. لا تستطيعون أن تعملوا شيئاً».

ولا يقول يسوع ان الأغصان قد التصقت به، أو طُعِّمَتْ عليه، كأن القضية هي قضية الحاق عناصر غريبة عن الكرمة، وانما يقول: «كل غصن مني» (١٥ / ٢)، ليدلّل على أن الأغصان تؤلف معه كائناً واحداً، وجسداً روحياً واحداً.

يقول الأب بوييه (Bouyer): «ان الصورة هي صورة كائن جماعي ومع ذلك واحد وشخصي، يحوي البشرية المتجددة، ويحملها كلها في ذاته. ان ذلك يتوافق مع عقيدة الجسد السري عند مار بولس». ان شعب الله يتكوّن ابتداءً بالمسيح، وبه، وبواسطة اتحاد التلاميذ بشخص المسيح الانسان — الاله، عن طريق الايمان. وفي الواقع ان الايمان هو الذي يجعلنا أغصاناً ويثبتنا في الكرمة (الآيات ٤ — ٧). كما ان كلمة المسيح هي التي تقضب الأغصان ليكثر حملها (آية ٣). فالموضوع

اذن ليس موضوع صوفية طبيعية، ولا موضوع ديونسية (متعلق بديونيسوس إله الخمر).

تأكيد آخر أساسي: التشديد على الثمار (الآيات ٢ — ٤ — ٥ — ٨ — ١٦). ان القرابة وثيقة بين هذه الفكرة عند يوحنا وبين رمز الكرمة التوراتي. ففكرة الثمار كانت تحتل ثمة مكاناً رئيساً: لقد غرس الله كرمته، واعتنى بها على أمل أن تثمر ثمراً شهياً، ولكن أمله قد خاب. فالكرمة في يسوع تلبي انتظار الله وترضيه، والشعب القديم يثمر لالهه.

فما هي الثمرة؟

ان ايضاحها يوجب علينا الرجوع الى نص آخر ووحيد، يتكلم عن الثمار. في الانجيل الرابع: «ان لم تقع الحبة من الحنطة في الأرض وتمت، تبقَ وحدها. واذا ماتت أخرجت حباً كثيراً» (١٢ / ٢٤). فهذا المثل يقصد هنا موت المسيح. وقد قال يسوع لليونانيين الذين كانوا يلتمسون أن يروه: «أتت الساعة التي يتمجّد فيها ابن الانسان» (١٢ / ٢٠). فمَثل حبة الحنطة يشرح هذا الجواب: فكما ان حبة الحنطة تموت في الأرض وتكثر، كذلك ينتج ثمر وافر عن موت ابن الانسان، ويمجده. وهذه الثمرة تكون هزيمة سيد هذا العالم، وخلاص البشرية: «اليوم ينبذ سيد هذا العالم. فاذا ما ارتفعت من هذه الأرض، جذبت إليَّ الناس أجمعين (١٢ / ٣١ — ٣٢...).

والتعبير الذي طُبق على المسيح في حبة الحنطة، يطبّق على الأغصان في رمز الكرمة: «يثمر ثمراً كثيراً» (الآية ٥). والتلميذ المتّحد بالمسيح يسهم في اعطاء الثمار الروحية لموت معلمه. وفي الفصل ١٤ / ١٢ قد وعد يسوع التلميذ الأمين بأن يعمل الأعمال التي يعملها هو، ويعمل أعظم منها. ومَثَل الكرمة والأغصان يعمق هذه الحقيقة. فتلاميذ المسيح يسهمون في تقدّم عمل الخلاص: بهم يثمر المسيح — الحبة والكرمة — وبواسطتهم تكثر ثماره.

لذلك، كما يقول أ. جوبير: «ان زمن الكنيسة ليس زمناً عديم الشكل، رتيباً... فمهمة الرسل الكبيرة هي الاعتناء بالكرمة، والعمل على تعميم النسغ الوحيد الذي يعطي الحياة للعالم. فالكرمة لا تؤلف عالماً مغلقاً على ذاته، وانما عالماً منفتحاً.

واذا نُسبت الثمار الى الأغصان فذلك لأنها «في» الكرمة (٢ — ٤). وبفضل ثباتها في الكرمة، نستطيع القول بأن الكرمة هي التي تثمر، وبأنها تظهر مجدها وخصبها بواسطة الثمار التي تحملها الأغصان. وأكثر من ذلك، ان هذا المجد هو مجد الآب، بفضل الاتحاد القائم بين المسيح — الكرمة وبين الآب — الكرام، فالثمار التي تحملها الأغصان تمجّد اذن الآب والابن، الكرّام والكرمة: «ان تمجيد أبي أن تثمروا ثمراً كثيراً، فتكونوا يومئذ تلاميذي» (الآية ٨).

ولكن الشرط المطلق هو ثبات الأغصان في الكرمة، وثبات التلميذ في يسوع (الآيتان ٣ — ٦) وثبات كلام يسوع فيه (الآية ٧) وثباته فيه وفي محبة يسوع (الآية ٩). ان الذي يثبت متحداً بالكرمة، والذي يدع الآب يقضبه (الآية ٢) هو وحده يحمل ثماراً. فالخصب يقاس بعمق هذا الاتحاد.

وعلامة الثبات بيسوع، وفي محبته، هي حفظ

وصاياه (الآية ١٠). وبدرجة أولى حفظ وصية المحبة الأخوية. وهذه الوصية تتردد مثل اللازمة الملحّة، المصرّة، المتوسّلة. وقبل أن يغادر يسوع أصحابه، طلب منهم أن يتخذوا حبه لهم مثالاً لحبهم بعضهم بعضاً: «أن يحب بعضكم بعضاً، كما أحببتكم» (الآية ١٢)، وهو قد أحبهم، كما أحبه الآب (الآية ٩). وتبديداً لكل اشكال، زاد يسوع موضحاً: انه قدم حياته لأجلهم، اذ «ما من حبّ أعظم من حبّ مَن يبذل نفسه في سبيل أحبائه» (الآية ١٣).

فعلى تلاميذ المسيح أن يتبعوا معلّمهم على طريق التضحية بذواتهم وبمحبة اخوتهم حتى النهاية. ويسوع يطلب ذلك من أصحابه، ولا سيما انه قد جعلهم أصدقاءه وائتمنهم على أفكاره، ورسالتِه من بعده، وعلى مقاصده: «لا أدعوكم عبيداً لأن العبد يجهل ما يعمل سيده، بل أدعوكم أحبائي، لأني أطلعتكم على كل ما سمعته من أبي» (الآية ١٥). وأكثر من ذلك، لقد اختارهم يسوع وأوكل إليهم رسالة خاصة، وعلق عليهم أمله: «... أنا اخترتكم وأقمتكم لتنطلقوا فتثمروا ويبقى ثمركم» (الآية ١٦). فلا يصحّ أن يخيبوا ثقة معلّمهم: «ما أوصيكم به أن يحبّ بعضكم بعضاً» (الآية ١٧). في جماعة الرسل التي تعيش هذا الروح، تسكن المحبة التي توحّد الآب والابن، والتي بها أحبّا العالم. وبواسطة هذه الجماعة، يكمّل الحب الخلاصي تجلّيه وانتشاره، والكرمة شعب الله تثمر لله وللبشر.

والى جانب المحبة يزدهر الفرح في قلوب التلاميذ: «أقول لكم هذا ليكون فرحي فيكم وليكون فرحكم تاماً» (الآية ١١). انه فرح المسيح نفسه يشعّ في قلوب جماعة الرسل على قدر ما تتحد الأغصان بالكرمة. انه فرح الأبطال الذين يدركون أن الآلام وحتى الموت هي هبة من الله، بها ينقي كرمته ويقلّمها ليزداد ثمرها (الآية ٢).

### ج) رمز أفخارستي؟

رأى عدد من المعلقين صلة بين صورة الكرمة والأفخارستيا. ان المقارنة ممكنة. صحيح ان يوحنا، عندما روى أمسية يسوع الأخيرة على الأرض وحديثه، لم يلمح الى تأسيس الأفخارستيا، ولكن رمز الكرمة يفترض ذلك. وهذا الرمز يظل أوفى شرح، وأعمقه لكلام يسوع عن الكأس الأخيرة: «هذا هو دمي، دم العهد الجديد، يراق من أجل جماعة كثيرة. الحق أقول لكم: لا أشرب بعد من عصير الكرمة حتى يأتي يوم أشربه فيه خمرة جديدة في ملكوت الله» (مر ١٤ / ٢٤ — ٢٥).

وقد قارن البعض بين صورة الكرمة، وصورة خبز الحياة في الفصل السادس. في الصورتين معاً، وفيهما فقط، نجد الدعوة للثبات في يسوع: «من أكل جسدي وشرب دمي، أقام فيّ وأقمت فيه» (٦ / ٥٦) «استقروا فيّ كما استقر فيكم... فمن استقرّ فيّ واستقررت فيه، فذاك الذي يثمر ثمراً كثيراً» (١٥ / ٤ — ٧).

فالصفحتان تتكاملان، وان لم تتطابقا. فالفصل السادس، وإن كان يشدّد على الايمان، وعلى الحياة التي ينالها أولئك الذين يأكلون خبز

الحياة (٦ / ٤٧ — ٥٨) لا يأتي على ذكر الاتحاد والمحبة. والفصل ١٥ من جهته، لا يذكر الايمان والمحبة وانما يعد في المقابل بالخصب الروحي أولئك الذين يستقرون في الكرمة الوحيدة ويدعوهم لأن ينهلوا منها المحبة الأخوية، كأنها هي النبع. وبينما يتجه النظر، في الفصل السادس. مرات عديدة نحو الحياة الأبدية والقيامة في اليوم الأخير (٦ / ٣٩ ... ، ٥٠ ... ، ٥٤ — ٥٨)، فالتشديد يحصل في مَثَل الكرمة على وضع الكرمة الحاضر، الذي يثمر في الأغصان.

وهكذا وبفضل هذين الفصلين، يتألف لاهوت غني عن الأفخارستيا، سر الايمان والمحبة، عربون الحياة الأبدية، ومنذ الآن مصدر مشاركة وحب بين البشر، ونبع خصب للعالم لا ينضب.

والمسيحية الأولى استخلصت من الكرمة هذا المعنى الأفخارستي. اكليمنضوس الاسكندري يتكلم عن خمر الأفخارستيا كأنه دم كرمة داود والديداكي تحوي صلاة الشكر هذه: «فيما يختص بالأفخارستيا، اشكروا هكذا، أولاً بالنسبة الى الكأس: «نشكرك يا أبانا كرمة داود المقدسة. لقد عرّفتناها بواسطة عبدك يسوع. لك المجد الى الأبد».

الفصل الثاني عشر

# صلاة يسوع (يوحنا ١٧ / ١ — ٢٦)

ان أمسية يسوع الأخيرة مع تلاميذه تنتهي بصلاة طويلة، قد اتُفِقَ على تسميتها «الصلاة الكهنوتية». وهي في الواقع أطول صلوات المسيح في التشفّع وتقدمة الذات خلال تأهبه لمغادرة هذا العالم والمضي الى الآب من أجل خلاصنا. انها صلاة «ساعة» يسوع وهي تلخص كل حياته وأعماله على الأرض، وتستبق ثمارها.

## ١. التصميم

نميز ثلاثة أقسام في صلاة يسوع:

آ) ١٧ / ١ — ٥ يسوع يطلب من الآب أن يمجده.

ب) ١٧ / ٦ — ١٩ يسوع يتشفّع من أجل التلاميذ المتجمعين حوله.

ج) ١٧ / ٢٠ — ٢٦ يسوع يصلي من أجل الكنيسة العتيدة.

## ٢. شرح القسم الأول (١٧ / ١ — ٥)

«فاه يسوع بهذا الكلام». ان ذلك يعني الخُطَب التي قالها يسوع في الفصول السابقة ١٣ — ١٦، وقد شارف على نهاية توصياته وتعاليمه.

«رفع عينيه نحو السماء». هي العلامة الحسية لدخوله في الصلاة. ومراراً ما ذكر الانجيليون هذا التصرّف عند يسوع: قبل تكثير الخبز (مر ٦ / ٤١)، وقبل شفاء الأصم الأبكم (مر ٧ / ٣٤) وقبل إحياء عازر (يو ١١ / ٤١). انها تترجم، في الوقت الحاضر، التفات نفسه نحو الآب، الذي منه أتى الى العالم، وإليه سيعود (١٦ / ٢٨ — راجع ٨ / ٢٣).

«يا أبت». ان هذا الابتهال يضفي على كل الصلاة جوّها، ويعطيها اتجاهها، ويتكرر مرتين في الفقرة ٢١، وفي الفقرة ٢٤. ويتسع ليُصبح «أيها الآب القدوس»، في الفقرة ١١، و«يا أبت

العادل»، في الفقرة ٢٥. أما القديس مرقس فقد احتفظ باللفظة الآرامية «أبّا» التي استعملها يسوع (مرقس ١٤ / ٣٦). انها اللفظة التي يستعملها الطفل في علاقاته الودية مع أبيه. وقد كان اليهود يرفضون استخدامها في صلواتهم، لما فيها من المودة الحميمة. وهذا النسق الشخصي والبسيط في الصلاة قد أدهش التلاميذ لدرجة ان مرقس قد احتفظ بالعبارة، كما قالها يسوع. ويسوع قد صلى هكذا، مثل طفل، حتى عتبة الموت، وصلاته الكهنوتية كلها هي مناجاة الابن لأبيه. «قد أتت الساعة». هاجس هذه «الساعة» سيطر على حياة يسوع بأكملها (٢، ٤). انها ساعة الغمّ والألم، والتفكير بدنوّ هذه الساعة قد أقلق يسوع لحظةً، في كل كيانه (١٢ / ٢٧ ...)، ولكن الآن لا يرى فيها يسوع إلّا ساعة الاكمال، ساعة رجوع الابن الى الآب، ساعة اللقاء والمجد.

«مجد ابنك»! يسوع يفتتح صلاته بهذا الطلب. انه يطلب من الآب أن يمجّده، أي أن يرفعه في المجد الالهي، وفي الاظهار الكامل لهذا المجد الذي يعود له كابن. وهذا الطلب الأول يحوي كل الطلبات الأخرى. وما سيتبع ذلك لن يكون إلا توسعاً لهذا الطلب.

«لكي يمجدك ابنك». اذا طلب يسوع الى أبيه أن يمجّده فذلك ليس عن كبرياء، ولا سعياً وراء ذاته. انه لا يطلب المجد لنفسه، انه لم يطلب قط إلّا مجد أبيه (٧ / ١٨، ٨ / ٥٠). ولكن مجد الآب لا ينفصل عن مجد الابن. انهما في الواقع واحد (٥ / ٢٣، ١١ / ٤، ١٢ / ٢٨، ١٣ / ٣١). فعندما يطلب يسوع أن يمجَّد، انه لا يطلب اذن إلّا مجد الآب (١٤ / ١٣، ١٥ / ٨).

«فيهب الحياة الأبدية للذين وهبتهم له، بما أوليته من سلطان على جميع البشر». وهنا أيضاً يظهر تجرّد يسوع. انه يطلب من الآب أن يمجّده، من أجل خلاص البشرية جمعاء. وهذا التمجيد هو شرط ضروري لهذا الخلاص. وفي الواقع قد تولى يسوع من الآب سلطاناً أن يهب الحياة الأبدية للبشر أجمع (٥ / ٢١ — ٢٦، ١١ / ٢٤، ١٤ / ٦ الخ)، ولكن ممارسة هذا السلطان، كاملاً، تقتضي تمجيد الابن، لأن ذلك يُظهر الآب في محبته للابن، وهذا الاعلان هو مصدر الحياة للبشر.

«والحياة الأبدية هي أن يعرفوك أنت الإله الحق وحدك، ويعرفوا الذي أرسلته: يسوع المسيح». انها ليست مجرد معرفة عقلية، وفكرية، وانما هي معرفة واقعية، شخصية وحيوية؛ انها اتحاد الروح، والقلب، والارادة، وانها أيضاً عطاء الذات، وفي ذات الوقت هي نور. بلوغ هذه المعرفة للاله الحقيقي والتقدّم اليومي المطّرد فيها، هو الحياة والسعادة الحقة، وتحقيق الانسان. والحال ان الانسان لا يبلغ هذه المعرفة إلّا بواسطة يسوع، الوسيط لأنه الابن. يسوع هو العقدة، هو الموقد الذي تشع منه كل العلاقات الالهية والانسانية، فلهذا يجب أن يُمجَّدَ. فحياة البشر في خطر. وبدونه نحن في ليل دامس، «بلا إله في العالم» (افسس ٢ / ١٢).

«مجدتك في الأرض، فأتممت العمل الذي وكلته إليَّ». في نهاية حياته الأرضية يسوع يلقي نظرة الى الوراء، فيرى انه كرّس كل حياته للعمل

الذي أوكله إليه الآب وانه لم يعش إلّا لهذا العمل، وقد جعل منه غذاءه اليومي (٤ / ٣٤). وقد أتمه بمحبة الابن وضميره.

«فمجدني الآن يا أبت». يسوع لا يطلب التمجيد مكافأة لعمل صالح، بقدر ما يطلبه تكليلاً لهذا العمل، ولاتمامه كاملاً. فمن هذه الناحية أيضاً تمجيد يسوع ضروري، لأن عمل الابن لم يكن إلّا لإظهار الآب للناس. وكيف يمكن أن يتم هذا العمل (اظهار الآب للناس) ما لم يمهره الآب بتمجيد الابن (١٢ / ٢٧ ...).

«بما كان من المجد لي عندك، قبل أن يكون العالم». ان المجد الذي يتوق إليه يسوع، ليس إلا العودة الى الآب، في المجد الذي كان يتمتع به قبل أن يكون العالم. انه يتوق الى الرجوع الى «حضن الآب» (١ / ١٨) حيث يشرق مجده وينير هذه البشرية — هذا الجسد (١ / ١٤) — التي اتخذها لكي يظهر لنا الآب.

### ٣. شرح القسم الثاني (١٧ / ٦ — ١٩)

يسوع يصلي من أجل فريق الرسل الصغير، الذي يصغي الى صلاته.

نميّز هنا مرحلتين:

آ) الآيات ٦ — ١١ (آ): يسوع يختصر ما عمل لتلاميذه خلال حياته الأرضية، وما يمثلون هم بالنسبة إليه:

«أظهرت اسمك للناس الذين وهبتهم لي من بين العالم». عَمَلُ يسوع تجاه تلاميذه يختَصر بهذه الكلمة: اظهر لهم اسم الآب.

والاسم في العقلية السامية، هو تعبير عن الشخصية بكل ما تحمل من ميزة وديناميةِ خاصة. ويسوع أظهر لتلاميذه الاسم الذي كانوا يجهلونه: (الله) آب. من المؤكد ان الله كان يُعرَف أباً للشعب القديم في العهد العتيق، وان الصلاة اليهودية كانت تدعوه أبا، ولكن ذلك لم يكن إلّا مجازاً. فجاء يسوع وأظهر الله أباً بمعنى لا يقبل الشك، لأن له ابناً، ويسوع هو هذا الابن الذي اتخذ وجهاً وجسداً حيث ينعكس حبّ أبيه، كما على مرآة.

ويسوع قد خص بهذا الكشف هذا الفريق الصغير المتجمع حوله، والذي أخرجه الآب من العالم، ووهبه للابن: «كانوا لك فوهبتهم لي». وقد تسلمهم يسوع من يد الآب، كما يتسلّم منه كل شيء (١٠ / ٢٩، ١٧ / ٢)، وهو يحبهم حباً عميقاً كحب الابن للآب.

«وقد حفظوا كلامك». فمن خلال تعليم يسوع، وأعماله، وحياته، عرف التلاميذ كلام الله، وقبلوه. وقد قبلوه وحفظوه. كما كانوا قبلاً يحفظون كلام الشريعة (مزمور ١١٨ / ٢ ...).

«وعرفوا الآن ان جميع ما وهبته لي هو منك». لقد تذوقوا طعم كلام يسوع الالهي. فعرفوا فيه كلام الحياة (٦ / ٦٣، ٦٨) ومثل رنة صوت البلور الصافي، عرفوا صوت رسول الله: «وعرفوا حقاً انّي من لدنك أتيت، وآمنوا بأنك أنت أرسلتني».

«وأنا أتمجّد بهم». ان الفرح يكبر قلب يسوع لرؤية هذه الجماعة الصغيرة تشهد، بحضورها وايمانها، لخصب الرسالة، وتحمل في ذاتها عربون مجده كمخلّص (٤ / ٤٢).

«فأنا أدعو لهم». يبدأ يسوع تشفّعاته من أجل تلاميذه. ولكنه قبل أن يسهب فيها، يوضح شيئاً: «ولا أدعو للعالم». اذا أخرجت هذه الكلمة من اطارها العام، فانها تفاجئ وتصدم، وخاصة اذا لم يؤخذ بعين الاعتبار معنى «العالم» في انجيل يوحنا. فهذه الكلمة تعني أحياناً الكون الذي خلقه الكلمة (١ / ١٠) وأحياناً تعني الجنس البشري، الذي أحبه الله لدرجة أنه جاد بابنه الوحيد (٣ / ١٦)، وأحياناً أخرى تعني مجموعة الكائنات التي تقف في وجه ملكوت الله، منضوية تحت لواء سيّد هذا العالم. فلفظة «عالم» هنا أُخِذَت بهذا المعنى الأخير؛ فيسوع لا يصلي لمثل هذا العالم. فانه لم يأت لهذا العالم إلّا لينتزع البشر من ربقة هذا السيد، ويرميه خارجاً (١٢ / ٣١)، وبموته يتأهب للانتصار على هذا العالم (١٦ / ٣٣).

ويسوع لا يستثني أحداً في تشفّعه، فالتصريحات بالشمولية كثيرة في الانجيل الرابع، وواضحة، ولا تقبل الشك: فالكلمة ينير كل انسان (١ / ٩)، ويسوع قد أعطي سلطاناً ليهب الحياة لكل البشر (١٧ / ٢)، وجسده، هو لحياة العالم (٦ / ٥١)، وعما قليل ستتسع صلاته لتشمل البشرية أجمع (١٧ / ٢٣).

واذا تركزت الآن شفاعة يسوع على جماعة التلاميذ، فذلك لأن مخطط الخلاص يمرّ عبر هذه الجماعة، وبها يبدأ عمل الله يتحقق.

ب) الآيات ١١ ب — ١٩. ان صلاة يسوع من أجل تلاميذه تتمحور حول هذين الطلبين: «احفظهم» (١١ ب — ١٦) «وقدّسهم» (١٧ — ١٩).

وهذه الصلاة تبدأ هكذا: «أنا لست باقيا في العالم»، ان يسوع يتكلم كأنه قد ترك العالم، ان الحماسة في صلاته ترفعه فوق هذا العالم، وتحمله الى ملاقاة الآب: «أنا ذاهب اليك»؛ انها صلاة الابن على عتبة المجد.

«أيّها الآب القدّوس» ان القداسة في الكتاب المقدس هي «الصفة المميزة» لجوهر الله. يسوع يدعو الآب قدوساً، لأنه، فيما يستعد لترك هذا العالم الدنيوي، يتأهب للدخول في عالم حبّه المُشرق.

غير ان يسوع في ساعة خروجه هذه، لا يفكر في نفسه؛ انه يفكر في أصحابه: «أما هم فانهم في العالم باقون». في ذهابه الى الآب، لا يرميهم خلف ظهره: انه يحملهم في صلاته، لأنه يعرف الهجمات التي سيتعرضون لها (١٥ / ١٨ — ١٦ / ٤)، ويعرف الاغراءات التي تنتظرهم (١ يو ٢ / ١٥ — ١٧) في العالم.

«احفظ باسمك الذين وهبتهم لي». يسوع يصلّي الى أبيه ليحفظ تلاميذه مجتمعين في محبته، وقد أظهر لهم محبة الآب، كما أظهر لهم اسمه كأب. وقد آمنوا بهذا الاسم. يصلي الى الآب ليحفظهم في هذا الايمان، فيقيهم من روح العالم، ومن سيد هذا العالم، لأنه كبرياء وجحود.

«ليكونوا واحداً كما نحن واحد». فالايمان الذي يربطهم بالآب، كأبنائه، هو لحمة وحدتهم في وجه العالم.

«اذ كنت معهم». يسوع يتذكّر أيامه بين تلاميذه، اذ كان كالراعي (١٠ / ١١ — ١٥). «حفظت باسمك الذين وهبتهم لي»، فحضور

المسيح وكلمته كانا يربطان التلاميذ بالآب، في الايمان والمحبة.

«فلم يهلك منهم أحد» (٦ / ٣٩، ١٠ / ٢٨). غير ان واحداً قد شذّ: «ابن الهلاك، ليتم الكتاب». لقد توقف يسوع برهة على ذلك الذي لقّبه بهذا «الاسم الرهيب»: يهوذا الذي أغلق قلبه على اظهار الآب، ورفض محبة الابن وغرق في الليل (١٣ / ٢، ٢٧، ٣٠).

«أما الآن فاني ذاهب إليك، وأقول هذا الكلام وأنا في العالم ليكون بهم ما بي من الفرح التام». بعد هذا التلميح المأساوي الى الخائن، رجع يسوع الى فكرة ذهابه القريب. اذا كان يسوع يصلّي أمام تلاميذه بصوت مرتفع، وهو على عتبة العالم الآخر، فلكي يملأ قلوبهم من فرحه: فرح الابن الصاعد نحو الآب، وبعد أن يتركهم يبقى لهم هذا الفرح، ولا يسلبهم إيّاه أحد (١٦ / ٢٢).

والفرح بأن الآب يحبهم مبنيّ على كلام الابن. وسيحملون هذا الكلام الى العالم، ولكن العالم لن يقبله، لأنه يأتي من خارج العالم. وهكذا سيكون الخلاف محتماً بين أبناء الله والعالم. وعشية حكم العالم على يسوع، ينظر المسيح الى هذا الخلاف كأنه حقيقة قائمة: «فأبغضهم العالم، لأنهم ليسوا من العالم، كما اني لست من العالم». فالتلاميذ سيعانون الشدة (١٦ / ٣٣).

لا يرفض يسوع مجابهتهم مع العالم، ولا يخاف أن يعرِّضهم لهذا العالم: «لا أسألك أن تخرجهم من العالم»؛ لا يطلب من الآب إلّا أن يحفظهم من عدوى العالم، ولذلك يطلب حفظهم من الشرير.

ليس حفظاً خارجياً، سلبياً، وانما من الداخل، بقوة الكلام الذي بلّغهم إياه. فان كلام الابن الذي كشف الآب ومحبته، هو يعضدهم ويخلق حولهم هالة القداسة التي تحيط بالمسيح: «انهم ليسوا من العالم، كما اني لست من العالم». مسلحين بكلام المسيح، لا يقهرون. أكثر من ذلك، انهم ينشرون العدوى.

«قدسهم في الحق». ان الفعل «قَدَّسَ» يعني حرفياً: «أَفرَدَ»، و«كَرَّسَ لله». ان يسوع يطلب لتلاميذه هذه النعمة الجوهرية: التقديس. انه يريدهم لله بكليتهم، مكرّسين لعمله في الحق، أي في الأمانة للكلام الذي بلّغهم إياه، وهذا الكلام هو حق: «ان كلامك حق». فالكذب هو خاتم سيد هذا العالم إذ انه كذاب، وأبو الكذب هو (٨ / ٤٤). والحق هو خاتم الله. ويسوع يطلب أن تكون حياة تلاميذه المكرّسين لخدمة الله الحي، وأعمالهم وحتى كيانهم، ممهورة بهذا الخاتم الالهي.

وتقديس التلاميذ لا يهدف الى وضعهم في مأمن من تقلبات العالم وحمايتهم في منطقة هادئة: «كما أرسلتني الى العالم، كذلك أنا أرسلتهم الى العالم». فالتلاميذ يكملون رسالة المسيح الذي يريد أن يتحملوا تبعاتها من بعده، متحدين به، اذ انهم سيذهبون باسمه الى العالم. وحاشا لهم أن يهربوا منه: انهم سيتجسدون فيه (١ / ١٤) وينقلون إليه كلام الحق، ويهتفون عالياً رسالة الحب الالهي (٧ / ٣٧ ...).

ان يسوع يربط تقديس تلاميذه للرسالة بتقديس نفسه هو: «وأقدس نفسي من أجلهم، ليكونوا هم أيضاً مقدسين في الحق»، ويسوع هو منذ

الأزل المكرَّس، بدون تحفّظ، لخدمة الآب. وهو يتهيّأ لاتمام تقدمة ذاته كاملة بموته. وتقديس التلاميذ ينبع من تقديس الابن في التضحية بذاته حتى النهاية. وفي تقديس ابن الله، يجد التلاميذ القوة لكي يحملوا حتى النهاية نتائج تقديسهم.

**٤. شرح القسم الثالث** (١٧ / ٢٠ — ٢٦)

أفق الصلاة يتسع هنا ليشمل الكنيسة العتيدة.

الآيات ٢٠ — ٢٣. «لا أدعو لهم وحدهم. بل أدعو أيضاً للذين سيسمعون كلامهم فيؤمنون بي». كأن يسوع يرى أمام عينيه الجماهير الغفيرة التي تأتي إليه بفضل تعليم تلاميذه. فيصلي الى مسيحيّي العصور المقبلة، يصلي من أجلنا كلنا.

«ليكونوا بأجمعهم واحداً». يسوع لم يطلب غير ذلك لتلاميذه، وقد أشار الى طبيعة هذه الوحدة ومبدإها: «كما أنت فيّ أيها الآب، وأنا فيك، فليكونوا فينا واحداً، ليؤمن العالم بأنك أنت الذي أرسلني». فهذه الوحدة الذي يفوق مصدرُها ادراكَ البشر وأفكارهم — لأنها تتجذّر في سر الحياة الالهية — تصبح علامة للعالم؛ وبما ان يسوع هو نبعها التاريخي فانها تشهد أمام العالم بحقيقة رسالة يسوع، وتبيّن انه من الآب أتى حاملاً رسالة وحقيقة ليسا من هذا العالم (٣ / ٣ — ٨). ومن خلال طلب الوحدة لتلاميذه، يسوع يقصد وحدة البشرية التي يريد أن يظهر لها سر الله بواسطة وحدة تلاميذه.

«المجد الذي أوليتني، أوليتهم إياه ليكونوا واحداً، كما نحن واحد». يسوع يشرح كيف تتم الوحدة. سيكون مبدأها مجد الابن الذي أعطي للتلاميذ؛ فاشتراكهم بهذا المجد يوحّدهم لأنهم كلهم به أبناء، ويتمتعون بالحب الواحد، حب الآب: «أنا فيهم، وأنت فيّ».

ويظلّ الهدف ذاته: وحدة التلاميذ شهادة للآب والابن: «فيعرف العالم انك أنت الذي أرسلني، وأنك أحببتهم، كما أحببتني». ان النص يأتي في المخطوط بصيغتين: «واني أحببتهم»، أو «وانك أحببتهم»؛ فيبدو من حركة النص ان المفروض هنا استعمال «انك». وفي الواقع ان الغاية من توسل يسوع، هي أن يعرف العالم ويكتشف من خلال وحدة التلاميذ، حب الآب للبشر: وهذا الحب ليس حبّاً عادياً، وانما هو حب الابن منعكساً عليهم.

ان نظر يسوع يمتد الى منتهى الدهور، وينفذ الى الأبدية. انه يقول الآن، لأبيه: «أريد»، وعلى حدّ معرفتنا انها المرة الوحيدة. انه يتكلم كالابن الذي جعل الآبُ كلَّ شيء في يديه (٣ / ٣٥؛ ٥ / ٢٢؛ ١٣ / ٣) والذي بيت الآب بيته (٨ / ٣٥..؛ ١٤ / ٢..).

«ان الذين وهبتهم لي، هم الذين أريد أن يكونوا معي حيث أكون». أمنية التلميذ أن يكون مع يسوع. ويسوع يطلب هذه النعمة لجميع أصفيائه، فيكونوا بقربه ويقاسموه. نعمة بدأوا يعيشونها هنا، في الايمان، وستكتمل في هذه الرؤية: فيعاينوا ما أوليتني من المجد، لأنك أحببتني قبل انشاء العالم». فمعاينة مجد يسوع، وجهاً لوجه، تكون الغاية المشرقة، التي يسير نحوها

المسيحيون ، يوماً بعد يوم ، مستندين الى صلاته (١ قور ١٣ / ١٢ ؛ ١ يو ٣ / ١ ...).

وهذا الطلب ينتهي بالابتهال : «يا أبت العادل». ان يسوع يخاطب الآب كأنه يخاطب من بتمجيده سيظهر جور أحكام العالم ضد ابنه ، وبخذلان العالم الجاحد سيعلن عدالته (١٦ / ٨ — ١١).

ويسوع يذكر هذا الجحود : «العالم لم يعرفك» ؛ انه لم يعرف الآب في الابن (١٥ / ٢١ ؛ ١٦ / ٣). ولكن النور يتصدّى لهذه الظلمة ، نور يسوع وتلاميذه : «أمّا أنا فقد عرفتك ، وعرف هؤلاء أنك أرسلتني».

وقبل أن ينهي يسوع صلاته ، يذكّرُ مرة أخرى بما كانت رسالته هنا على الأرض : «أظهرت لهم اسمك». وهذا الاظهار لا ينتهي برحيله . انه سيتابَعُ في جماعة الرسل ، والهدف منه ادخالهم في الحياة ؛ فالآب لا يظهر ذاته إلّا في العطاء وبقصد العطاء . وأمنية يسوع هي اتحاد البشر بحبه . وهذا الاتحاد لا يثمر إلّا بحضور الابن فيهم . وهذا هو معنى الكلمة الأخيرة «وأنا أكون فيهم» ، وبهذه الكلمة البسيطة ينهي صلاته ، وفي الواقع ان ملء النعمة والحق (١ / ١٤ — ١٦) هو في وجود ابن الله فينا .

٥. لنسترجع المراحل الرئيسة لهذه الصلاة .

ان يسوع يطلب الى الآب أن يمجّده بصفته ابن الله ، ومخلّص البشر :

بصفته ابناً لله ، تمجيداً للآب ؛

وبصفته مخلصاً للبشر ، اكمالاً للعمل الذي بدأه الآب والابن لأجلنا .

قبل أن يترك يسوع هذا العالم يوكل بتلاميذه الى الآب .

يطلب إليه أن يحفظهم في الأمانة لحبه الذي كشفه لهم ، حين كشف لهم اسمه ؛ وأن يمهرهم الآب بخاتمه !

وأن يقدّسهم للرسالة التي ستكمّل رسالة يسوع بعد أن يغادر هذه الأرض !

ويصلي يسوع من أجل الذين ، بفضل كلامهم ، سيؤمنون به هو ؛

وليكونوا واحداً ولتكن وحدتهم ، التي هي مشاركة في وحدة الآب والابن ، علامة للعالم بأنه هو قد أتى من الله فعلاً ؛ ولتكن أيضاً اظهاراً لمحبة الآب .

وطلب أخيراً تكليلاً نهائياً لعمله : أن يكون تلاميذه معه الى الأبد ليعاينوا مجده .

وأنهى بوعد : أن يتابع اظهار الآب ، حتى بعد موته .

وبفضل حضوره في أصفيائه ، ينعكس حبّ الآب للابن على عائلة أبناء الله المتحدين بواسطته في وحدة هذا الحب . فلهذا العمل يستعدّ يسوع لتقديم حياته (١١ / ٥٢). ان هذه الصلاة الطويلة ، هي ، في الحقيقة ، صلاة التقدمة لتضحية يسوع من أجلنا . انها تعبر عن أهدافها ودوافعها العميقة ، ويجمل بكل صلاة مسيحية أن تستمدّ منها .

## الفصل الثالث عشر

# الآلام (١) (يو ١٨ / ١ — ١٩ و ١٦ آ)

بإمكاننا أن نقرأ رواية الآلام في انجيل يوحنا، باستعدادات مختلفة: إمّا بفضولية المؤرخ القلق على سير الأحداث التاريخي وعلى قيمة المصادر، فنقارن انجيل يوحنا بالأناجيل الازائية؛ وإمّا بنظرة العالم النفسي، الذي يرقب تصرفات الأشخاص الأساسيين في المأساة؛ وإمّا أخيراً بعين الأخلاقي، لاستنتاج أمثولة منها. كما نستطيع أن نقرأ أيضاً، من خلال تركيب الرواية، واختيار فصولها، وبَيْن أسطرها؛ وحتى في صمتها نقرأ قصد الانجيلي، وتأويلاته الشخصية للحدث، والغاية الايمانية التي يريد أن يبلّغنا إياها. والأسلوب الذي سنتبعه هنا يطلب جهداً، لِسَبر أغوار النص، نتوقف عند تعابير الانجيلي، نصغي إليه، نتتلمذ له، ونحاول أن نفهم فكرته، دون أن نعطيه فكرتنا. وهكذا نضمن النجاح مئة بالمئة. اذ لا شيء يساعد على فهم آلام الرب فهماً عميقاً مثل شهادة التلميذ الذي رافقه وحده «حتى النهاية» (١٣ / ١)، فشهادته لا تقتصر على الأحداث الخارجية: انها تتعداها لتنفذ الى السر الذي تترجمه. وبوحي من الروح القدس كتب يوحنا لكي ينير ايماننا (١٩ / ٣٥). وبفضله هو سنحاول أن نفهم سرّ ديانتنا الأساسي فهماً أعمق.

ستقسم القراءة الى قسمين:

القسم الأول يشمل: القاء القبض على يسوع ومحاكمته والحكم عليه بالموت (١٨ / ١ — ١٩ و ١٦ آ).

القسم الثاني سيشمل: الجلجلة وموت يسوع، وطعنه بالرمح، ودفنه (١٩ / ١٦ ب — ٤٢).

واحدة من الأفكار الكثيرة تبرز هنا في قصة الآلام التي كتبها القديس يوحنا: حرية المسيح وجلاله في آلامه وموته. ان المفسّر الانكليزي واستكوت يعنونها: «الانتصار من خلال الموت». فيسوع يسير الى الموت برضاه (١٠ / ١٧ ...؛ ١٤ / ٣٠)، انه ليس ألعوبة الأحداث، بل يسيطر عليها. والموت بالنسبة إليه ليس انحداراً الى

الأعماق، انما هو «ارتفاعه» (٣ / ١٤؛ ١٢ / ٣٢ — ٣٤؛ راجع اشعيا ٥٢ / ١٣؛ ٥٣ / ١١ ...). وتمجيده (١٢ / ٢٣؛ ١٧ / ١) وصعوده الى الآب «حيث كان قبلاً» (٦ / ٦٢) و«ساعته»، وقمة حياته، واتمام العمل الذي «أوكله» إليه الآب (١٧ / ٤). انه الدلالة العظمى لحبه (١٣ / ١؛ ١٥ / ١٣). فالمسيح يظهر بهذا الموت مَلِكاً، ويوحنا يرى أن تصميماً إلهياً يتحقق في آلام المسيح وينيرها بنور عُلوي.

## ١. في بستان الزيتون (١٨ / ١ — ١١)

آ) المجيء الى البستان (الآيات ١ — ٣).

بعد أن أنهى يسوع صلاته، ترك غرفة العشاء السري «وعَبَر وادي قدرون مع تلاميذه، ودخل هو وتلاميذه بستاناً هناك»[١]. لم يذكر يوحنا اسم البستان المدعو جتسمانية في متى ٢٦ / ٣٦، وفي مرقس ١٤ / ٣٢، ولم يذكر حادث النزاع المعروف، ولكنه يلفت النظر الى ان يسوع قد ذهب الى مكان يعرفه يهوذا. فدور البستان هو الالتقاء بين يسوع ويهوذا. ويوحنا يشير الى أن يسوع وتلاميذه كانوا قد اجتمعوا في هذا المكان مرات كثيرة.

«فجاء يهوذا بالسرية والحرس الذين بعثهم الأحبار والفريسيون»؛ و«كان يهوذا الذي أسلمه واقفاً معهم». فخيانة يهوذا الشنيعة تلاحق يوحنا (٦ / ٧٠ ...؛ ١٢ / ٤ — ٦؛ ١٣ / ٢، ١١، ١٨، ٢١، ٣٠).

ب) استسلام يسوع (الآيات ٤ — ١١).

كل شيء في هذا المشهد يبرز حرية المسيح، وجلاله الملوكي، وهو في طريقه الى الآلام (يواكبُه جنود وحرس، ومصابيح، ومشاعل)، كأنه ملك.

«وتقدم يسوع وهو يعلم جميع ما سيحدث معه». ان يسوع على علم واستعداد. فالحدث لم يفاجئه، وقد سار نحوه بوضوح طوال حياته الأرضية (٣ / ١٤؛ ١٢ / ٣٥؛ ١٣ / ١، ٣، ١٩). والآن، بما ان الحدث قد حضر، «تقدم يسوع» لملاقاة الحرس الذين سيوقفونه (١٤ / ٣٠).

ان يوحنا يروي المشهد كتحلٍّ الهي خاطف، وصاعق، ويسوع هو الذي يبدأ الحوار: «من تطلبون»؟ فأجابه الجنود: «يسوع الناصري». «أنا هو». فلما قال لهم: أنا هو، رجعوا القهقرى ووقعوا الى الأرض، مصعوقين مرعوبين. ان الجنود، بدون علم منهم، قد أدوا هكذا الاحترام للجلالة الالهية، التي تشيع من هذه الكلمة[٢].

(١) كان وادي قدرون يفصل بين أورشليم وجبل الزيتون. ورد ذكره غير مرة في أسفار العهد القديم، ويخبرنا سفر صموئيل الثاني (١٥ / ٢٣) ان داود، جد المسيح، لما هرب من ابنه ابشالوم، خرج من المدينة المقدسة عن طريق هذا الوادي. ويسوع بدوره سيخرج من المدينة ليعبر عتبة آلامه ماراً بوادي قدرون.

(٢) يرى عدد من المفسرين ان عبارة «أنا هو» تعني هنا أكثر من اشارة بسيطة، فهي مثقلة بمعنى لاهوتي على نحو مألوف عند يوحنا. فعبارة «أنا هو» هي اسم الله بالذات في العهد القديم، وقد اتخذ يسوع لنفسه هذا الاسم عدة مرات في الانجيل الرابع، مع اشارة خاصة الى آلامه في ٨ / ٢٨.

وتظهر حرية يسوع أيضاً من خلال حرصه على تلاميذه: «فاذا كنتم تطلبوني، فدعوا هؤلاء يذهبوا». ان يوحنا يربط هذه الكلمات بكلمة وردت ثلاث مرات في الانجيل: «الذين وهبتني إياهم، لم يهلك منهم أحد»؛ وهنا أيضاً يكتشف يوحنا من خلال الكلمات والتصرفات، معنى خفياً. فمن خلال موقف المعلم القلق على ضمانة تلاميذه، وغير العابئ بضمانته هو، يتأمل يوحنا بمخلّص العالم، المسؤول عن مصير البشر الأزلي قدّام الآب الذي وهبه إياهم: الراعي الصالح الذي يبذل حياته لانقاذ خرافه.

والمقطع عن «ملْخس» (الآيتان ١٠ — ١١) يحضّر رواية انكار بطرس، ولكنه يوفر، بالدرجة الأولى، مناسبة لكلمة يسوع التي توضح كل المشهد: «أغمد السيف، أفلا أشرب الكأس الذي جعلها لي الآب؟» وقد قارن البعض بين هذه الكلمة وبين جواب يسوع لتلاميذه، لما ألحّوا عليه لأن يأكل على بئر يعقوب: «اني لآكل طعاماً لا تعرفونه... طعامي أن أعمل بمشيئة الذي أرسلني، وان أتم عمله» (٤ / ٣٢ — ٣٤). فكما كان له طعام يأكله وقتئذ، كذلك له كأس يشربها الآن، فالاثنان يمثلان الرسالة التي أوكلها إليه الآب. فالكأس هي كأس خلاصنا، ويسوع يرفض أن تبعد عنه. انه الابن المتعطش لاتمام ارادة الآب. وبطرس الذي حاول أن يمنعه من أن يغسل أرجل التلاميذ، يحاول الآن أن يبعد عنه هذه الكأس. لقد ضلّ مرة ثانية، ولكن يسوع قد رده الى الطريق السويّ: يسوع سيشرب الكأس التي قدمها له الآب من أجلنا، والتي يتوق إليها محبة لنا.

«فقبضت السريّة، والقائد، وحرس اليهود على يسوع وأوثقوه». كأن السخرية مقصودة في تعداد كل هؤلاء الرجال المسلحين لالقاء القبض على يسوع. فاستسلم يسوع فعلاً، واذا كان قد أُوثق، فطاعة للآب، وحبّاً له.

## ٢. المثول أمام حنّان وانكار بطرس (١٨ / ١٢ — ٢٧)

يكاد يوحنا، في روايته للآلام، لا يذكر محاكمة اليهود ليسوع، فهو لا يرويها إلا من خلال الآية ٢٤: «فأرسله حنان بموثقاً الى قيافا عظيم الأحبار». ذلك بأن مثول يسوع أمام حنان غيرُ مثوله أمام مجلس الشيوخ الذي رواه الازائيون الثلاثة. ويبدو ان سبب امتناع يوحنا عن مثل هذه الرواية هو ان محاكمة اليهود ليسوع مستمرة في الانجيل الرابع تملأه. فمنذ استجواب المعمدان (١ / ١٩) الى القرار باعدام يسوع (١١ / ٤٩ — ٥٣)، تدور الأحداث وكأنها مجادلة قضائية طويلة بين المسيح ورؤساء اليهود. وقد قال أحد المفسرين الالمان، فندش، ان جلسة محاكمة يسوع قد تمّت، في انجيل يوحنا، قبل احداث الآلام.

أما غاية الحادثة عند حنان فتبدو واضحة، اذ يود القديس يوحنا أن يقارن بين ثبات يسوع في شهادته وعدم ثبات بطرس من خلال نكرانه المثلث. وبناء المقطع نفسه يشير الى ذلك، اذ ان استجواب يسوع هو في الوسط (١٩ — ٢٤) يحيط به مشهدا النكران (١٧ — ١٨ و ٢٥ — ٢٧). يؤكد يسوع انه تكلم جهراً «في وضح النهار»

و «لم يقل شيئاً بالخفية». لقد وجه رسالته الى «العالم»، واستطاع الجميع، في المحفل أو في الهيكل، أن يسمعوه (راجع اشعيا ٤٥ / ١٨ ...، ٤٨ / ١٦). وفي الوقت نفسه ينكره بطرس... كما ان بعض المفسرين قارن بين ما قاله بطرس في انكاره (اذ سألوه: ألست تلميذه؟ فأجاب: لست هو)، وما أكده يسوع عن نفسه: أنا هو. من جهة، ثبات المسيح، ومن جهة ثانية، عدم ثبات بطرس.

## ٣. يسوع عند بيلاطس، والحكم بالموت (١٨ / ٢٨ — ١٩ و ١٦ آ)

### آ) تركيب النص:

ان الفكرة الرئيسة هي فكرة المسيحانية الملوكية. فلفظة «ملك» و «مملكة» تتردد اثنتي عشرة مرة. ومحاكمة يسوع تظهر كأنها تنصيب ملوكي، قمته التكليل بالشوك، والانحناء أمام «ملك اليهود». فالآلام، في نظر يوحنا، هي التأمل في ملوكية المسيح المخلّص، و «تجلٍّ ملوكي» على حدّ تعبير ج. بلانك.

فكرة أخرى ترافق النص، هي براءة يسوع؛ وهي تتردد ثلاث مرات على لسان بيلاطس (١٨ / ٣٨؛ ١٩ / ٤ — ٦).

وهذا تصميم النص:

— الآية ٢٨: مقدمة. اقتياد يسوع وتسليمه الى بيلاطس.

— الآيات ٢٩ — ٣٢: خروج بيلاطس أمام اليهود الذين يتهمون يسوع بأنه مجرم.

— الآيات ٣٣ — ٣٨ آ: عودة بيلاطس الى دار الحكومة، وحواره مع يسوع الذي أعلن نفسه ملكاً حقاً.

— الآيات ٣٨ ب — ٤٠: خروج بيلاطس مرة ثانية. انه يعلن مرة أولى براءة يسوع، ويعرض المفاضلة بينه وبين برأبا. الجمهور يفضل العفو عن اللص برأبا.

— ١٩ / ١ — ٣: جلد يسوع، وتكليله بالشوك، وإلباسه رداءاً قرمزياً، وانحناء الجنود الرومانيين أمامه، كما أمام ملك.

— ١٩ / ٤ — ٧: بيلاطس يخرج مجدداً مع يسوع، ويعلن مرة ثانية براءته، ويقدمه الى الجماهير: «هوذا الرجل». الشعب يطلب صلبه باسم الشريعة.

— ١٩ / ٨ — ١١: يسوع يرجع الى دار الحكومة — حوار ثان مع يسوع. المواجهة بين السلطة الرومانية وملوكية يسوع.

— ١٩ / ١٢ — ١٥: بيلاطس يخرج ويعرض يسوع من جديد: «ها هوذا ملككم!» الجمهور يرفض ملوكية يسوع، ويلفظ الكلمة القاضية: «لا ملك علينا إلّا قيصر». الحكم على يسوع بالموت.

— ١٩ / ١٦ آ: تسليم يسوع ليصلب.

### ب) الشرح

«ذهب اليهود بيسوع من عند قيافا الى دار الحكومة». وكانت مركز الحاكم الروماني. وكان الحاكم عادة في قيصرية، ومن عادته أن يصعد الى

أورشليم بمناسبة الأعياد الكبيرة ، ليشرف بنفسه على حفظ الأمن أثناء هذه التجمعات الضخمة.

«وكان ذلك في الصباح» الباكر على الأرجح ، بسبب استعجال اليهود للاحتفال بعيد الفصح. ان يوحنا يفكر دون شك بساعة يسوع التي أتت ، وبيومه (٨ / ٥٦) الذي طلع.

«فلم يدخلوا دار الحاكم مخافة أن يتنجسوا. فلا يتمكنوا من أكل عشاء الفصح». واحدة من سخريات يوحنا. فاليهود يعدّون بيوت الوثنيين نجسة ، ولا يدخلونها لئلا يتنجسوا (أعمال ١٠ / ٢٨ ، ١١ / ٣). وتنجيس من هذا النوع يقصيهم عن الاحتفالات الفصحية ، فلكي يحافظوا على طهارتهم ، حتى يشتركوا فيما بعد في العيد ، بقي اليهود في الخارج ، ولكنهم لم يتورعوا عن تسليم البريء ، الذي سينقُضُ بموته ذبيحة هذا العيد وأكله.

يسوع هو اليهودي الوحيد الذي دخل دار الحاكم ، وستدور محاكمة يسوع على حلبتين : في دار الحاكم ، وفي خارجه ، وبين الاثنين ، بين يسوع واليهود ، سيقوم بيلاطس برحلات مكوكية ، مترجرجاً ، متردّداً ، مفتشاً عن تسوية.

**المشهد الأول :**

يدور الحوار الأول ، في الخارج ، بين اليهود وبيلاطس ، وموضوعه اتهام يسوع : «بماذا تتهمون هذا الرجل؟».

جواب اليهود يدلّ على أن الأمر قد قضي. لقد قرروا موت يسوع. الفرق بين لوقا ويوحنا ان الاتهام ، في انجيل يوحنا ، ظلّ غامضاً : «هذا الرجل مجرم». في رأي يوحنا ان اليهود يقرّون ، في هذا الغموض ، وفي غضبهم ، ببراءة يسوع.

فدعاهم بيلاطس عندئذ ليحاكموه «بمقتضى شريعتهم». وهكذا يكون الروماني قد وقع في الفخ ، بدون علم منه ، لأن احتكامه الى الشريعة اليهودية ، هو اقرار منه بمقتضيات هذه الشريعة واحترامها. ولكن اليهود أجابوه : «لا يحق لنا أن نقتل أحداً». الحاكم وحده كان له الحق في إصدار حكم الموت وتنفيذه ، ولذلك لجأ اليهود إليه ، ولا يستطيع بيلاطس أن يرفض دون أن يقع في مغالطات.

ويوحنا ينهي هذا اللقاء الأول بهذه الملاحظة : «حدث ذلك ليتم ما قال يسوع يشير الى الميتة التي يموتها». وقد أعلن يسوع أنه «سيُرفع» ، والرومان وحدهم اذن هم القادرون على تحقيق هذه النبوة بصلب يسوع. واليهود اذ أسلموه الى الرومان ، أدوا المجد لكلمة يسوع ، بدون علم منهم ، وحققوها.

**المشهد الثاني :**

«فعاد بيلاطس الى دار الحكومة ثم دعا يسوع». ودخل توّاً في الاستجواب ، فسأل يسوع : «أأنت ملك اليهود؟». ان هذا السؤال يَرد في الأناجيل الأربعة. غير أن موضوع الاتهام ، كما رأينا في انجيل يوحنا ، لا يذكر ادّعاء يسوع بالمسيحانية الملوكية. فرواية يوحنا مقتضبة. انها تفترض في الأساس نفس الاتهام الذي ورد في الأناجيل الأخرى (لو ٢٣ / ١٠).

في الأناجيل الازائية يسوع يجيب فوراً عن سؤال بيلاطس : «أنت قلت». أما في رواية يوحنا

فالحوار يسمح ليسوع بأن يشرح طبيعة ملكه: «ليست مملكتي من هذا العالم». فيسوع لا يُثبت أن ملكيته تشمل هذا العالم ولا ينفي. انها ليست من هذا العالم. ولم يفصح إلّا عن مصدرها، ولا عن سلطتها، ولا عن طابعها، ولا عن قدرتها. جذورها خارج هذا العالم، انها ليست من ههنا. ويسوع يعطي البرهان: «لو كانت مملكتي من هذا العالم، لدافع عني رجالي لكي لا أسلم الى اليهود». ان القارئ يفهم التلميح الى ما جرى في بستان الزيتون (١٨ / ١١). عندئذ قال بيلاطس ليسوع: «أفأنت مَلِك اذن؟». فالجواب: «قلتَ أنت، أنا ملك» يوازي «نعم» ويترك في الوقت ذاته قسطاً من المسؤولية، على المتحدث، وبعض الحرية في دقة معنى التأكيد.

في البداية، لم يُعطِ يسوع عن ملكه إلا تحديداً سلبياً. أما الآن فانه يكشف حقيقته: «ولدتُ وأتيتُ العالم لأشهد للحق، فمن كان من الحق يصغي الى صوتي». انه يشرح ملكه بالتشديد على الربط الأساسي بينه وبين الحق. انه يبرز الحق في كلامه، وفي أعماله، وفي ذاته؛ به يتجلى الله في الكمال والتمام. وهكذا يكون ملكاً بدون تقييد ولا حدود، اذ ان شيئاً يفلت من حكم الحق الالهي: لا سلطة ولا عظمة في العالم، لا قيام لها كلها، ولا قيمة، إلّا بارتباطها بهذا الحق الذي هو يسوع شخصياً (١٤ / ٦).

فأجاب بيلاطس بأسلوب غامض مراوغ: «ما هو الحقّ»؟ وقطع الحوار، وبعدما قال ذلك، خرج ثانية الى اليهود.

**المشهد الثالث:**

هذا اللقاء الأول أقنع بيلاطس ببراءة يسوع، فخرج الى اليهود يعلن هذه البراءة، ويحاول أن يخلص سجينه. ولكن هذه المحاولة ليست إلّا مساومة جبانة حمقاء. فأوقع بيلاطس نفسه مرة ثانية في الفخ. لما سألهم أن يختاروا بين يسوع وبرأبا، جعلهم حكماً في القضية، وسلم قضية المتهم الى أعدائه. وتحت سخرية هذه العبارة: «أتريدون أن أطلق ملك اليهود»، التي تثير نقمة الشعب، يخفي بيلاطس انهزامه.

فكانت ردة الفعل عنيفة: «لا تطلق هذا، بل برأبا». يوحنا يعلق على هذا الجواب بكلمة واحدة: «وكان برأبا لصاً». ان هذه العبارة مألوفة عند المؤرخ يوسيفوس، يقصد بها الغيارى مثيري الشغب والفتن في ذلك العصر. واعتُبِر يسوع واحداً منهم. فغلطة بيلاطس جعلت اليهود يحتفلون بعيد الفصح بالعفو عن مثير للشغب وبالحكم على يسوع الملك. هذا ما يُستشف من كلمة بيلاطس: «لقد جرت العادة عندكم أن أطلق لكم سجيناً في الفصح».

**المشهد الرابع:**

«عندئذ أمر بيلاطس بأن يؤخذ يسوع ويجلد». فبعد أن وقع في لعبته، أراد أن يرضي اليهود بشيء. فالجلد، بمقتضى الشرع الروماني، هو مقدمة للصلب. كما انه كان يمارس أيضاً كعقوبة لتلقين درس. فعمل منه بيلاطس مساومة.

ومشهد الهزء الذي تبع ذلك (١٩ / ٢ ...) يوفر ليوحنا كشف حقيقة عميقة. انه يرى مجد

الكلمة في يسوع الذي يسخر منه الجنود، ويرى إشراق عظمة ذاك الذي لم يأتِ الى العالم إلّا ليشهد للحق، وذلك في إذلاله الذي يكلله الحب والقداسة.

**المشهد الخامس:**

ثم عرض سجينه على الجمهور: «انظروا، سأخرجه إليكم لتعلموا اني لم أجِد سبباً لتجريمه». ولا يبدو ان هدف بيلاطس من تقديم يسوع مجلوداً، «وعليه اكليل الشوك والرداء الأرجواني» اثارة شفقة الجمهور عليه، وانما اظهار تفاهة ادعاء يسوع الملوكي، فيظهره في الهزء والعجز، لعله يخلصه: فمدَّعٍ بالمسيحانية، ضعيف حتى اثارة الشفقة، لا يشكل خطراً، وما من داعٍ للاستبسال عليه. وكلمة بيلاطس: «ها هوذا الرجل» تترجم هذه السخرية، ولكن بيلاطس، مثل قيافا من قبل (١١ / ٥١) يعني أكثر مما يقول: هذا الرجل، هذا الصعلوك الحقير الذي يقدمه للشعب، هو في الحقيقة ابن الانسان، المتجلي في مجده، وهو الديّان الأعلى للأحياء والأموات (٥ / ٢٧ ...).

أحبط اليهود مناورة بيلاطس: «فلما رآه الأحبار والحرس صاحوا: اصلبه! اصلبه!» فصمد بيلاطس. فلجأوا الى شريعتهم مما يضطر الحاكم الى أن يأخذها بعين الاعتبار: «ان لنا شريعة وهذه الشريعة تقضي عليه بالموت، لزعمه أنه ابن الله». أعلن اليهود هذه المرة مأخذهم الحقيقي على يسوع، وكشفوا للوثنيين جوهر القضية. فالقضية ليست سياسية: انها دينية.

**المشهد السادس:**

لما سمع بيلاطس اسم ابن الله، استيقظ فيه الانسان الخرافي (المتطيّر) الذي يعيش في كل وثني: «فاشتد خوفه». فرجع الى دار الحكومة يستجوب يسوع مرة ثانية: «من أين أنت؟» وليس «من أي بلد أنت»، ولكن «ما هو نسبك؟ من أنت؟». يسوع لم يجب بشيء؛ فجوابه واحد وقد أعطاه: «ليست مملكتي من هذا العالم» (١٨ / ٣٦). اغتاظ بيلاطس من هذا الصمت، فأعلن، بتعال، سلطانه على يسوع. اننا نعرف جواب يسوع: «لو لم تُعْطَ السلطان من عَلُ لما كان عليّ من سلطان». أراد البعض أن يرى في هذا الجواب مبدأ أساسياً لمصدر كل سلطة سياسية، غير انه يقصد، في الحقيقة، الموضوع الحاضر: ان يسوع يأتي من عَلُ، واذا كان لبيلاطس سلطان عليه، فذلك بتنازل من عَلُ؛ فدوره في هذه المأساة، ليس فقط سياسياً، وقانونياً، كما يتصوره هو، وانما هو ديني: ان بيلاطس، بدون علم منه، هو وسيلة في مخطط الهي يفوقه؛ وذلك لا يعفيه من خطيئته، لا هو، ولا اليهود الذين أسلموا يسوع: انهم كلهم يحملون «خطيئة أكبر».

**المشهد السابع:**

في هذا المشهد نبلغ النهاية، وكأنها ثمرة يانعة. ولكن بقي على اليهود أن يضربوا ضربة أخيرة، لكي يحصلوا على قرار. فلجأوا هذه المرة الى التهديد، وتركوا الحقل الديني، وجعلوا من مهابة يسوع الملوكية حقيقة سياسية تشكل خطراً على القيصر. فأصبح إطلاق سراح يسوع خيانة لقيصر، وأظهر

اليهود أنفسهم مدافعين عن سلطة الامبراطور ، ضد بيلاطس. «ان أخليت سبيله فلست من أصدقاء قيصر ، لأن من يدّعي الملك ، يعدّ خارجاً على قيصر».

لقد ضربوا ضربة محكمة. ولكن بيلاطس قد دبر مشهداً غريباً قبل أن ينهزم : «فلما سمع بيلاطس هذا الكلام ، أمر باخراج يسوع ، وجلس على كرسي القضاء» — كما يترجمون النص عادة — ولكن دروساً حديثة أبرزت ترجمة أوضح : «وأجلسه على كرسي القضاء». وبيلاطس قدمه الى الشعب قائلاً : «أأصلب ملككم؟» قدم يسوع الجالس أمام الشعب كقاض ، وهذا الاستهزاء باليهود ليس إلا انتقاماً فاشلاً لكبرياء بيلاطس ، ولا يخفي جبنه.

فكان جواب اليهود صياحاً يطالب بموت يسوع ، فحاول بيلاطس أن يظهر شيئاً من الشجاعة : «أأصلب ملككم»؟ عندئذ أتت الكلمة القاضية في نظر يوحنا ، والتي أظهرت جحود اليهود بيسوع : «لا ملك علينا إلّا قيصر!». لقد دفع أحبار اليهود ثمناً لموت يسوع استعبادهم للسلطة الوثنية التي يحتقرونها ويشنّعون بها.

أما بيلاطس ، فخلافاً لضميره ولكرامته كموظف كبير في الأمبراطورية ، قبل أن يُنتَزَعَ منه الحكم على انسان كان هو قد أعلن براءته ثلاث مرات : «فأسلمه إليهم ليصلب». وهكذا يكون اليهود قد خانوا أنفسهم ، اذ رفضوا أن يصغوا الى صوت الحق (١٨ / ٣٧).

وظهر يسوع أمامهم بكل عظمته ، كملك وقاض.

ويجمل بنا أن نفهم طبيعة هذا المُلك الذي أعلنه يسوع أثناء آلامه ، في الأناجيل الأربعة. فشهادة يوحنا ، من هذه الناحية ، قاطعة ، اذ ان هذا المُلك لا يحمل شيئاً من نفوذ هذا العالم وعنفه ، ولا يُخضع أحداً بالإكراه ، ولا ينتصر إلّا بالاحترام الحرّ ، الذي تقدمه له القلوب. وهو ليس إلّا السلطة التي يمارسها على القلوب ، في الحق المتجسّد ، والمتمثل بيسوع ابن الله. ولهذا فأشدّ ما تظهر قوة هذا المُلك في مواجهة يسوع الأعزل المقيّد لأكبر سلطة سياسية في عصره ، ممثل الامبراطورية الرومانية. وهذا ما وصل إليه يوحنا ببعد رؤيته وعمقها : لقد عرف كيف يكشف مجد المسيح الملك من وراء الذل والاهانات التي لحقت به في كل مراحل محاكمته.

الفصل الرابع عشر

# الآلام (٢) (يو ١٩ / ١٦ ب — ٤٢)

١. **حمل الصليب والصلب** (١٩ / ١٦ ب — ١٨).

انتهت الرواية الأولى بانهزام بيلاطس: «فأسلمه إليهم لِيُصلَب». ثم أكمل يوحنا: «فساروا بيسوع»، دون أن يُفصح عمّن سار به: أَهُم الجنود المكلفون بصلبه؟ أم اليهود الذين طلبوا موته؟ الاثنان معاً.

ويتبع ذلك حمل الصليب. وفي هذا الوصف المقتضَب، ظل يوحنا أميناً للفكرة الرئيسة في روايته: ان يسوع قد أسلم نفسه للموت عنا، برضاه (١٠ / ١٧؛ ١٤ / ٣٠). فحمل صليبه وخرج الى المكان الذي يدعى الجمجمة، ويقال له بالعبرية جلجثة. وكانت العادة تقضي بأن يمشي المحكوم عليه، في شوارع المدينة، بين تعيير الناس وسخريتهم، وهو حامل آلة تعذيبه، حتى مكان تنفيذ الحكم. وكلمات الانجيل تخفي تحتها هذا الاذلال. ولكن يوحنا يرفض أن يرى فيه غير العمل الكبير للابن، حاملاً على كتفيه **حتى النهاية** (١٣ / ١) كل تبعات الخلاص، محبة لنا، وطاعة لأبيه. وهذا معنى العبارة الحرفي «حمل صليبه بنفسه». إنّ يوحنا يغفل الكلام عن سمعان القيريني (متى ٢٧ / ٣٢، مر ١٥ / ٢١، لو ٧٣ / ٢٦)، وذلك لأنه يريد التشديد على ان يسوع يقدم حياته برضاه [١].

ويكتب يوحنا قائلاً: «وخرج يسوع» دون أن يزيد أي ايضاح. ولكن يبدو انه يقصد الخروج من دار الحكومة. والعادات اليهودية والرومانية تقضي بأن ينفَذ الحكم بالموت خارج أسوار المدينة (أعمال

(١) ولعله أراد أيضاً، على حدّ ما قاله بعض المفسرين، أن يدحض آراء الدوقيطيين الذين كانوا يدّعون ان يسوع، في ساعة آلامه الحاسمة، اختفى وحلّ مكانه آخر.

٧ / ٥٨). فالمقصود هنا اذن هو الخروج من أورشليم الى الجلجثة.

وعندما نعرف مكانة المدينة المقدسة في الانجيل الرابع، نفهم معنى هذه الملاحظة. فمنذ «صعوده» الأول الى أورشليم (٢ / ١٣) ظهر يسوع في الهيكل. وهنا واجه الجحود. وخروجه الآن من الهيكل، في عيد المظال، أظهر رفض اليهود لابن الانسان. وخروجه الآن من أورشليم، حاملاً على كتفيه صليبه، يكمل هذا الرفض. فيسوع يترك المدينة الجاحدة وهيكلها «ليذهب الى المكان الذي يُدعى الجمجمة»، كما هجرها مجد الله في زمن الجلاء (حز ١٠ / ١٨ ... ٢٢ ...). وهذا ما يذكرنا بالكلام الذي قاله يسوع على بئر يعقوب: «ستأتي ساعة، تعبدون فيها الآب لا في هذا الجبل ولا في أورشليم» (٤ / ٢١). فابن الله يسير نحو المكان الذي تتم فيه العبادة «بالروح والحق»، وعلى أبواب أورشليم المهجورة ستصبح الجلجثة مكان العبادة للبشريه.

ثم يروي يوحنا حادثة الصلب. وهنا أيضاً يتميز عن الازائيين. انه يذكر، مثلهم، وجود مصلوبَين اثنين على جبل الجلجلة. ولكنه وحده لا يذكر ان هذين المصلوبين كانا مجرمين، بل اكتفى بأن قال: «فصلبوه وصلبوا معه رجلين، كل منهما في جهة، ويسوع بينهما»، فأراد يوحنا أن يشير الى مكانة صلب المسيح الرئيسة: انه ينتصب بمجد ومهابة على قمة الجلجثة.

## ٢. المسيح على الصليب (١٩ / ١٩ — ٣٧)

أشار يوحنا الى خمس مراحل من الأحداث التي حصلت على جبل الجلجثة: الكتابة (١٩ / ١٩ — ٢٢)، واقتسام الثياب (٢٣ — ٢٤)، ويسوع وأمه (٢٥ — ٢٧)، وعطش المسيح وموته (٢٨ — ٣٠) وطعنه بالرمح (٣١ — ٣٧).

يجب أن نلاحظ أوّلاً رصانة يوحنا، انه لا يلجأ الى ما يثير عاطفة القارئ ومشاعره، بل يقصد انارة ايمانه. لذلك نراه يستشهد بالتوراة أربع مرات متتالية: «فتمّت الآية...» (١٩ / ٢٤ — ٣٦)، أو «ليتم الكتاب...» (١٩ / ٢٨)، أو «لتتم الآية» (١٩ / ٣٧). فرواية يوحنا هي تأمل في الكتاب المقدس، على أقدام الصليب، ويجب قراءتها بروح العبادة والايمان.

ومن ثم نلاحظ هدف هذه المراحل المشترك. ان رواية المحاكمة تلقي الضوء على شخصية يسوع، وعلى ملكه، بينما اللحظات الأخيرة من حياته تبرز عمله النبوي. فمن خلال أحداث الجلجلة، يبيّن يوحنا سرّ الكنيسة.

### آ) الكتابة (١٩ / ١٩ — ٢٢)

الأناجيل الأربعة تذكر الكتابة الموضوعة على أعلى صليب يسوع، كما تقضي العادة، فتعلَّق فوق رأس المحكوم عليه علة الحكم عليه، (متى ٢٧ / ٣٧، مر ١٥ / ٢٦، لو ٢٣ / ٣٨). ولكن واحداً منهم لا يعلق عليها اهتمام يوحنا: فهو الوحيد الذي يكرس لها أربع آيات.

والذي يلفت انتباهه، هو نص الكتابة: «يسوع الناصري ملك اليهود». فادعاء المسيح بالملكية، كان السبب الذي احتفظ به بيلاطس في النهاية ليبرر عمله أمام الامبراطور. ولكن العبارة،

كما صيغت ، كانت تحمل اهانة لليهود . لذلك احتجَّ عليها أحبار اليهود ، وحاولوا تصحيحها . ولكن بيلاطس لم يُصْغِ الى اعتراضهم : «ما كُتِبَ قد كُتِبَ» ، ولن يصحَّح . لقد قضي الأمر ، ولا رجوع عنه ، ويوحنا يرى في ذلك ترجمة للتصميم الالهي . فارادة بشرية لا تغير ما كتب بيلاطس ، ويسوع هو ملك اليهود المنتظر ، هو المسيح ، المخلص المصلوب .

الكتابة ، في نظر يوحنا ، تعبِّر عن حقيقة الحدث العميقة . «انها تعلن شرف ، وجلالة ، ومجد ذاك الذي حُكم عليه بالموت ، وعُلِّق على الصليب وقد بقي ، رغم ذلك ، ملك اليهود ، ملك الملوك . فشعارات المسيح ، المرتفعة على الصليب ، تطغي ، اذا صحّ التعبير ، على الصليب نفسه .

ويشير يوحنا الى شمولية هذا الاعلان : «وكانت الكتابة بالعبرية ، (أو الآرامية) ، واللاتينية ، واليونانية» : لغة البلاد والحياة الدينية ، لغة السلطة والقانون ، لغة التبادل والثقافة . ويشدّد يوحنا على أن : «كثيراً من اليهود قد قرأ ما كتب في هذه الرقعة» . والكتابة توجَّه إليهم كنداء سامٍ ، وكملامة صامتة .

**ب) اقتسام الثياب (١٩ / ٢٣ — ٢٤)**

الأناجيل الأربعة تذكر هذا الاذلال . ولكن يوحنا يوليه أهمية لا نجدها عند الازائيين . وغايته ليست ابراز الاذلال ، بقدر ما هي اكتشاف سرّ التصميم الالهي ، المقول عنه في كتابات الأنبياء . ان يوحنا يذكر المزمور ٢١ / ١٩ . ويلفت نظره التمييز المسبق الذي يميزه المزمور بين اقتسام الثياب ، والاقتراع على القميص . وفي الحقيقة ان النص العبري لا يميِّز بين الثوب والقميص ، ولكن قرار الجنود ، بعدم شق القميص ، يعني ليوحنا أنّ لذلك مدلولاً خاصاً ، في نية الله ، ويجب أن يتجلّى على الجلجلة . لقد أراد الله أن يظل قميص يسوع كاملاً ، وقد تنبأ عنه المزمور : «والقميص كان غير مخيط ، منسوجاً كله من أعلاه الى أسفله» . فيوحنا يرى في ذلك سراً إلهياً مخبّأً .

ويقول المؤرخ يوسيفوس أن قميص كبير الكهنة عند اليهود كان غير مخيط . ويقول بعض المفسرين انه من الممكن أن يكون يوحنا قد رأى في عدم اقتسام قميص يسوع علامة بأنه سيموت على الصليب ككبير كهنة العهد الجديد . ولكن هذا التفسير يصطدم بعقبة ، وهي ان الكلام عن يسوع كبيراً للكهنة لم يَرِد في الانجيل الرابع . ويوحنا ، مِثلَ لوقا ، أغفل الاشارة الى رئيس الكهنة الذي مزّق ثوبه (متى ٢٦ / ٦٤ ... ، مر ١٤ / ٦٢) ، ممّا كان بالامكان معارضته مع ثوب المسيح الذي لم يمزَّق .

ان الكلام عن القميص الذي لم يمزّق يُفهَم في ضوء موضوعين هامين في انجيل القديس يوحنا : أولاً التمزق الذي حصل داخل الشعب اليهودي بسبب يسوع (٩ / ١٦ ، ١٠ / ١٩) ؛ والثاني الوحدة التي حصلت بشخصه (١٠ / ١٦ ، ١١ / ٥٢ ، ١٧ / ٢١ ...) . مات يسوع فقيراً ، عرياناً متجرّداً من كل شيء ، وثيابه توزعت وقسّمت الى أربعة أقسام . ولكن الحفاظ على وحدة القميص غير المخيط يعني ان الوحدة لن تُقسَّم . فكل الثقل

في الجملة يتركز على العبارة «لا ينبغي أن نشقه» : ان عمل يسوع سيظل كاملاً بعد موته ، وهذا العمل هو «جمع شمل أبناء الله «بموته» (١١ / ٥٢). ويُعْقَل هذا الرمز ، خاصة أنه في العهد العتيق سَبَقَ لأحد الأنبياء أن مزّق ثوباً الى اثنتي عشرة قطعة ليرمز الى انقسام الشعب المختار (٣ ملو ١١ / ٢٩ — ٣٩). فقميص المسيح الذي لم يمزّق ، في حين ان كل شيء كان يبدو مشتتاً ، يرمز الى ان وحدة أبناء الله ثابتة به هو ، الكرمة الحق (١٥ / ١ ...).

### ج) يسوع وأمه ، والتلميذ الذي كان يسوع يحبه (١٩ / ٢٥ — ٢٧)

يوحنا هو الوحيد الذي يذكر وجود التلميذ ، الذي يحبه يسوع ، بالقرب من مريم عند أقدام الصليب . ووحده ينقل إلينا كلمة المسيح : «أيتها المرأة ، هذا هو ابنك ؛ ... هذه هي أمك» .

بامكاننا أن لا نرى في هذه الكلمة إلا عاطفة بر بنوي من قبل يسوع تجاه أمه التي سيتركها وحيدة : انه يوكلها الى تلميذه الحبيب ، ومنذئذ سيأخذها هذا التلميذ في عهدته . غير ان التقوى المسيحية رأت أكثر من ذلك في هذه البادرة . لقد رأت فيها أمومة مريم الروحية ، تجاه كل المؤمنين ، متمثلين بالتلميذ الحبيب . وعدد الشرّاح الذين يقولون هذا القول ، في ازدياد .

والأسباب التي تبرّر هذا القول متعددة . أوّلاً : الاطار العام . ففي هذا الوقت المميَّز ، ان أقل حادثة ، وأقل كلمة ، وأقل اشارة ، تأخذ معنى كبيراً بالنسبة الى يوحنا ، معنى يتعلق بعمل الخلاص . وقد رأينا ذلك في الحادثتين السابقتين (آ و ب) . أما بالنسبة الى الحادثة الحاضرة ، فكل شيء يبدأ وينجلي بهذه الكلمات : «وكان يسوع يعلم أن كل شيء قد تم ...» ؛ كأنَّ كلمة يسوع الى التلميذ كانت تمثّل اكتمال عمله على الأرض وقمته ، كأنها تمثل قمة حبه للبشر ، وانه ، بعد ذلك ، يستطيع أن يموت ويرجع الى أبيه ، مرتاحاً الى اكتمال عمله .

والألقاب التي أعطيت لمريم هي ذات مدلول . فيوحنا لم يَدْعُ مريم باسمها : انه يسميها أم يسوع . ويسوع يدعوها «امرأة» . كما في قانا الجليل ، كذلك هنا ، لا يريد يسوع أن يبرز إلّا دور المرأة في تصميم الله . أمّا لقب أم ، فيطلقه على مريم في علاقتها مع يوحنا : «هذه أمك» . فأُم يسوع تظهر كالمرأة التي أقامها تصميم الله أُمّاً للتلميذ[1] .

وأخيراً ، ان اللقب الذي أعطي للتلميذ الذي

(١) ان تركيب الرواية نفسها يشير الى ان المراد به هنا هو الاعلان عن دعوة . فالتركيب هو نفس التركيب الوارد في مطلع الانجيل في حادثة حمل الله . نقرأ هناك ان يوحنا ، لما **رأى** يسوع آتياً إليه ، قال : «**هوذا** حمل الله» (١ : ٢٩ ، و ١ : ٤٧) . وهنا أيضاً ، لما **رأى** يسوع أمه والى جانبها التلميذ الذي كان يحبه ، قال : «**هوذا** ابنك ، ... هي ذي أُمُّكَ» . في كلا الحالتين ، كلمة **هوذا** تدل على أبعد من اشارة بسيطة ؛ انها إظهار لفكرة الله حول شخص معين ، وهنا تظهر دعوة مريم : انها أم يسوع ، وستصبح أم تلميذ أيضاً .

يحبه يسوع ، يتعدّى ليبلغ تلامذة يسوع الذين يحبهم جميعاً : **كل أصحابه** (١٣ / ١ ، ٣٤ ؛ ١٥ / ٩ ، ١٢) ، ومن خلال يوحنا ، قد أوكل كل التلاميذ الى مريم ، فأصبحت أمهم جميعاً .

رَحَل يسوع ، وبدا في الظاهر ان الموت قد فصله عن أمه . ولكن عندما أكمل ، بتضحيته ، العمل الذي أوكله إليه الآب ، جعل من أمه أمّاً لكل تلاميذه . وبواسطة موته كرّسها أمّاً لكل المخلّصين . وبهذا اللقب المزدوج ، جعلها المرأة وحواء الجديدة وابنة صهيون الحقيقية ، التي يرتسم سرها في التوراة (تكو ٣ / ٢٠ ، اش ٦٦ / ٨ ؛ راجع رؤيا ١٢ / ١٦) . والشيء الذي لم يحصل في قانا إلّا رمزاً ، الآن ، «قد أتت الساعة» ، تجلّى حقيقة .

ومن **تلك** الساعة ، استقبل[1] التلميذ في بيته ، **تلك** التي أصبحت أمه . وفتح منزله لمريم . ومن خلالها يستقبل يسوع الذي أعطاه إياها قبل موته . وبواسطتها يظل يتمتع بحضور المسيح وحبه ، حتى بعد موته .

والكنيسة ، التي خلقها بهذه الكلمة ، كانت متمثلة على الجلجلة بهذا الفريق الصغير الواقف عند أقدام الصليب . ويوحنا يتأمل بهذه الكنيسة الخارجة من تضحية المسيح ، والمؤلفة الى الأبد من مريم — الأم — ومن التلاميذ الذين يحبهم يسوع .

### د) العطش وموت يسوع (١٩ / ٢٨ — ٣٠)

هذا المشهد الجديد هو اكتمال **عمل** المسيح على الأرض . فالعبارة : «وكان يسوع يعلم ان كل شيء قد تم» تتردد ، كما في بداية العشاء الأخير ، وكما في القاء القبض عليه (١٣ / ١ ؛ ١٨ / ٤) : انه يعلم ان العمل ، الذي وكله إليه الآب ، هو في تمامه (١٧ / ٤) .

عندئذ قال : «أنا عطشان» . فأمانةً من يوحنا لتصميمه ، لا يتوقف على وصف هذا العطش القاتل . انه يريد أن يرى فيه إلا اكتمال النبوءات . فالمزمور ٦٨ / ٢٢ (راجع ٢١ / ١٦) يتنبأ عن جواب الانسان أمام هذا العطش . ان الانسان لا يملك إلّا خلّاً يقدمه للمسيح العطشان : «فوضعوا اسفنجة مبتلة خلّاً على قضيب من الزوفى ، وأدْنَوها من فيه» .

فلمّا ذاق يسوع الخلّ قال : «تم كل شيء» . **فكل شيء** ، هنا تعني الكتب ، حيث دونت ارادة أبيه : خلاص العالم (٣ / ٣٤ — ٤٢) وحب الراعي الصالح لخاصته وقد بلغ في ذلك الى أقصى الحدود (١٣ / ١) .

وفي شعور الابن الذي يمضي الى الآب (١٣ / ١) ، وبطاعة كلها حب ، حنى يسوع رأسه ولفظ الروح . يوحنا لم يذكر صرخة يسوع : «الهي ، الهي ، لماذا خذلتني !» (متى ٢٧ / ٤٦ ، مر ١٥ / ٣٤) . انه لم يذكر إلا جلال هذا الموت المشرق .

واللفظة اليونانية التي استعملها يوحنا ، هي فريدة . انها تعني حرفياً : أسلم الروح . لم نعثر عليها قبل يوحنا ، للتعبير عن نَفَس الميت الأخير . بإمكاننا أن نقول ان يوحنا قد انتقاها انتقاء . وفي النَفَس

(١) «استقبل» ولا «أخذ» كما يترجم خطأ .

الأخير الذي لفظه يسوع على الفريق الذي يمثل الكنيسة عند أقدام الصليب ، يرى يوحنا مقدمة لعطاء الروح القدس (١ / ٣٣ ، ٣ / ٣٤ ، ٤ / ١٤ ، ٧ / ٣٧ — ٣٩ ، ٢٠ / ٢٢).

**هـ) طعنة الرمح** (١٩ / ٣١ — ٣٧)

بعد موت يسوع يطل علينا مشهد لم يذكره إلّا يوحنا وحده.

وقد سبق ذلك مسعى اليهود لدى بيلاطس ، وهذا المسعى يصدر — بسخرية لاذعة جديدة من سخريات يوحنا — عن رغبة في الحفاظ على الطهارة التي تنص عنها الشريعة. في تثنية الاشتراع (٢١ / ٢٢ ...) ، يجب أن ينزل جسد المصلوب عن الخشب قبل الليل ، لأن المصلوب هو لعنة من الله (غلا ٣ / ١٣) ؛ وجسد المسيح لا يجوز أن ينجس الأرض المقدسة.

ثم يأتي مشهد كَسْرِ السُوق. فالغاية من كسر الساق هي التعجيل في موت المصلوب ، لكي يصار الى انزال جسده ، ولما وصل الجنود الى يسوع ، رأوه قد مات فلم يكسروا ساقيه. ولكن واحداً منهم طعنه بحربة في جنبه. وكانت الطعنة عنيفة. فخرج على أثرها دم وماء.

ان هذه الظاهرة تُفَسَّر من الناحية الفيزيولوجية ؛ فلا مجال اذن للتفتيش عن أعجوبة تقول بعدم فساد جسد المسيح. غير أن الانجيلي يعطي الحدث أهمية قصوى. انه يرى فيه ترتيباً الهياً خاصاً لانارة الايمان. ويذكره «لكي تؤمنوا أنتم مثله».

إذا أُخِذَ الحدث مجرّداً ، فإنه يبدو بلا قيمة تذكر. أما اذا نُظر إليه في ضوء الكتب ، فيبدو فريد الأهمية. وقد أصبح هذا الحدث مُثقلاً بالمعاني اللاهوتية ، مثله مثل الكتابة ، والاقتراع على القميص غير المخيط ، ووكالة التلميذ الى مريم ، والعطش والنَفَس الأخير. حتى في جسد المسيح ، وجد يوحنا معنى الموت مكتوباً. فهذا المعنى لم يكن جَلِيّاً ، فتعهد الله تأكيد هذا الموت ، اذ قاد الجندي الروماني الى أن يطعنه بالحربة. ويوحنا نقله إلينا باسمه. وحدث هذا لتتم الآية : «لَن يُكْسَرَ له عظم». وهذه العبارة مأخوذة من رتبة عيد الفصح (خر ١٢ / ٤٦ ، عدد ٩ / ١٢) اذ كانوا يسهرون على ألّا يكسروا عظماً من الحمل الفصحي في أثناء تحضيره. ولمّا سمح الله بألّا تُكْسَرَ ساقا يسوع ، دلّل على أنه حَمَلُ الفصح الجديد ، الذي يرمز إليه فصح اليهود. لقد أعطى يسوع حياته للخلاص الحقيقي ، الذي ينتزع البشر من العبودية الحقة : ليس من أرض مصر — كما في السابق — بل من عبودية الخطيئة (٨ / ٣١ — ٣٦). ولمّا لم يسمح الله بكسر عظم من عظامه ، يكون قد أيد شهادة يوحنا المعمدان في بداية الانجيل : «هوذا حمل الله الذي يحمل خطيئة العالم» (١ / ٢٩) وثَبَّتَها.

وجاء في آية أخرى : «سينظرون الى مَن طَعنوا». ان هذه الكلمة مأخوذة من زكريا (١٢ / ١٠) ، من كلام للرب متنازَع في معناه. في رؤيا النبي ، ثمة بريءٌ حُكم عليه بالموت في أورشليم ، ولكن هذا الموت أصبح مناسبة للنعمة ، والتوبة ، والصفح. وارتفع النواح على الضحية ، كما يرتفع

على موت البكر، فتابت أورشليم، وجرى نبع لغسل الخطايا، وأُنزل روح جديد: «فينظرون إليّ أنا الذي طعنوه». فالآية التي سردها يوحنا، تقصد التذكير بهذا الوحي. ومشهد الجلجلة يحقق كل تفاصيل هذا الوحي، ومن جديد ينجلي معنى موت المسيح المصلوب، ومن جنبه المفتوح جرى، ممزوجاً بالدم، ماء يرمز الى الروح الذي سيجدّد البشرية.

رأى الكثير من آباء الكنيسة، في الماء والدم الخارجَين من جنب يسوع المسيح، رمزاً لسِرَّي العماد والأفخارستيا. اللذين يهبانا الحياة، انطلاقاً من آلام المسيح. فهذا التفسير لا ينفصل عن الأول ويتوافق مع فكرة يوحنا.

غير ان النعم التي تنتج عن هذا الموت، لا تصلنا إلا عن طريق الايمان، الذي نعبر عنه بنظرنا نحو المطعون بالحربة. وقديماً نجا العبرانيون من الموت، في الصحراء، عندما كانوا يرفعون أعينهم الى الحية النحاسية التي رفعها موسى بأمر من الله (عدد ٢١ / ٨، حكمة ١٦ / ٦). وقد تحققت هذه الصورة النبوية على الجلجلة، وسبق أن قال يسوع لنيقوديمس: «كما رَفع موسى الحية في البرية، كذلك يجب أن يُرفَع ابن الانسان لينال الحياة الأبدية مَن يؤمن» (٣ / ١٤ ...).

### ٣. دفن يسوع (١٩ / ٣٨ — ٤٢)

لقد دوَّن الانجيليون الأربعة مظاهر الاحترام العميق الذي رافق مراسم دفن يسوع. ان هذا العمل «يرتدي طابع الاحتفال الديني». من هنا نفهم استعمال الطيوب والعطور. ويوحنا يولي هذا العمل أهمية خاصة. انه يلمح الى المشهد النبوي الذي حصل في بيت عنيا (١٢ / ١ — ٧).

ونيقوديمس هو الذي جاء بالطيب. وقد سهر يوحنا على ذكر ذلك. انه يدعو هكذا القارئ لكي يربط بين عمل «المعلم في اسرائيل» في هذه الليلة على الجلجلة، وبين مجيئه إليه ليلاً لأول مرة (٣ / ٢ ...). وقد كشف المسيح يومها لنيقوديمس سر ابن الانسان المحيِّر، الذي يكرّمه نيقوديموس اليوم.

أخيراً، انفرد يوحنا برواية الأمر التالي: كان في محل الصلب والدفن بستان، فثمة وضعوا يسوع في قبر جديد. هل رأى يوحنا في هذا البستان مقابلاً لبستان الفردوس في التكوين؟ في أحد البستانين كذب الانسان، واستجلب الموت والهلاك (٨ / ٤٤)، وفي الآخر قُدِّمت الذبيحة المثلى، ذبيحة ابن الله، ودفنت بذرة الحياة (١٢ / ٢٤). لا بد من طرح السؤال.

الفصل الخامس عشر

# قيامة المسيح (يو ٢٠ / ١ — ٢٩)

## ١. هيكلية الفصل العشرين

اننا، رغم اكتشافنا طبقات مختلفة في الصياغة — كما هي الحال في أكثر من مقطع من الانجيل الرابع — نجد في هذا الفصل وحدة متكاملة ومرتبة تهدف الى قمة هي تطويبة الايمان (الآية ٢٩). فهذه التطويبة تستقطب الفصل كله. وتختلط، في موضوع الايمان هذا، مواضيع أخرى مهمة، سيكشفها البحث.

ان الفصل يُقسم الى أربع مراحل:

آ) اكتشاف القبر فارغاً (١ — ١٠).

ب) ظهور الملائكة ويسوع لمريم المجدلية (١١ — ١٨).

ج) ظهور يسوع للتلاميذ في أثناء غياب توما (١٩ — ٢٣).

د) قلة ايمان توما وظهور يسوع للتلاميذ في حضور توما (٢٤ — ٢٩).

## ٢. الشرح

### آ) اكتشاف القبر فارغاً (١ — ١٠)

جرى المشهد في اليوم الأول من الأسبوع. لم نعد في إطار عيد اليهود حيث حصلت رسالة يسوع الأرضية. وقد بدأ زمن جديد: الزمن المسيحي. وهذا اليوم الأول من الأسبوع الذي قام فيه يسوع من الموت، سيصبح يوم الرب، الأحد. انه يفتتح الزمن الجديد الذي نعيشه.

بكرت مريم المجدلية الى القبر، والظلام ما يزال مخيّماً. ان الرواية في الأناجيل الازائية تختلف قليلاً. فالازائيون يذكرون مجيء فريق من النسوة، وصيغة الجمع التي يستخدمها يوحنا (٢٠ / ٢): «... لا نعلم أين وضعوهُ» قد تكون دلالة الى أن يوحنا لا يجهل هذا التقليد. أمّا بالنسبة الى وقت القدوم على وجه التحديد، فيقول متى ولوقا: «عند الفجر» أو «مع الفجر». ويقول مرقس: «مع طلوع

الشمس » ، في حين يشير يوحنا ، على ما هو مألوف عادته ، الى التناسب بين الحدث واطاره الخارجي ، فيركز على أن « الظلمة ما بَرِحَتْ بَعْدُ ». ذلك بأنه منذ أن مات يسوع فالليل مخيّم على تلاميذه . ولمّا تبدأ رواية هذا الحدث فالظلام يكتنف الأرض حيث رقدت « الحياة نفسها في القبر طوال السبت . إلا اننا نشعر منذ البدء أن النور قريب . وهذا النور الطالع هو يسوع عينه .

وصلت مريم المجدلية الى القبر فرأت الحجر قد أزيل . القبر اذن فارغ . وبدون ابطاء ، حثّت مريم السير الى سمعان بطرس والتلميذ الآخر الذي أحبه يسوع ، وأطلعتهما على اضطرابها : « أخذوا الرب من القبر ... » .

فبدأ مشهد مثير : خرج بطرس والتلميذ الآخر الى القبر ، يسرعان السير معاً . غير ان بطرس كان أبطأ من التلميذ الآخر ، فسبقه رفيقه الى القبر ، فانحنى فرأى الأكفان على الأرض ، ولكنه لم يدخل ، ثم وصل بطرس بعده ، فدخل القبر فأبصر الأكفان والمنديل الذي كان على رأس يسوع . فتأكد له فراغ القبر . عندئذ دخل التلميذ الآخر الذي كان قد وصل قبله الى القبر ، فرأى وآمن .

هذه التفاصيل ليست لمجرد الفضولية ، فليس ذلك من أسلوب يوحنا ، ويرى المفسرون ان القصة مثقلة بالمعاني .

نلاحظ أولاً علاقة الصداقة التي تربط بطرس بالتلميذ الذي يحبه يسوع . انها من ميزاتِ الانجيل الرابع (١٣ / ٢٣ ... ، ١٨ / ١٥ ، ٢١ / ٢٠ — ٢٣) . ونجد هذه الصداقة في « أعمال الرسل » (١ / ١٣ ، ٣ / ١ — ٤ ، ٤ / ٣ — ١٩ ، ٨ / ١٤) .

أما توقف التلميذ وعدم دخوله الى القبر قبل بطرس ، فلا نرى فيه إلّا علامة احترام تجاه هذا الأخير ؛ ومن ناحية أخرى ، ان الانجيلي يريد التشديد على دخول بطرس أوّلاً الى القبر ، صباح عيد الفصح ، فتأكد له فراغ القبر من جسد المسيح : فالأكفان كانت على الأرض ، والمنديل كان ملفوفاً في مكان آخر على حدة ، وبطرس هو أول من رأى ذلك . غير ان التلميذ الآخر ، وهو يوحنا ، وهو صاحب الحدس الثابت ، فقد رأى داخل القبر ، مثل بطرس ، ولكن الفرق بينه وبين بطرس ، انه هو فهم فوراً لغة القبر الفارغ ، والأكفان على الأرض ، والمنديل ملفوفاً على حدة . فكل ذلك ينفي سرقة الجسد ، فرأى وآمن . آمن بقيامة الرب .

إلّا ان المشهد ينتهي بملامة لطيفة الى التلميذين لأنهما لم يكونا قد فهما بعد الآية التي تقول انه يجب أن يقوم من بين الأموات .

ومن خلال تأكيد الأحداث نرى التلميحات التي تعطي القصة معنى كنسياً شخصياً وأكيداً .

**ب) ظهور الملائكة ثم يسوع لمريم المجدلية (١١ — ١٨)**

ان يسوع لم يُظهر نفسه بعد ، فظهوره لمريم المجدلية هو واحدة من أشدّ الروايات تأثيراً في انجيل يوحنا .

أما مريم المجدلية فكانت قائمة على القبر تبكي . فانحنت نحو القبر وهي تبكي ، فرأت ملاكين ، فقالا لها : « ما يبكيكِ أيتها المرأة ؟ » . فأجابتهما حزينة : « أخذوا ربي ، ولا أدري أين وضعوه » . انها ما

نزال تفترض سرقة الجسد المستحيلة. واذا بيسوع يظهر، ويوجّه إليها السؤال نفسه ولكن بطريقة أكثر صراحة، لأنه زاد: «عمّن تبحثين؟». ولشدة حزنها لم تعرفه، فظنته البستاني، وقالت له: «سيدي، اذا كنت أنت قد أخذته، فقل لي أين وضعته لآخذه». واذا بكلمة واحدة: «مريم»، قالها يسوع بنبرة لا تخدع، وكانت كافية فعرفت النعجة صوت الراعي (١٠ / ٣...، ٢٧). فكان الجواب: «ربّوني! أي يا معلّم!».

لقد قارن البعض بين هذا المشهد المؤثر، وبين للقاء مع تلميذَي عماوس (لوقا ٢٤ / ١٣ — ٣٥). يلاحظ الأب ديبون Dupont ان قمة الروايتين هي في تعرّف التلاميذ على يسوعَ بعد تغاضي البداية. فهذا هو «الحدث»، وهذه هي العبرة الرئيسة منه. اذ لا يكفي أن يحضر المسيح، القائم من الموت لتلاميذه، بل المهم أن يتعرّفوه.

فكيف يحضر يسوع بيننا، من وراء الموت؟ وكيف ندرك هذا الحضور؟ فهاتان القصتان تجيبان عن هذين السؤالين المطروحين على الضمير المسيحي. كل واحدة منها تجيب من منظورها الخاص. فرفيق الدرب، في قصة تلميذَي عماوس، يُعرف عند كسر الخبز، الذي أصبح عندئذ العلامة السرية لحضور المسيح بين خاصته. أما رواية يوحنا فتعطي تعليماً أعمق من هذا التعليم:

فعلى صرخة الايمان والحب الصادرة عن قلب مريم المجدلية، أجاب يسوع بهذه الكلمات الغامضة المحيّرة: «لا تمسكيني، اني لم أصعد بعد الى أبي، بل اذهبي الى الاخوة فقولي لهم اني صاعد الى أبي وأبيكم، والهي والهكم». فمن المحتمل أن تكون مريم قد ارتمت على قدمَي يسوع تقبّلهما، ظنّاً منها ان الحياة ستعود، كما في السابق، وان يسوع سيسترجع حياته بين أصحابه، كما حصل للعازر (١٢ / ٢)، وانها ستستطيع أن تخدمه وتستمع إليه من جديد. ها هي تمسكه مرة أخرى بعد أن أضناها غيابه الفجائي.

ولكن يسوع لم يخرج من القبر صباح الفصح ليستعيد حياته على الأرض. انه صاعد الى الآب. ومريم تخطئ اذا فكرت أن تمسكه وتحتفظ به هنا على الأرض. لقد بدأ يسوع حياة جديدة. انه الآن مِن عَلُ (٨ / ٢٣). فقُبلات مريم، مهما كانت صادقة ومؤثرة، فإنها لا تتوافق مع الحالة الجديدة. ومهما كان حبها كبيراً، بات عليها أن تتخلى عنه، وتَقْبل، كما قبل، تلميذا عماوس، أن يفلت منها يسوع، في اللحظة التي عرفته فيها ووجدته من جديد.

هل ان يسوع يهرب من أصحابه؟ هل ان قيامته هي هروب، وهل يجب أن يفقدوه هذه المرة بدون أمل في لقياه؟ كلامه لمريم ينفي ذلك. ويجمل بنا أن ندقّق في مغزى الرسالة الموكولة إليها. لقد كُلّفت مريم أن تبلغ الاخوة شيئين: عليها أولاً أن تبلغهم من قبل يسوع القائم حيّاً من القبر، انه صاعد الى أبيه، وان أباه هو بالتالي أبوهم، وإلهه هو إلههم. هذا هو حدث الفصح في قمة معانيه. غايته هو رجوع يسوع الى نبع الحب الأبوي الذي لا ينضب، حيث كان قبلاً ومنه جاء إلينا (٣ / ١٣، ٦ / ٣٨ — ٤٢). وهدفه هو اتمام العمل

الذي وكله إليه الآب. وهذا العمل هو: «اعطاء الذين قبلوه أن يصيروا أبناء الله» (١ / ١٢). يسوع يصعد الى الآب لكي تأتينا من بشريته الممجدة نعمة الابن الواحد (١ / ١٤). واذا ترك أصحابه، وبدا لهم أنه يفلت منهم، في حين يظهر لهم قريباً جداً، فذلك يربطهم به ربطاً أوثق، كاخوة، ولكي يسكن فيهم: «لتكون فيهم المحبة التي اياها أحببتني وأكون أنا فيهم» (١٧ / ٢٦). في لقاء مريم مع يسوع في البستان، تذوقت بشكل مسبق حميمة حضور يسوع القائم من الموت[1]. بقي عليها أن تذهب الى الاخوة، وتبلغهم النبأ.

وفيما هي تحث الخطى نحوهم، على مثال تلميذَي عماوس (لو ٢٤ / ٣٣ — ٣٥) كانت تسرع نحو يسوع أيضاً. لأن حياة القائم من الموت ستشيع في قلب الجماعة، بفضل الروح القدس. وفي قلب الجماعة أيضاً وبعد أن ينتي الايمان الفصحي حب المجدلية الاستئثاري، ستجد مريم المعلم الذي جاءت تفتش عليه في القبر باكية.

### ج) ظهور المسيح للتلاميذ في غياب توما (٢٠ / ١٩ — ٢٣)

لم يكن الظهور لمريم المجدلية، إلّا مقدمة لظهوره الأساسي لجماعة التلاميذ.

ان الانجيلي يشدّد على وحدة الزمن. فظهور يسوع للتلاميذ حصل في نفس اليوم الذي ظهر فيه لمريم المجدلية: في مساء اليوم عينه، يوم الأحد. كأن نهار ذلك الفصح لم يكتمل بدون ظهور يسوع للتلاميذ مجتمعين.

وتجدر الاشارة الى تشديد الرواية على الوحدة بين الذي يظهر للتلاميذ ومصلوب الأمس. لقد نبه لوقا الى ذلك بوجود الجراح في جسم القائم من الموت، الا ان ذكر الجرح في الجنب لممّا انفرد به الانجيل الرابع، فيوحنا يصرّ على اقامة الصلة بين حادثة الطعن بالحربة وحدث العلّيّة. انه الحمل الفصحي، الذبيح على الجلجلة، يعود الى ذويه حاملاً ثمار ذبيحته. وفي سفر الرؤيا أيضاً يبدو الحمل ذبيحاً (رؤيا ٥، ٦)، أي حاملاً في جسمه الممجَّد آثار ذبيحته الخلاصية.

فيسوع العائد هو نفسه. الّا انه من عالم آخر غير خاضع لقوانين عالمنا هذا. واذا به يدخل والأبواب مغلقة، وفجأة وقف في وسطهم.

اننا نشهد هنا حادثة تعرّف، كما في القصة السابقة. شاهد التلاميذ الرب، ورافق الايمانَ الذي ملأ قلوبهم — ولم يرَ يوحنا حاجة لذكره — فرحٌ كبير: «فاستولى الفرح على التلاميذ لمشاهدتهم الرب». وقد سبق أن كلمهم عن هذا الفرح في العشاء الأخير: «سأعود فأراكم فتفرح قلوبكم» (١٦ / ٢٢).

ومع الفرح أعطاهم يسوع السلام. فقال لهم مرتين متتاليتين: «السلام عليكم!» يجب أن نرى هنا أكثر من مجرد عبارة السلام اليهودية. ان يسوع يجلب فعلاً لتلاميذه السلام ثمرة قيامته. هذا السلام

(١) لقد قارن بعض المفسرين مقارنة موفقة بين بحث مريم عن يسوع في البستان، وما رواه سفر «نشيد الأناشيد» (٣ : ١ — ٤) من أمر بحث العروس عن عريسها.

الذي كان قد وعدهم به، والذي يبدّد كل اضطراب أَحْدَثَه رحيلُه (١٤ / ١، ٢٧؛ ١٦ / ٢٠)، ويشددهم في مهام المستقبل. وهذا السلام هو سلام ابن الله المنتصر على العالم والموت! انه السلام الذي لا يستطيع العالم أن يمنحه (١٤ / ٢٧؛ ١٦ / ٣٣).

ومشهد الايفاد الى الرسالة يكمل مشهد التعرّف والحضور. والربط بين ظهور يسوع القائم من الموت، وبين إرسال التلاميذ لتبشير العالم، مشترك بين الأناجيل الأربعة وأعمال الرسل (متى ٢٨ / ١٩، مر ١٦ / ١٥، لو ٢٤ / ٤٧، أعمال ١ / ٨). ويوحنا يسترجع، في مشهد الارسال، العبارة التي استخدمها يسوع في صلاته الأخيرة قبل موته (١٧ / ١٨). والرسالة، التي أوكلها يسوع الى تلاميذه، ليست أقلّ من رسالة الابن الذي أرسله الآب الى العالم ليخلصه: «كما أرسلني الآب أرسلكم». يجب أن تؤخذ العبارة في كل أبعادها، لأنه، كما يقول أحد الشرّاح البروتستانت: «لا يوجد إلّا رسالة واحدة من السماء الى الأرض، وهي رسالة يسوع... ورسالة التلاميذ هي متضمنة في رسالة يسوع، وتكمّلها للعالم».

ويشدّد مفسّر آخر على جدية هذه الرسالة: فالمسيح يطلب من تلاميذه «أن يشعوا نوره مثل المشاعل في كل جهة. كونوا متّقدين من ناري لكي تلهبوا العالم بها. اذهبوا في الخارج حتى في الليل المدلهمّ... اذهبوا الى البعيد لأنني أنا خرجت من لدن الآب.... فكما أرسلني أبي أرسلكم. اخرجوا مني كخروج الشعاع من الشمس، وكخروج النهر من النبع، واثبتوا فيّ... وكما أنني أذيع اسم الآب، كذلك أذيعوا أنتم اسمي».

فكيف السبيل الى القيام بهذه المهمة التي تفوق القدرة البشرية، بدون مبدأ داخلي جديد؟ لذلك، بعد أن قال ذلك، نفخ يسوع فيهم، وقال: «خذوا الروح القدس».

يسوع أعطى الروحَ القدس الى التلاميذ، بالنفخ وليس بوضع اليد (أعمال ٨ / ١٧...) أو بالدهن. يجب أن نشرح اختيار هذه الحركة، بقياسها مع نسمة الحياة التي نفخها الله في أنف الانسان الأول، في بدء الخليقة (تكو ٢ / ٧). ويجب أن نتذكر أيضاً نبوءة حزقيال عن عطاء روح الله، من أجل خلق اسرائيل مطهَّراً من خطاياه، ومتجدّداً في القداسة (حز ٣٦ / ٢٥ — ٢٧، ٣٧ / ١...). وقد تحققت النبوءة يوم الفصح. فقد نفخ يسوع في تلاميذه، رؤساء الشعب المختار الجديد، الروح الذي سيكون مبدأ الحياة لخلق جديد. والفصح هو نقطة انطلاق لعالم جديد.

وبقوة هذا الروح، أعطى يسوع الى تلاميذه سلطاناً يفوق السلطان البشري وطالما شكك كتبة اليهود (متى ٩ / ٢...، مر ٢ / ٥ — ٧، لو ٥ / ٢٠...). انه سلطان غفران الخطايا: «مَن غفرتم له خطاياه تغفر له، ومن أمسكتم عليه الغفران يمسك عليه».

هذا هو عطاء المسيح القائم من الموت الى كنيسته. لقد كسب لها بدمه، ووهبها، بواسطة روحه القدوس، سلطاناً مذهلاً يغفر الخطايا، يطهِّر الضمائر، ويقود البشر بواسطة التوبة الى ملء الاهتداء، فيؤلفوا شعب الله القدوس.

### د) عدم ايمان توما، وظهور يسوع للتلاميذ بحضور توما (٢٠ / ٢٤ — ٢٩)

عدم ايمان التلاميذ الفوري بقيامة المسيح هو واحد من الخطوط المشتركة في الأناجيل الأربعة وذلك ظاهر: ان قسماً من الاثني عشر قد بدأ يشك بحقيقة الظهورات، وقد وبخهم يسوع على ذلك (متى ٢٨ / ١٧، مر ١٦ / ١٤، لو ٢٤ / ٣٦ — ٤٢). وانجيل يوحنا لم يشذّ عن ذلك، حتى ان الشك يأخذ عنده طابعاً خاصاً، اذ يتركّز على توما.

غير ان توما لم يكن مع الاثني عشر (في الحقيقة عشرة) لمّا جاء يسوع. واننا نعرف موقف توما المعارض، لما رجع الى الجماعة وأخبره التلاميذ كلهم: «لقد رأينا الرب». أجاب: «ان لم أبصر أثر المسمارين في يديه، وأضع اصبعي في مكان المسمارين، ويدي في جنبه، لا أؤمن». لقد رفض أن يثق بشهادة الجماعة الرسولية. انه يطلب برهاناً خاصاً به. ويريد أن يختبر بنفسه. ويطلب أن يرى، ويلمس. باختصار انه يفرض على المسيح شروط ايمانه. اننا نشاهد هنا طبع التلميذ السوداوي، كما بدا في قصة لعازر (١١ / ١٦).

فكان جواب يسوع تسامحاً لا يخلو من الدعابة. ويسوع الذي يعرف أن توما يخفي تحت هذه القشرة الخشنة، قلباً أميناً، ظهر للتلاميذ بعد ثمانية أيام، وكان توما معهم. ودون أن ينتظر التفت الى التلميذ المعاند، وأراه جراحاته. ودعاه لأن يضع يده فيها. خجل توما ولم يجد إلّا كلمة واحدة: «ربي وإلهي!» وأقرّ بعماه واعترف بسيادة يسوع الالهية.

ان جواب توما يمثل قمة في اعلان الايمان المسيحي (فيلبي ٢ / ٩ — ١١). وتردنا هذه الصيغة الى مقدمة انجيل يوحنا: «في البدء كان الكلمة، والكلمة كان لدى الله، والكلمة هو الله» (١ / ١). فالانجيل يبدأ وينتهي باعلان صريح للايمان بألوهية المسيح.

ويسوع يستخلص العبرة من الحدث فيقول لتوما: «آمنت لأنك رأيتني؟». ثم يكمل فيقول التطويبة الثانية التي نجدها في انجيل يوحنا. اذ ان الأولى كانت بخصوص المحبة الأخوية (١٣ / ١٧). والثانية هي الآن بخصوص الايمان: «طوبى للذين يؤمنون ولم يَرَوا». فيسوع يطوِّب الذين يؤمنون به، ولم يروا ربهم قائماً من الموت، بل يصدقون شهادة الذين رأوه وقد اختارهم هو لكي يكونوا شهوداً له (أعمال ٢ / ٣٢، ١٠ / ٤٠ — ٤٢).

نجد هنا دعوة صامتة من الانجيلي الى القارئ. فانه يدعوه الى تصديق شهادته هو، لأنه هو واحد من الذين رأوا الرب (٢٠ / ١٨ — ٢٥؛ ١ / ١٤)، انه واحد من الذين سمعوا، ورأوا بأعينهم، وتأملوا ولمسوا بأيديهم كلمة الحياة (١ يو ١ / ١).

بامكاننا أن نقارن بين روايتَي قلة ايمان توما والظهور لمريم المجدلية. فكلا الشخصين يظهران ايماناً ناقصاً بالمسيح القائم من الموت وبالايمان الفصحي. فمن جهة نجد احساساً انثوياً يحاول أن يضع يده على الشخص الذي يحبه ويحتفظ به، ومن جهة أخرى متطلبات نقدية لانسان يضع شروطاً لايمانه، كأنه يملي على الله السبيل الذي يجب أن يسلكه لاظهار نفسه، ولنيل رضاه. في الحالين، نحن أمام الكائن البشري الذي لا يعطي

ذاته ما لم يفز بحبيبه ويمتلكه ويحتفظ به على هواه. وفي الحالين نجد الجهل نفسه لسمو حرية الله المطلقة في عطائه. والتسليم الكامل لله، في الحالين، مطلوب. فعلى مريم أن تتخلى عن رغبتها في امتلاك معلّمها، وأن تنتظر في الايمان حضوره الحقيقي والحميم، وعلى الرجل، الذي يعقلن الأمور، أن يُخضع حكمته الصغيرة لحكمة الله. وعلى الاثنين معاً أن يكتشفا الرب من خلال العلامات التي يعطينا اياها، هو، عن حضوره وعن حبه.

الى هذا الايمان المتجرّد، الساجد، المستسلم والمستحق الطوبى، يقودنا هذا الفصل، كما يقودنا انجيل يوحنا بأسره. وثمة مفتاح للولوج الى أعماقه.

## الفصل السادس عشر

# يسوع يتراءى على شاطئ البحيرة (يو ٢١ / ١ — ٢٥)

الفصل الأخير من الانجيل الرابع يثير مشكلة، لسببين: أحدهما انه بعد خاتمة الفصل العشرين يبدو ان الانجيل انتهى. فلِمَ يعود من جديد، في الفصل الحادي والعشرين، بما لم يكن في الحسبان؟ والسبب الثاني هو ان دراسة الأسلوب تشير الى أن في هذا الفصل بعضَ العناصر مما لا عهد للانجيل الرابع بها، كمثل عبارة «ابنَي زبدى» في الآية ٢، وقد استُعملت هنا للمرة الأولى.

فنتساءل من ثمّ ان كان هذا الفصل من صميم الانجيل الرابع أو انه زيد عليه. والمفسرون الكاثوليك أنفسهم يختلفون في الرأي فبعضهم يقول بأن الفصل زاده أحد تلاميذ يوحنا؛ وبعضهم الآخر يرى أن أساسه من يوحنا وقد أعاد صياغته كاتب آخر؛ وفريق ثالث يعتبر أنه، اذا ما استثنينا الآيتين الأخيرتين (٢٤ — ٢٥) اللتين يبدوا أنهما من إنشاء نفر من التلاميذ، فالفصل الحادي والعشرون هو في أغلب الظنّ من نتاج مؤلف الفصول السابقة، لأنه ليس من السهل انتحال أسلوب يوحنا.

ومهما يكن من أمر، فالجميع متفقون على ان هذا الفصل ممهور بطابع القديس يوحنا، أضف الى ذلك ان ثمة عناصر عديدة تربط هذا النص بباقي الانجيل، كمثل وجود التلميذ الحبيب الى جانب بطرس (٢٧، ٢٠ — وفكرة الراعي ١٥٩ — ١٧، والاشارة الى انكار بطرس ثلاثاً (١٥ — ١٧)، والدعوة لاتّباع يسوع (١٩، ٢٢). وتعداد الظهورات ٣٩—، الخ.

### ١. تصميم الفصل

انه يقسم الى قسمين:

آ) رواية التراثي والصيد العجائبي (١ — ١٤).

ب) حوار يسوع مع بطرس (١٥ — ٢٣).

يتبع ذلك خاتمة ثانية للانجيل (٢٤ — ٢٥).

ان هذه الرواية هي من أكثر الروايات حيوية

ووضوحاً في انجيل القديس يوحنا. غير ان عامة الشرّاح يُجمعون على أنها تحمل، في بساطتها، قصداً لاهوتياً يربط أجزاءها بعضها ببعض.

فما هو هذا القصد اللاهوتي؟

ان البعض يركّزون الانتباه على بطرس، وعلى التلميذ الحبيب. فالرواية في نظرهم، تهدف الى تحديد دور الرسولين في الكنيسة. غير ان هذا التعليل ليس كافياً. اذ، والحالة هذه، كيف السبيل الى تفسير التوسع في رواية الصيد العجائبي؟

وفي الواقع، يبدو ان القصة تقصد مستقبل الكنيسة، من خلال بطرس ويوحنا. في الفصل العشرين، نشهد المسيح القائم من الموت، يرسل تلاميذه الى الرسالة يحثهم الروح القدس، متمتعين بسلطان لغفران الخطايا. وفي الفصل الحادي والعشرين يمثّل الصيد العجائبي القيام بهذه الرسالة، كأنه مثل حيّ. ثم تظهر الكنيسة في رمز الراعي، كقطيع المسيح الموكول الى بطرس. فالفصل الحادي والعشرين يظهر اذن كأنه خاتمة للانجيل ذات هدف كنسي. اننا نجد فيه الخطوط الرئيسة لشعب الله الجديد.

## ٢. تفسير الصيد العجايبي (١ — ١٤)

**اطار** الحدث هو الجليل، وبالتحديد بحيرة طبريا، في حين أن مجمل أحداث انجيل يوحنا قد حصلت في أورشليم وفي الهيكل.

**أشخاص** الحدث هم فريق صغير من التلاميذ: سمعان بطرس، ونتنائيل، وتوما، وابنا زبدى، وآخران من التلاميذ لم يذكر الانجيلي اسميهما. وابنا زبدى هما يعقوب ويوحنا.

بعد أحداث الفصح، رجع التلاميذ الى الجليل. ويبدو أنهم استعادوا نشاطاتهم العادية. فاقتادهم بطرس الى صيد السمك. ولكنهم لم يصيبوا في تلك الليلة شيئاً من السمك.

وفيما هم راجعون، عند الصباح، فارغين، تراءى لهم يسوع، فوقف على الشاطئ وناداهم: «أيها الفتيان، أمعكم شيء يؤكل؟». فلم يعرف التلاميذ انه يسوع. مَثَلُهم في ذلك مثل مريم المجدلية عند القبر (٢٠ / ١٤)، ومَثَل تلميذَي عماوس (لو ٢٤ / ١٦). انهم هم أيضاً بحاجة الى آية لكي يعرفوه. فمريم المجدلية عرفته من صوته (٢٠ / ١٦)، وتلميذا عماوس عرفاه عند كسر الخبز (لو ٢٤ / ٣٠ ... ، ٣٥). وهم سيعرفونه من رمي الشبكة، ومن الطعام الذي أعده بيديه (الآية ١٢). «فقال لهم: «القوا الشبكة الى يمين السفينة تجدوا» فألقوها فاذا هم لا يقدرون على جذبها لما فيها من السمك».

ان الانجيلي يحرص على الاشارة الى ان التلميذ الذي يحبه يسوع هو أول من فهم مغزى الحدث، كما حصل أمام القبر الفارغ (٢٠ / ٨)، فعرفه وقال لبطرس: «هذا هو الرب!».

فهبّ بطرس ولبس ثوبه ورمى بنفسه في الماء منطلقاً نحو يسوع. يبدو لنا هنا بكل ما فيه من عفوية وحب لمعلمه.

غير ان التلاميذ الذين بقوا في السفينة، قد جرّوا الشبكة بما فيها من السمك حتى الشاطئ. ولم يكونوا إلّا على بعد مائتي ذراع من البر. فوصلوا وتجمعوا كلهم حول المسيح.

عندئذ نشط بطرس. فبأمر من المعلم جذب الشبكة، وعدّوا السمك: ١٥٣ من السمك الكبير. ان هذا الرقم ما زال يحيّر شرّاح الانجيل، ويفسح المجال لتفسيرات مختلفة ومتعددة:

١٥٣ هو مجموع الأعداد السبعة عشر الأولى = ١ + ٢ + ٣... + ١٧. انه عدد مثلّثي يمثل بمثلث متوازي الأضلاع يحوي كل ضلع منه ١٧ نقطة، وقد رأوا فيه رمز الكمال. ويقول القديس ايرونيموس ان علماء الطبيعة، في العصور القديمة، قد حصروا الأسماك بمئة وثلاثة وخمسين صنفاً.

فمهما يكن معنى هذا العدد، فانه في نظر الانجيل رمز لأهمية الصيد.

وهذا الصيد العجائبي الذي حصل بأمر من يسوع، يمثل بدون شك رسالة الرسل. والأناجيل الازائية تعطي هذا المعنى للصيد بالشبكة، اذ ان يسوع قد دعا التلاميذ لأن يكونوا «صيادي بشر» (متى ٤ / ١٨ — ٢٢، مر ١ / ١٦ — ٢٠). وقصة الصيد العجائبي في انجيل القديس لوقا، تمثل مسبقاً هذه الدعوة (لو ٥ / ١ — ١١). أما في انجيل القديس يوحنا فقد حصلت الأعجوبة بعد الفصح[1]. وذلك يعني أن ساعة التلاميذ قد دنت ليأخذوا شبكة معلّمهم. فبأمر من يسوع يتوجب عليهم أن يلقوها في مياه عميقة (لو ٥ / ٤)، ويجمعوا البشر في ملكوت الله، بواسطة كلمتهم. و ١٥٣ سمكة من السمك الكبير تمثل ضخامة عمل الغد. أما الشبكة التي لم تتمزق رغم وفرة السمك، فانها تلتقي، بمعناها الرمزي، بقميص المسيح الذي لم يمزقه الجنود، (١٩ / ٢٤). فالأب لاغرانج يقول: «انها تمثل الكنيسة التي ستبقى واحدة، مهما كثر فيها المؤمنون».

لكل شيء في الانجيل معنى. لما كان يسوع غائباً، تعب التلاميذ عبثاً طوال الليل. فحضوره وأمر منه بسيط: «القوا الشبكة الى اليمين» (الآية ٦) كانا كافيين لتمتلئ الشبكة أكثر مما كانوا يأملون. فنجاح الرسالة يتوقف على حضور الرب القائم من الموت، وعلى كلمة منه: «اذا انفصلتم عني، لا تستطيعون أن تعملوا شيئاً» (١٥ / ٥).

وعلى الشاطئ أعدّ يسوع طعاماً (الآية ٩)، ودعا التلاميذ الى الأكل، اذ قال لهم: «هلموا الى الطعام» (الآية ١٢)، ودنا وأخذ الخبز وناولهم وكذلك «السمك» (الآية ١٣). وبكلمة واحدة ذكر الانجيلي عواطف التلاميذ: انه نوع من التأثر والرهبة الدينية، فيسوع بينهم وهم يعرفون أنه قد

(١) يتساءل المفسرون ان كان الصيد العجائبي المذكور عند يوحنا (٢١) هو نفس المذكور في انجيل لوقا (٥ / ١ — ١١) أم ان ثمة أعجوبتين مختلفتين. وهنا أيضاً تختلف الآراء. فيرى البعض أن في الحادثتين من الأمور المتباينة ما ينفي اعتبارهما واحدة؛ في حين يشير البعض الآخر الى أوجه الشبه العديدة مما يدعو الى الظن انه لم يكن إلا أعجوبة واحدة. وهنا يُطرح سؤال آخر: هل تم هذا الصيد العجائبي بعد القيامة، فقدّم لوقا ذكره على ما هي عادته؟ أم على العكس تـمَّ في بداية نشاط يسوع الرسولي، فأخّره يوحنا الى ما بعد القيامة؟ من الصعب البتّ في الأمر، علماً ان ذلك ليس على جانب كبير من الأهمية.

أصبح من عالم آخر. وامتزج بفرحهم تحفّظ واحترام، ترجموا عنها بالصمت. ولما دعاهم يسوع الى الطعام، لم يجرؤ أحد منهم أن يقول: «مَن أنت؟»، لعلمهم انه الرب. فكل واحد منهم شعر شعور التلميذ الذي يحبه يسوع. لقد بدّدت نعمة ايمان الفصح كل مقاومة في قلوبهم.

يصعب علينا ألّا نتذكّر مشهد عماوس. فان نقطة الانطلاق مماثلة: في المشهدين يقترب يسوع من تلاميذه بصمت، ويدخل في حياتهم وفي اهتماماتهم بلباقة، وهم في البداية لم يعرفوه، ثم يكتشفونه فجأة ويفرحون بوجوده وبمقاسمته الطعام.

ونرجع في الذهن أيضاً الى مشهد تكثير الخبز. فالاطار هو نفسه: شاطئ البحيرة. يسوع يأخذ الخبز ويناول تلاميذه. ومن ثم السمك، كما فعل مع الجمع الغفير. العبارات مماثلة. وفي الحالين يبدو التلميح الى الأفخارستيا ظاهراً، وان بدرجات متفاوتة. غير أن الخبز هنا ليس الخبز السري، ولكن فريق التلاميذ الذي تسلّم الخبز والسمك من يدي يسوع، يُذَكِّر بالكنيسة، ويمثلها مسبقاً وهي تحتفل بحضوره السري قائماً من الموت، يكسر خبز جسده الذي يغذّيها ويحييها. ولما كانت الكنيسة الأولى تحتفل بسر الأفخارستيا، لم تكن تربطها بالعشاء السري فقط، وانما أيضاً بالطعام الذي كان يسوع يتناوله مع تلاميذه بعد قيامته. وهذا الجو من الايمان والفرح الفصحي، يجب أن يسود كل احتفالاتنا بكسر الخبز، اليوم وكل يوم، الى أن يأتي (١ قور ١١ / ٢٦).

وهكذا ترتسم على شاطئ بحيرة الجليل، صورة عن الكنيسة القربانية، لا تنفصل عن الكنيسة الرسولية. فالكنيسة هي في ذات الوقت مرسلة الى العمق لتلقي الشبكة، ومجتمعة حول ربها الذي يغذيها بيديه. انها حاضرة في العالم، ولكنها سرّ علوي، وهي تتبع حركة مزدوجة، ودائمة، من الانتشار، والتأمل، كحركة التنفس الضرورية لحياتها.

### ٣. شرح الحوار بين يسوع وبطرس (الآيات ١٥ — ٢٣)

بعد مثل الصيد العجائبي، والطعام، تأتي صورة الراعي والقطيع، فيبدأ الحوار بدون أي تمهيد، وبأسلوب مباغت، لاهث، وتتلاقى الأسئلة والأجوبة كحدَّي سيفين، بعاطفة متصاعدة التأثير: «يا سمعان بن يونا، أتحبني أكثر مما يحبني هؤلاء؟». وبلفظة هؤلاء، يسوع يعني التلاميذ الذين يحيطون به. انه يريد أن يعرف ان كان بطرس يفوقهم محبة. والسؤال يلمح تلميحاً خفياً الى اعلان بطرس عن أمانته قبل آلام يسوع، اذ انه كان قد أظهر استعداداً لأن يتّبع معلّمه، ويبذل حياته في سبيله (١٣ / ٣٧). واذا ما رجعنا الى الأناجيل الازائية، نرى ان بطرس قد قارن نفسه بالتلاميذ الآخرين، اذ قال: «لو شكوا بأجمعهم، فأنا لن أشك!» (مر ١٤ / ٢٩، متى ٢٦ / ٣٣). فَهِمَ بطرس التلميح، لذلك جاء جوابه متواضعاً. لم يعد يدّعي، كما فعل قبل سقطته. فاكتفى بأن أعلن معرفة يسوع لما في أعماق قلبه:

«نعم يا رب أنت تعلم أني أحبك». فقال له يسوع: «إرْعَ حملاني».

كرر يسوع السؤال ثلاث مرات: «يا سمعان بن يونا، أتحبني؟» فهذا الالحاح في السؤال، لا يترك مجالاً للشك: ان يسوع قبل أن يثبت تلميذه في مسؤوليته، يريد أن يوفّر له فرصة، ليعوّض عن انكاره ثلاثاً، بإعلان حبه له. غير ان بطرس قد حزن لأنه قال له ثالثة: «أتحبني؟». لذلك كان هذه المرة جواب بطرس المتواضع، جواب تضرع، كأنه شكوى وأنين يصعد نحو معلّمه: فيسوع يعلم كل شيء (٢ / ٢٥). فلِمَ التكرار؟ ولمَ الامعان في ايلام بطرس؟ فقال يسوع: «ارعَ خرافي».

قوبل اعلان حبّ بطرس الثلاثي، بتكليف ثلاثي وعهد يسوع الى بطرس بكنيسته. فعلى بطرس أن يرعى حملانها، وخرافها. انه سيكون راعي كل القطيع، (١٠ / ١٦)، وحارس الوحدة التي جاء المسيح ليجمع فيها شمل أبناء الله المشتتين (١١ / ٥٢). بالطبع ان يسوع سيبقى الراعي الوحيد الى الأبد (١٠ / ١١ — ١٤)، ولكن بطرس يؤمن الاستمرارية. فباسمه يمارس كامل السلطة الراعوية، ولا يحق لأحد غيره أن يدّعي مهمة ادارة القطيع، وتعليمه، وتقديسه، ما لم يكن متحداً به (١٠ / ٧).

غير ان بطرس لن يشترك في رسالة الراعي الصالح، ما لم يشترك أيضاً في تضحيته: «أن الراعي الصالح يبذل نفسه في سبيل خرافه (١٠ / ١١ — ١٥). وأعلن يسوع لبطرس انه سيموت ميتة عنيفة: «الحق الحق أقول لك: كنت وأنت شاب تشدّ المنطقة بيديك وتذهب الى حيث تشاء. فاذا صرت شيخاً بسطت يديك، وشدّ غيرك لك المنطقة، وذهب بك الى حيث لا تشاء». وزاد يوحنا: «وانما قال ذلك مشيراً الى الميتة التي سيموتها بطرس». وبطرس سيموت شهيداً.

أثناء العشاء الأخير كان بطرس قد أبدى استعداده لاتّباع معلّمه. فقال له يسوع: «لا تستطيع اليوم أن تتبعني الى حيث أنا ذاهب، ولكن ستتبعني ذات يوم». (١٣ / ٣٦). فيسوع يوضح النبوءة ويؤكدها. ان بطرس سيمشي على خطى يسوع. سيخدمه حتى النهاية، ويكون معه حيث هو، ممجداً يمجّده الآب، كخادم أمين (١٢ / ٢٦). وباستطاعته أن يبدأ المسيرة من الآن. لذلك، بعد أن لفظ يسوع هذا الكلام، قال له: «اتبعني» (٢١ / ١٩). فتبعه، بتواضع هذه المرة، لأن السقطة طهرته، وكلمة الرب شجعته (٨ / ١٢، ١٠ / ٢٧ ...).

في هذا المشهد يرتسم وجه جديد للكنيسة: كنيسة رسولية، تقدّم نفسها قرباناً، يقودها بطرس باسم المسيح وعلى خطاه، كنيسة الصليب (١٥ / ١٨ — ١٦ / ٤). وبطرس اذ يترك نفسه يُقاد الى

ان أهمية هذا النص ظاهرة. انه يكمل شهادة بطرس في قيصرية فيلبس، ويثبتها: «أنت صخر، وعلى هذا الصخر سأبني كنيستي» (متى ١٦ / ١٨)، كما انه يكمل أيضاً ويثبت الشهادة التي يذكرها لوقا، في اطار العشاء الأخير: «وأنت ثبت اخوانك متى اهتديت» (لو ٢٢ / ٣١). لقد أراد يسوع كنيسته جسداً يسوسه بطرس باسمه.

حيث لا يشاء، يقودها على خُطى معلّمه. ومجد بطرس لا يقوم في منصبه فقط، وانما في وجوده حيث يوجد معلّمه، في الطاعة للآب حتى الموت. ويوضح يوحنا ان الله يتمجّد هكذا ببطرس، وبالكنيسة معه. وهكذا يسهمان في مجد الابن (١٧ / ١ — ٢٢)، ولا مجال للعالم أن يستنكر هذا النوع من التمجيد.

ويوضح يوحنا ان التلميذ الذي يحبه يسوع، كان يسير خلف بطرس ويسوع. يقول: «كان يتبعهما». وهكذا ظهر في بداية الانجيل، اذ ان الكلام عن الشخص ذاته في المشهدين. أنارتْه كلمةُ يوحنا المعمدان (١ / ٣٥)، فتبع حَمَل الله، مع اندراوس. والتفت يسوع نحوهما. فرافقاه الى حيث يقيم وأقاما عنده ذلك اليوم (١ / ٣٧ — ٣٩). والتفت بطرس —كما فعل يسوع (١ / ٣٨)— فرأى التلميذ يتبعهما... فلما رآه بطرس، قال ليسوع: «ربِّ، وهذا ما هو مصيره؟». ان بطرس يريد أن يعرف مصير رفيقه وصديقه في أثناء العشاء السري (١٣ / ٢٥)، وأمام القبر (٢٠ / ٣ — ١٠). ولكن يسوع لم يستسلم أمام فضولية بطرس. فللتلميذ الذي كان يسوع يحبه، دور خاص في الكنيسة، وطريقة لاتباع يسوع، لا يحق لأحد، حتى ولا لبطرس، أن يعرفها. فأجابه يسوع: «لو شئت أن يبقى الى أن أعود، فماذا يعنيك؟ أما أنت فاتبعني».

وبالفعل ان يوحنا، التلميذ الذي كان يسوع يحبه، قد عمّر طويلاً، كما يقول التقليد. فقد بقي على قيد الحياة، بعد الرسل جميعهم، شاهدا مميزاً لكلمة الحياة (١ يو ١ / ١). وقد فسّر بعض التلاميذ كلام يسوع، بأن هذا التلميذ لا يموت. فيوضح الانجيل: «ان يسوع لم يقل لبطرس «انه لا يموت» بل قال له: «لو شئت أن يبقى الى أن أعود»».

وينتهي الانجيل الرابع بهذا التلميح الى انتظار عودة الرب. وسفر الرؤيا أيضاً ينتهي بصلاة الروح والعروس: «تعال»، ويقول الذي يضمن هذه الأمور: «أجل، اني آتٍ على عجل». آمين! تعالَ أيها الرب يسوع (رؤيا ٢٢ / ١٧ — ٢٠). اننا نجد هنا آخر وجه من وجوه الكنيسة الممتلئة ايماناً بحضور القائم من الموت والذي يرسلها الى العالم، ويخدمها بيديه، والذي يرعاها ببطرس، ويقدسها. غير انها هي تنتظر عودته، ويوم عرسه، وكما في قانا الجليل، يظهر لها عندئذ مجده بدون قياس ولا حجاب (١٧ / ٢٤، رؤيا ١٩ / ٥ — ٩، ١٢ / ٢ — ٩ — ١١).

ويزيد الانجيل هذه الكلمات: «وهذا التلميذ هو الذي يشهد بهذه الأمور ويدوّنها، ونحن نعلم ان شهادته صادقة». قد يكون فريق من تلاميذ يوحنا هو من يتكلم هنا. وهذا الفريق يؤكد أن التلميذ الذي كان يسوع يحبه، قد شهد لمجد معلمه.

ويسوع قد حقق أموراً أخرى كثيرة «لو كُتِبَتْ مفصّلة، لَحَسبْتُ أن الدنيا نفسها لا تسع الأسفار التي كُتِبَت فيها».

## محتويات الكتاب

أنجزت «مؤسسة خليفة للطباعة»
كتاب «**قراءات في انجيل يوحنا**»
في ١٥ آذار ١٩٩٢

١٥٧ - ٦,٠ - ١٩٩٢/٣/١٥

منشورات:
دار المشرق ش م م
ص.ب: ٩٤٦ - بيروت، لبنان

صدر من سلسلة «دراسات في الكتاب المقدّس»:





التوزيع:
المكتبة الشرقية - ساحة النجمة
ص.ب: ١٩٨٦ - بيروت، لبنان

جمعيات
الكتاب المقدّس في المشرق
ص.ب: ٧٤٧ - ١١ بيروت، لبنان